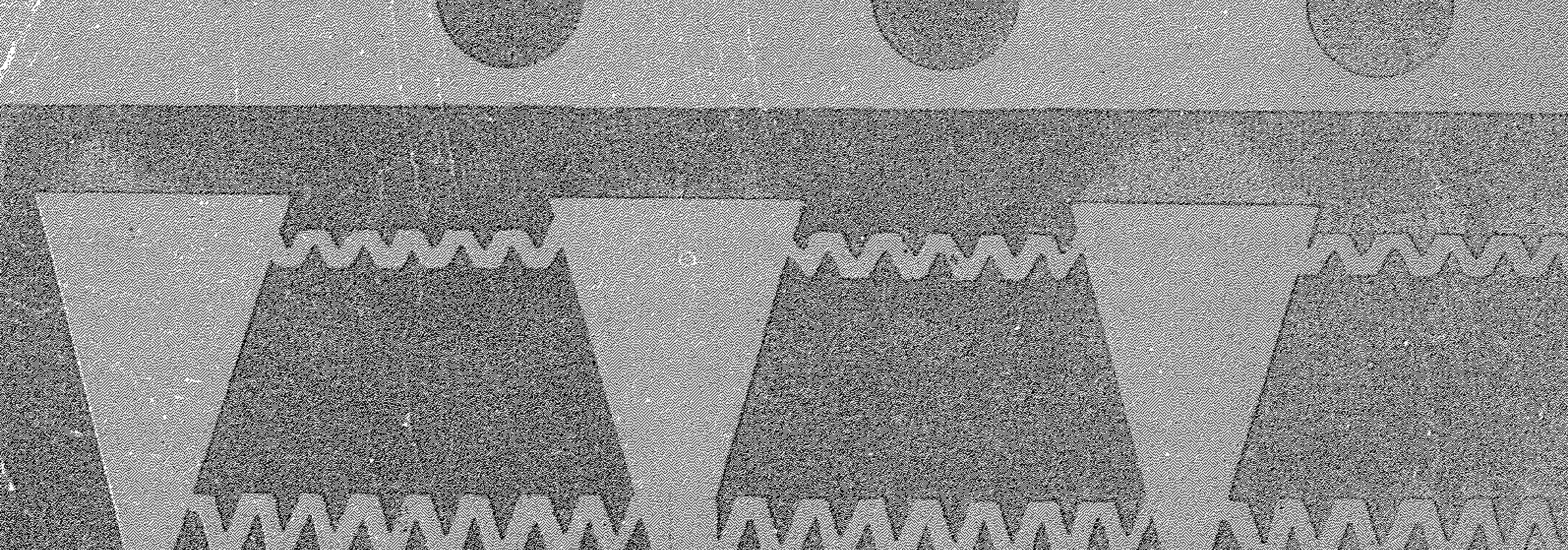
الخرافة والأسطورة

في بلاد النوبة

إبراهيم شعراوى





الهيئة المصرية العامة للكتاب

الخرافة والأسطورة في بلاد النوبة

إبراهيم شعراوي



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٤

الاخراج الفنى : راجيه حسين

الغـــلاف : سعد الدين الشريف

مقـــدمة

منذ سبعين عاما ، عاشت إحدى الأسر فى قرية نوبية بعيدة، حياة آمنة عجيبة ساحرة خلف الجندل الأول الذى يقف مثل جدار القلعة ، قلعـة التقاليد وأدوات التعبير والأخلاقيات ، ومثل قشرة صدفية لمخلوق خرافى تتصارع فى أعماقه عوامل البقاء وعناصر الانقراض فى وقت واحد .

وكانت هذه الأسرة تملك الأرض الزراعية، ويعمل أهلها بالزراعة ولكن نظرة خاطفة لهم كانت تؤكد أنهم لم يخلقوا للزراعة ، وأن هذه الحرفة لم تنعكس فى وجدانهم ،فالزراعة بجانب أنها معالجة للثمار تعنى بالضرورة الإقامة والاستيطان وتهيب الرحلة إلى المهاجر البعيدة ... والزراعة تعنى بالضرورة تعاملا حميما مع الطين والروث والفضلات القذرة كعناصر حية يمكن أن تتحول إلى زهور ورياحين ،والزراعة تعنى قبولا للسيادة المركزية التى توزع الماء وتقسم نصيب الفرد من الأرض والعمل والنتاج ..

وهذه الأسرة فى دمها الرحلة إلى المهاجر البعيدة ، وفى روحها السعى إلى أوطان أكثر خصبا وأعظم ريا ونمرا .. وهذه الأسرة كذلك تكره الزراعة وتسميها باسم مرحلة منها ليس السقى ولا إلقاء الحبوب ولا الجنى ولا الدرس ولا أى مرحلة يمكن تصتورها للزراعة والخصب والتفتح. إنما الزراعة عندهم هى السماد الحيوانى « مارو »بكل مايحمل من عفن وقذارة.وهم يقسمون السيادة تقسيما رعويا عبوديا على أساس القبيلة لا على أساس العمل والفكر وخدمة الجماعة .

إذن فقد عاشت منذ سبعين عاما إحدى الأسر فى قرية نوبية حياة أشبه ماتكون بحياة الإنسان البدائى منذ آلاف السنين وهى فى نفس الوقت مصير

حضارات و ثقافات انصهرت وتضافرت لتتحول فى النهاية إلى طقوس و عادات لاتنعكس فقط على الأعراس ومهرجاناتها ، بل هى تتفجر فى كل جانب من جوانب الحياة فى المزرعة وفى البيت.. فى النهر والجبل .. فى الفيضان والتحاريق .. فى الإقامة والهجرة .

فتعالوا نصاحب هذه الأسرة منذ شروق الشمس إلى غروبها لنعيش مع أبنائها حياة كاملة مستعرضة لنرى كيف تعيش؟ماذا تأكل من أصناف النبات والحيوان ؟ وماالطريقة التى تأكل بها؟ومن الذى يأتى بالطعام ومن الذى يعده ؟ وعلاقة الناس خارج الأسرة بطعامها فى حالات الصدقة والهدية وكل ألوان العطاء ؟ وبمثل هذا التأنى يمكن أن نقف مع الشراب واللباس والحلى وأدوات العمل وآلات الطرب .. وأنغام الشعراء والمغنين حول هذه الأشياء ..

والأسرة التى اخترتها تتكون من « جاسر » الذى بلغ من العمر ٩٥ عاما والذى كان نجارا ، ومازال يعشق صنع السواقى الكبيرة التى تأخذ مباشرة من الترعة ، والكلوتود » التى توصل الماء إلى الأراضى الأكثر علوا ، وحبه لصنع السواقى ينعكس فى رغبته الأكيدة فى تعليم الشبان هذا الفن ..

وزوجته (٧٥ سنة) « فاتى » هى مصدر الحكايات الشعبية وراوية الخرافات .. وهى تحكى بقلبها وأعصابها وهى تتمثل مواقف روائية كثيرة فتحكيها أحيانا باللغة العربية وأحيانا بالنوبية القديمة .

وبالرغم من كثرة أبناء وبنات هذه الأسرة فسوف نهتم بالابن جمال (٦٥ سنة) وهو ساحر يعتمد على القوى السفلية الشريرة ، والابنة (آشا) « ٤٥ سنة » والتى تحيا حياة غير منسجمة مع البيئة فقد سبق لها أن سافرت بعض الوقت وعاشت مع زوجها فى الشمال .. وهاهى قد عادت إلى قوم لم تعد تحب أطعمتهم ولا تأنس بهم وعلاقتها بالناس سيئة للغاية ، وهم يتهمونها بالغرور وضيق الصدر وهى تتهمهم بالجهل وضيق الأفق و « آشا »لم يتزوج رجلها « عثمان » (سن ٧٥ سنة) عليها فهى زوجته الأولى والأخيرة .

أما أخوها جمال فقد تزوج أربعاً .. الزوجة الأولى « دارية » (سن ٢٥

سنة) والزوجة الرابعة « سادا » (سن ٢٠ سنة) .. والسيدة دارية تحب زوجها وهى آمنة أنه لن يطلقها ولن يغيب عن بيتها مهما بلغ عدد زوجاته ، وهو يخاف من غضبها ، فهى الجهاز الدعائى الذى يحكى عن قوته ، وهى التى رأت كل معجزاته مما جعل القرية والقرى المجاورة تخشاه وترهب شياطينه السفليين .. وهى تحمل أسراراً أخرى تجعل زوجها الرهيب مثل الطفل الصغير أمام إرادتها .

والسيدة « آشا » ابنة (٣٠ سنة) ولأخيها جمال توأمان هما على ومحمد ، عدا مالها من البنين والبنات . أما زينب ابنة آشا فلم تتزوج .. ولها أصدقاء من أهل النهر فهى تغيب عندهم فى قاع النهر أحيانا .

أما التوأمان ولدى جمال من الزوجة الأولى دارية فهما على ومحمد (سن ٣٥ سنة) ، وهما مغرمان بالرقص والغناء ، وهما شاعران مجيدان . وهما يتطوعان بالغناء ولا يحترفانه ودارية تحكى حكايات عجيبة حدثت لولديها على ومحمد . ولعلى زوجتان وأولاد كثيرون ، أما محمد فقد طلق إحدى زوجتيه فذهبت بسلام ولم تطالبه بشىء .. إن دارية هى القوة الخفية خلف كل ماحدث .

بقيت شخصيتان لايمكن عزلها عن الأسرة هما زيدان ومبروك .. أما زيدان فعمره (٥٥ سنة) وهو من أبناء الصعيد ، وقد استقر بجانب بيت جاسر بعد أن كان يتحرك فى بلاد النوبة من الشمال إلى الجنوب ، ويصطاد السمك ثم يلقى أكواما منه بين البيوت ، ويحصل على البلح يبيعه فى الشمال .. أما سبب استقراره فهو أنه قد احترف صناعة الفخار ، يعاونه فى ذلك جاسر وبعض أبنائه وبناته .

والشخصية الثانية هى « مبروك » (سن ٦٠ سنة) من الجنوب ، يعيش مع زوجته العجوز ، أما أبناؤه فقد سافروا إلى الشمال ، وهم يرسلون إليه مايساعده ويساعد سيده جاسر ، الذى تفرق عنه الأقوياء ولم يعودوا يهتمون به إلا قليلا ..

وزيدان دائما فى حركة .. وميزته الأخرى أنه لايتحرك وحده بل يشيع

فى المكان الذى يوجد فيه جوا من الحركة والنشاط .. فعندما كان يقـوم بالزراعة ، أتى مع اثنين من أقربائه ، فصنع الثلاثة مالاتصنعه قبيلة من النوبيين وهو يحب فى جاسر دأبه وصبره على العمل وطيبة قلبه ، وجاسر يحتفى به فى أى لحظة وفى أى مكان .. وهو اليوم قد أنشأ محرقة للخزف ، وفى هذا المصنع الصغير لايحدد حمدان للنساء الأشكال التى يصنعنها بالطين وهـن يضغطن بالقواقع بعد تطريته بالماء ، ولكنه يستبعد المرأة التى لاتصل إلى الشكل الذى تعود أن يراه فى تجاربه السابقة ، وهو يراقبهن أثناء قيامهن بتلوين الفخار ثم يبدأ دوره مع بعض شباب النوبة فى دفن الأوانى فى لهب الفرن .

وزيدان لا يمكن تمييزه عن النوبيين فهو مثلهم يلبس الجلباب الناصع البياض ، والواسع كالأجنحة المشرعة ، وهو يرتدى صديريه الملون وعلى رأسه عمامة كبيرة ، وهو لايميل إلى لبس أحذية ، ولكنه فى المناسبات ينتعل مثلهم مركوبا أحمر .

وهو يركب حمار صديقه جاسر فى غدوه ورواحه لأنه فى العادة يؤدى أعماله وأعمال صديقه فى طريقه . وقد سافر أبوه مع جاسر إلى السودان حيث أحضروا فسلات النخل الذى مازال صغيرا الآن ، ولكنه لايرى نفسه دخيلا على القرية بل من أبنائها . وهو فى حياته صنع من النخل دعائم البيوت وأسقفها

ونحن نترك النهر والنخل ونتجه إلى بيت جاسر ذى الرصيف الكبير ، ونشاهد بناء مثل كل أبنية القرية من طابق واحد عظيم الاتساع كثير الزخارف كثير الألوان وإن كان اللون الأحمر هو الغالب ، والطيور ترفرف بأجنحتها فوق البيت .. طيور ملونة وحمامات بيضاء وبأعلى البيت زخارف دقيقة متقنة الصنع وفتحات البيت زخرفية هى الأخرى .

وزينب ، تلك الفتاة التى بلغت الثلاثين من عمرها تقوم بعملها من أجل إسعاد أهلها ، ولتبعد عن نفسها نظرات الرثاء الغامضة والسؤال العجيب الذى يحاول الوصول إلى سبب معقول ، لعدم تقدم الخطاب إليها طالبين الزواج منها .. فهاهى استيقظت قبل الفجر فأشعلت الموقد بالخشب وروث البهائم الجاف وخيوط من ألياف النخيل وسعفه .

وجلست زينب بجانب الموقد مثل كومة من الرماد تنفخ النار فى صبر وتحرك الجذوات بعصا صغيرة ، ومع النفخ والحركة يتصاعد الدخــان ثم تستوى النار وتكتسب ألوانها البراقة التى تنعكس على زينب فإذا هى فتاة مازال فيها خير كثير ، والحلى تلمع على صدرها ويديها ووجهها وساقيها ..

وعلى الموقد ثلاثة قوالب من الحجر تحمل السطح الساخن الذى يحول العجين إلى أرغفة رقيقة ، فإذا سخن ذلك القرص الحديدى ، صبت به عجينة سائلة من الدقيق بعد أن تلمع السطح الساخن بقطعة من القماش عليها قطرة زيت وجاسر يستيقظ من نومه فيغسل وجهه ويتوضأ ويصلى ، ثم يجلس فى حجرته ذات الأثاث البسيط على العنقريب الذى بات به ليلته ، وبجانبه صندوق كبير أسود عليه زخارف لحفظ ملابسه وحاجياته .. وعلى الأرض برش ملون ..

ولكنه فى هذا اليوم الذى ا د نا استعراضه لم يستيقظ للصلاة فقد أيقظته قبل ذلك صرخة عالية : المروه ياهوه .. المروه ياهوه .. المروه ياهوه .. فقد أصيبت أحد شباب الأسرة بلدغة عقرب .. كان هذا الشاب هو (على داريه فالإنسان ينسب إلى أمه لا لأبيه فى اسمه فى بلاد النوبة .

والشاب على هذا هو ابن جمال ، الساحر السفلى ، وقد تقمصت روحه جسم عقرب فقضى ليله فى جحور العقارب وعرف لغتهم وأسماءهم .. وفى منتصف الليل استيقظ من نومه بعد أن تحرر من أثر التوائم (بريى) فى تقمص الحيوانات والطيور والحشرات وعاد لحالته الطبيعية ، وهنا وجــد صديقاً عقربا فمد إليه يده مصافحا ، فخاف العقرب وتوقع الأذى فغرس فيه شوكته السامة ..

وقامت فاتى العجوز بتشريط مكان اللدغة لحفيدها ، أما جاسر فقد ربط حوله ومص السم وبصقه ، واطمأن على حالة الشاب ، فأذاب له قطعة من السكر (القمع) فى الماء وسقاه .. وجاسر لم يهتم بعد ذلك عندما انتشرت فى القرية إشاعة ان جمال قد قرأ بعض التعاويذ على ابنه فبرئ من

لدغة العقرب بلاعلاج . . فكلهم أولاده وأحفاده ، وهو لايريد أجرا من أحد .

ثم خرج جاسر إلى الرصيف الكبير فوجد بعض أصدقائه قد سبقوه وهم فى انتظاره ، فما أن رأوه مقبلا نحوهم حتى نهضوا وسلموا وساروا إلى أسرة من النخل متقاربة فجلسوا بينها على فراء يحملونه معهم ، وجاءت فانى بالشاى فسقتهم .. كما قدمت طبقاً من مربى البلح صنعته بنفسها ، كما أحضرت الشعرية بالسمن واللبن .. فأفطروا جميعا وشكروا لزوجها كرمه ، وركب كل منهم حماره فى طريقه للمزرعة .

وقامت زينب بصناعة السلال وأطباق الخوص مع مجموعة من البنات . كلهن أصغر سنا منها ، وبعضهن سبق لها أن حملتهن فى سن مبكرة ، والسبب أن جميع زميلاتها القدامى قد تزوجن وتركنها تستمر فى العمل مع الأجيال التالية .. ولكن مما يخفف من حزنها أنها رئيسة المجموعة فى العمل الزخرفى .

وزينب هى الوحيدة بين زميلاتها التى ترتدى الثوب الأسود « الجرجار » والذى يبدى من تحته ثوبا ملونا ، وتضع على رأسها وشاحا حريريا .. فجميع زميلاتها الصغيرات يضعن على الرءوس طرحة صغيرة ، ويضعن على الصدر حليا من الفضة .

وبعد أن تنتهى الصبيات من صنع السلال بين الأشجار والنخل ، تتجه زينب إلى النهر وتلقى السلام ، وترد السلام على الأصوات التى لايسمعها غيرها .. وأحيانا تركب « جيو » الطافية وتلقى الطعام لأصدقائها أهل النهر ،

وفى الفجر عندما كانت القرية كلها تتحدث عن لدغة العقرب ، كانت زينب فى مكان مجهول عادت منه ومعها حكايات عن أصدقائها سكان قاع النهر .

وبالرغم من أنها لم تتزوج فهى تحمل من الحلى ما يتعب جيدها وأنفها وأذنيها وساقيها .. وما أكثر ماحملت الشاى فى البيت فى صينية وناولته لأبيها ليسقى ضيفانه من الشباب ولكن أحدا منهم لم يتنبه لوجودها ترى ماالسبب؟ هل لأنها لم تذهب عند باب العجوز المباركة ؟؟

إن زينب مشغولة بالكائنات التى تعيش فى قاع النهر ، ولكنها مع ذلك لم تهمل فى تنظيف حجرة النوم ،وكنس المطبخ ومخزن الثمار وحجرة الاستقبال والحظيرة ثم استمرت تكنس إلى الرصيف الصغير أمام باب الباب وانحدرت إلى الرصيف الكبير حتى وصلت إلى أسرة النخلات فأتقنت الكنس ، فهى تعلم أن جدها جاسرا سيجتمع هنا مع أصحابه ..

ثم عادت إلى البيت سريعا فسوت الفراش والأغطية ووضعت كل شئ فى مكانه .. ثم خرجت مع بنات الأسرة إلى النهر ، وعلى رأسها وعاء كبير تحمل فيه الماء من النهر إلى الأزيار والأوانى والأوعية .

وفاتى مغرمة بصنع الأطعمة ، صحيح أنها لاتحب إلا الإتر المصنوع فقط من أوراق الشجر وتفضله على أشهى المأكولات ، ولكنها تصنع لأبنائها وأحفادها أنواعاً من الأطعمة والخضروات والشواء والمربى .. وهى تحفظ أنساب الأسر وتاريخها وأخبار الناس والقرى والبطولات والملاحم والخرافات وأفعال السحرة وعجائب الجان .

وفاتى لاتفوت أى مناسبة لتقديم العزاء فى قريتها أو فى القرى المجاورة .. وهناك تعانق السيدة التى فقدت عزيزها وتمضى تنشد شعرا حزينا منغوما تذكر فيه مآثر الفقيد .. وهى هناك لاتأكل من لحم الذبائح فهى مخصصة للفقراء .. هذا عدا الأطعمة التى كان الفقيد يحب التهامها فى حياته والتى تستمر الأسرة فى طهيها لمدة أربعين من الأيام ، وعند الغروب تقدم للفقراء .. بل إن فاتى تذهب إلى المآتم ومعها طعام يكفيها ويكفى آخرين معها ، وكذلك تفعل النساء ، حتى لايكن عبئا على أهل الفقيد .. وتظل زوجة الفقيد فى حالة حداد لمدة أربعين يوما لاتغير ثيابها ولاتغسل ثوبها ولاتقرب الماء من وجهها ولاتقص أظافرها خوف المشاهرة ، فإذا زارتها إنسانة ثم ذهبت لتوها إلى إنسانة حبلى فإنها تسقط حملها فورا بفضل المشاهرة .

وتعود فاتى إلى حيها فلاتصعد إلى بيتها بل تنادى على الحبالى والعرائس والتى أنجبت حديثا ، وكل من تصيبهن المشاهرة ليخرجن من البيت ثم تدخل هى ويدخلن بعدها ، وبذلك يسقط أثر السحر ومفعوله .

وتجلس فاتى أمام أبراش مفروشة على الأرض وبجانبها نساء كثيرات تحمل كل منهن براحة يدها قطعة من العجين تحركها وتصنع خيوط الشعرية ويتحدثن فى موضوعات مختلفة .

ودارية سيدة طويلة القامة نحيلة حادة الوجه كأنما نحتت تجاعيدها على الخشب ، وهى دائمة الابتسام ، ولكن المخيف أنك تفاجأ بها أمامك ، فهى تسير كالقطة بلاصوت وتظهر فجأة وابتسامتها الماكرة على فمها كأنما هى قط قد حاصر فأرا شهياً .

وقد تزوج جمال عليها ثانية وثالثة ورابعة ، ثم طلق وتزوج مع الإبقاء على النصاب الرباعى .. ومازال يتزوج ويطلق نساء أجمل من دارية وأغنى وأصغر سنا ، ولكن العجيب أنها بعد فترة قصيرة لاتلبث أن تصبح سيدة الجميع ، وهى لاتعتبر الأخريات زوجات لرجلها ، بل مجرد أدوات المتعة وخادمات لها ، وقد تجرأت إحدى الزوجات على معاندة دارية ، وفى اليوم التالى أحست بمغص حاد وكأن إنسانا ينفخها كالبالون ، فمضت تصرخ جاحظة العينين : طلقنى ياجمال .. طلقنى .. طلقنى .

والعرق يتصبب منها .. وتوسل الناس لجمال أن يطلقها ، فما أن ردد كلمة طالق حتى زال الألم تماما .. وقالت دارية إنها أتت بجلد فأرة فصنعت منه « قربة » وظلت تنفخها بكلمة السر فينتفخ بطن الزوجة حتى إذا ماتم الطلاق ، توقفت دارية عن النفخ فشفيت الفتاة فى الحال .

ودارية تحكي عن الجبل ومافيه من وحوش مخيفة ، وكيف أن زوجها جمالا قد خرج يوما إلى الجبل وهو مستعيذ بالخواتيم فوجد ضبعا ظنه قطة مستأنسة ، فأمسك به من أذنه وساقه إلى البيت . وفتحت دارية باب بيتها وصرخت وهى ترى الضبع . ولكن زوجها قال لها : لاتخافى — هذه قطة « كويسة » طيبة ، احضرى لها الطعام ثم اتركيها تذهب لحال سبيلها ..

وأطاعت الزوجة أمر زوجها وأطعمت الضبع وهى تكاد تسقط من الخوف . ولم يمسها الضبع بسوء . بل انطلق يعدو للجبل لايلوى على شئ .

كما تحدثنا دارية عن مخلوقات النهر وعن السحرة الذين استطاعوا أن

يعيشوا فى قاع النهر ، وأن يتجهوا إلى قرى النوبة من السودان البعيد هربا من الخراج .

والشيخ جاسر يذكر طفولته فيراها أكثر سحرا وشاعرية من هذه الأيام فقد كان يحفظ أسماء النباتات والمواد ودرجة اشتعالها من الأشجار القديمة إلى روث الحمير .. ويذكر شبابه وهو نجار القرية .. وكيف كان سيد مهندسى النوبة فى ذلك الزمان .. ألم يصنع الساقية ، أخطر آلة تحيل الأرض القاحلة إلى روضة خضراء ؟ بدون استخدام مسمار واحد أو قطعة معدنية واحدة ؟ وجاسر قد بنى بيته بيديه ، لم يساعده إلا صديقه زيدان وخادمه مبروك .. وهذه العجوز فاتى الحبيبة هى التى زينت الجدران بالأطباق والسلال ورسمت صور الأوز والديك والعقرب .. فملأها الصوامع والمخازن بالغلال والحبوب ..

وعند الغروب ساقت زينب خرافها ودوابها إلى الحظيرة بعد أن قضت معها وقتا طيبا فى المنطقة الخضراء مع فتيات القرية تحت أشجار الدوم ، لقد كانت رحلة ممتعة أنستها إلى حين آلامها الحزينة البائسة .. ثم جلست مع البنات والسيدات حول فاتى .. وعلى الضوء الخابى الذى يمد ظلالا غامضة فى المكان وفى النفوس مضت فاتى تروى الحكايات ، والجميع ينصتون .

بطاقة تعارف نوبية

النوبى مثل كل إنسان فى الوجود يميل بطبيعته إلى تفسير الأشياء المحيطة به ، فهو يريد أن يعرف الحقيقة وأن يقتنع بها : ما الفرق بين الموت والنوم ؟ ما هى الأحلام ومن أى عالم تنصب فى رؤوسنا ؟ هل الميلاد هو البداية ؟ ! أين تذهب الفرحة التى ترقص القلب ؟ هل يموت الضمير ؟ هل تتآكل أجساد الشيوخ والزعماء فى القبور ؟ ما هو الكون الذى فى قلب المرآة المصقولة ؟

ومن خلال التفكير ، عرف الانسان حقائق لاحصر لها . . ومن خلال البحث والتجربة وصل إلى أبعد مدى وفتحت أمام روحه المغاليق ؛ عرف أن السحاب يخرج من البحر ، ثم يسقط المطر الذى يشق الأنهار التى تصب فى البحر فيخرج من البحر السحاب . . عرف أن الزواج يأتى بالأبناء والأبناء يصبحون رجالا والرجولة تأتى بالزواج والزواج يأتى بالأبناء . .

وعندما كان الإنسان يعيش على التقاط الحبوب من الأرض ، كان عليه أن يواجه مصيره وحده ، ولم يكن محتاجا إلى تفسير أشياء غامضة لأن المساحة التى كان مفروضا عليه يمسحها كل يوم بحثا عن القوت كانت رهيبة ، ثم كان عليه أن ينام مرهقا ، ولا يدخر شيئا من طعامه . . ثم انتقل الإنسان مرحلة هائلة من التقدم حين صار بدائيا بعد أن كان وحشا ، فأصبح مطالبا بأن يخرج لمساعدة أبيه

فى صيد الوحوش بحجر أو بعصا بعد أن كان يعتمد على يديه وحدهما وبعد قتل الوحوش كان يلقى بها إلى النار ، ثم لا يأكل إلا بعد أبيه العجوز وأبنائه الصغار . . أما القوى الجسور الذى تعوّد فى العصر الوحشى أن يأكل أولا فقد أصبح عليه أن ينتظر حتى يشبع كل من هم أضعف منه جسما وجبلة .

ولكن الوجود منح الإنسان شيئا رائعا ، ذلك أنه جاء فى صباح اليوم التالى ومعه حجر كبير فى طريقة إلى الجبل لصيد وعل جديد ، فإذا هو يفاجأ بأن طعام الأمس الذى تركه للموقد لم يفسد ! لماذا ؟ لا أحد يعرف . .

وقالت العجوز . . ماذا يحدث للطفل حين يكون فى حضن أمه ؟ وردّ الجميع : يكون فى أمان . . يكون بخير . . وهنا قالت العجوز . . وكان الطعام فى حضن النار فأمن من الأضرار والتلف . . وهتف الجميع : النار أمنا الحانية . . ثم عبدوها . .

وكان لابد – مع ظهور المِلْك – أن يقدم المالك تفسيرا لما عنده من طيبات . . كما كان على من لا يملك أن يبحث عن قوة يصل بها إلى الطيبات . . واستعمل الفريقان كل الأسلحة المادية . . إلا أن المالك استعمل أيضا الجن والعفاريت لحماية ما يملك . . واستعمل من لا يملك طاقية الاخفاء والبساط المسحور وخاتم سليمان والحصان الطائر للوصول إلى غاياته البعيدة ! ! ومنذ ذلك التاريخ تحول الواحد الذى كان اسمه (الإنسان) إلى اثنين : مالك ومحروم . . كما تحول الكيان البشرى إلى اثنين : جسم وروح . . وانفلقت الروح إلى فلقتين روح خيرة . . ونفس تنزع إلى الشهوات . . ولم يعد الإنسان مطالبا

فقط بقمع أعدائه بل أيضا بقمع شهواته ونزواته . . ونمت شجرة الخرافة والأسطورة : فى النهر والجبل . . فى الأخاديد والصخور المسننة . . فى النوم والعمل . .

وتحت هذه الشجرة التى تمتد بجذورها فى وجدان الإنسان النوبى يمكن أن نناقش مثل هذه القضية : لماذا لا نعتبر السمك ثروة تستفيد منها النوبة فى غذائها بالرغم من أن سكانها يعيشون فى بيوت تطل على النهر الثرى بالأسماك ؟ وبالرغم من أنهم لا يهابون الماء وكانوا مغرمين بصيد التماسيح ؟أليس ذلك بقية من عبادة النهر والسمك ؟ وأنت فى اللغة النوبية ترى أن كلمة « أنِّيسى » و « أبخّسى » الأولى تعنى الأخت والثانية بمعنى السمكة . . كأنما يرى النوبى فى السمكة أخته فلا يطيق التهامها . . فإذا أضفنا للكلمة اللغوية جانبا آخر هو اعتقاد النوبى فى تناسخ الأرواح . . وإيمانه بعالم ما تحت البحر كصديق للعالم الذى يسكنه . . استطعنا أن ندرك لماذا يخزن النوبى السمك فى علب باسم « ناركين » كأنما هو محصول نادر الوجود . . أما الحكايات النوبية فهى مليئة بالخير الذى يناله من يترك سمكة ولا يأكلها ! ! . .

* * *

والنيل هو صانع النوبة وملوّن وجدان النوبى ، وحديثنا عن مدنيّة دارسة ، يطالبنا بتحديد موقع التجربة المختارة .

كان النوبيون يسكنون المنطقة الممتدة من الجندل الأول ، حيث كنا نصل إليها بعد أن نهبط من القطار عند نهاية مسيره فى أسوان ، لنبدأ رحلتنا النهرية فنقطع مسافة ١٤٥ كم فى المنطقة الكنزية فنمر

بدابوت ودهميت وامبركاب وكلابشة وأبوهور ومرواو ومارية وجرف حسين وقرشة وقشتمنة والدكة والعلاقى وقورتة والمحرقة والسيالة والمضيق . . ثم ندخل للمنطقة العربية العقيلية لمسافة ٤٠ ك م فنمر بالسبوع ووادي العرب وشاترمه والمالكى والسنقارى وكور سكو . . ثم نوغل فى منطقة القسم (أو الفاديدجا إذا سمينا المنطقة الكنزية متوكين (لمسافة ١٢٥ ك م نمر أثناءها بجزء من كورسكو وأرمنا وأبو حنظل والريقة والديوان والدر وتنقالة وتوماس وعافية وأبريم وعنيبة والجنينة والشباك ومصمص وتوشكى وارمناو وفريق وبلانة وقسطل إلى أدندان . .

ثم النوبة السودانية التى تشمل حلفا وسكوت والمحس ودنقلة . .

وكانت سفينة البوسطة وسيلة المواصلات النهرية لهذه المنطقة من السودان ومصر ، وكان ذلك الخط الملاحى تابعا لسكة حديد حكومة السودان . . هذا عدا الانتقال بالقوارب والسفن نهراً وبالحمير براً . .

والنوبة نادرة الأمطار وتسودها الرياح الشمالية معظم العام لا سيما فى الصيف مما يساعد المراكب الشراعية فى السفر إلى الجنوب . . وهى دافئة شتاء شديدة الحرارة صيفا . . وكان جوّها خاليا من الغبار والجراثيم الضارة . . وهو جو يقضى على أمراض الروماتيزم وأوجاع المفاصل والأمراض الصدرية . . ومن حاصلاتهم الحبوب والفاكهة كالعنب والمانجو والشمام والموالح كالبرتقال ومن مواد كالصمغ والقرض والجير والفحم الحجرى . .

وقد انعكس النيل فى فنون النوبيين وآدابهم . . فالنهر يثور

ويرتعد الزّبد فوقه وتصخب أمواجه وتحتدم الدوامات فيه ثم يهدأ ويستقر . . وهكذا نجد الفتاة السمراء تثور وتبكى وتقاطع حبيبها ، ولكنها مثل النيل طيبة لا تلبث أن تهدأ وتغفر . . والأمواج تتهادى فى سيرها مثل سير الفتاة فى خيلائها . .

. . .

وقد منح النيل للمواطن النوبى كلمات لا يمكن ترجمتها فى اللغات الأخرى بكلمة واحدة . . بل بجمله تصف التجربة التى تلخصها الكلمة النوبية . . وأنا أقدم على سبيل المثال أربع كلمات هى :

(١) كلتوُدْ (٢) تلوجا (٣) ونّجْ (٤) فِتّجْ

(١) إن الساقية هى قلب الحقل النابض . وهى تمد الأرض بالحياة من خلال شريان عظيم هو الترعة ، وأوردة شعرية كثيرة ممثلة فى القنوات . . ولكن هذه الشرايين لا تلبث أن تقف عاجزة أمام قطعة من الأرض المرتفعة التى لا تستطيع المياه أن تصعد إليها . . ومثل هذه الأرض المرتفعة كثيرا ما تظل جرداء تحلم بما يرطب تربتها . . ويقوم الفتيان الأقوياء ذوو الخبرة الكبيرة فى أمور الزراعة (التُرْبَرْ) بعمل شاق يواجهون به هذه العقبة الطبيعية فى قرى لا تعرف الروافع الصناعية ولا المضخّات ، ولا تميل كثيرا إلى استخدام الطنبور . . هؤلاء الفتيان يقيمون ساقية « كُلُتُودْ » عند طرف تلك الأرض .. ولابد لهم من معرفة جيدة للموازنة بين جهد الساقية الكبرى وطاقة الساقية الصغرى . .

(٢) ولما كانت الروح الجماعية تعبيرا أصيلا عن طبيعة النوبى

فإن الفتيان قد يتركون أرضهم ويتجهون إلى أرض مجاورة ومعهم أدواتهم ويقومون بالزراعة بطريقة تعاونية مشتركة « تُدُّوجَا » ثم يتحرك الجميع إلى الأرض الأولى وهكذا . .

ولا يكون التعاون فى الزراعة دائما فى انتظار خدمة مقابلة ، فقد يقوم شاب بمساعدة كهل .. وفى هذه الحالة يقوم احتمال كبير أن يتزوج هذا الشاب من ابنة الكهل .

(٣) وشاى الضّحى ليس مجرد مشروب ساخن. . إنه عملية مرتبطة بالعمل الزراعى فإن الأرض تقسّم إلى أحواض. . ويمر الماء إلى الحوض الأول حتى يمتلىء ، ومن أعلى جدار الحوض يتسرّب الماء من منفذ جانبى إلى الحوض الثانى والثالث وهكذا . .

وامتلاء الحوض « وتج » يحتاج إلى فترة تطول وهذه الفترة يقضيها النوبى فى شرب الشاى والحديث الرطيب الذى يلازم الشراب والمزاح وسرد الذكريات . . وربما تخلل المجلس بعض الغناء البطىء الإيقاع مثل المواليا النوبى المشهور باسم « دسى ايموئى » . .

(٤) والأطفال يلعبون تحت النخيل بينما تجلس جدتهم وأمامها طبق به (آشلى) القمح المشوى. .وكلما أحس طفل بالجوع أعطته الجدة بعض الحبوب ..ولأن الجدة تظل مكانها فترة طويلة تقول الفزورة النوبية «جدتى تجلس فى لفح الهجير ولا تغادر مكانها » والحل هو « الوتد » والتشبيه هو إن الجدة تجلس مثل الوتد . .

ومع مرور الوقت يقل القمح ويكثر التراب بطبق الخوص .. هنا تحرك الجدة الطبق بيديها حركة سريعة وتنفخ فى نفس الوقت

« فِتْجْ » فيبقى القمح ويتطاير الغبار .. ثم تقوم الجدة بتنقية القمح من الرمل والحصى . . وهذا المنظر رأى فيه الشعراء الشعبيّون رمزاً للحنان . .

* * *

والشاطىء عند النوبىّ يعنى الأَمْن بينما الجبل يعنى الرُّعب كما أن النوبة مجتمع مغلق لذلك يمكن للشط أن يكون ثقبا فى جدار التقاليد لإمكان حدوث لقاء عاطفى يتطور إلى زواج . والشاطىء فى ضوء النهار له عند النوبى معنى مخالف عنه فى الليل حيث ترتع المخلوقات الشريرة التى تخرج من النهر[1] لتتلف البلح أو من وحوش الجبل تهبط لتشرب . . والشاطىء امتداد لبيت النوبى ، وكان التجار يلقون بضائعهم على الشاطىء أمام كل قرية ويعودون فيجدونها مكانها لم تمسها يد ولم تنقص شيئا . . وقد ذكرت (العوامة) فى شعر النوبة باعتبارها بقية السفينة البدائية وهى رياضة وتسلية أكثر من وسيلة انتقال لذلك ترتبط به بالشباب والقوة .

أما السمك عند النوبى فهو طعام ، طازجاً ومحنطاً ، وهو مخلوق مقدس لذلك لا يذكر كثيراً فى الحكايات على أنه طعام بل على أنه قوة سحرية وبائع السمك يذكر فى الحكايات القديمة باسم (سماك) أي الكلمة العربية بالرغم من وجود لفظ نوبى[2] له هذا بجانب عدم استعداد النوبى لبيع السَّمك للتقديس القديم . كما أن السوق

---

(١) فى اساطير النوبيين وحكاياتهم الشعبية مخلوقات مثل أمن دجر أو إستى دجر وأمان نتو ، كما أن التمساح له رموز عند تصور النوبى

(٢) سمك بالنوبية (أنجسى) وبائع (جانى) فبائع السمك يجب أن يكون (أنجسى جانى) لاسماك ، ومايؤكد قداسة السمك أن كلمة سمكة قريبة الشبه من الكلمة النوبية (أنسى) بمعنى أختى .

والتجارة لم يعرفا عند النوبيين قبل الفتح العربي في مجتمع الأسرة والإنتاج العائلي . وصعوبة البيع والشراء واحتقار النوبي لهما فلا يمارسها يؤدي إلى أن النوبية قد لا تأكل اللحم طوال فترة غياب زوجها لسنوات في هجرته بحثاً عن الرزق وعندها عشرات الأغنام . . .
وهناك رقصة « الفِرّي » أي رقصة السمك البلطي والباعة العرب كانوا ينادون على السمك لبيعه بنداء عربي نوبي « آنجس بالسمك ». والنوبي يفسر بعض الأمراض مثل « الشفة الأرنبية » وهو أن تتشقق الشفة وتحتاج لعملية جراحية لالتئامها بأن ذلك من أكل السمك . الساخن. والنوبي يتصور في النهر كائنات أخري غير السمك والتماسيح مثل « إسي دجْر أو « أمن دجر » « وأمن نتو » . . والسواقي ووسائل الري القديمة هي الشائعة . والساقية والمنطقة التي حولها تسمى باسم صاحب الساقية . وفي الصيف يأتي للنوبة عمال زراعيون من الصعيد ليساعدوا الأهالي حيث يعملون بالفئوس (الطورية) في أرض لا تحتاج إلى حرث أو تقليب في أغلب الأماكن . وكذلك الجرافات التي تسوّي الأرض والمناجل الصغيرة والكبيرة والواسوق الخشبي الذي يقيم الجسور بين الأحواض . أما في الشتاء فتستخدم السواقي وتديرها الأبقار والشواديف وأوعية من صفائح الحديد الرقيقة تُحَمل إما على الرأس أو على طرفي حامل من الخشب على الكتف . وأهم مزروعات الصيف اللوبيا والكشرنجيج والذرة الرفيعة أما في الشتاء فالبصل والفاكهة والموالح والتين الشوكي والفاصوليا والبامية والملوخية والبازلاء وأهم النخيل : البلح والسنط . والبلح النوبي ذو شهرة تتعدي حدود الإقليم . أما السنط فيفيد في عمل الفحم النباتي . . وفي الشمال موطن

الحكام والوزراء والملك . اعتبروا ثمن النخلة فى النوبة فى تقديرات التعويضات عند بناء الخزان ٢٥ قرشا فى المتوسط .

وقد تعلم النوبى من بؤسه التسامح فقد ذاق العذاب ولا يريد لغيره أن يرشفه فهو يخاف على فتاته من القسم الكاذب [١] ليس فقط. لأن عذاب الآخرة ينتظر المذنبين ولكن لأن الله قد يُطهرها من ذنوبها فيسرع بالعقاب فى الدنيا وهو – الشاعر – لا يريد ذلك . وفى السودان وبعض البلاد العربية يقول الناس للمريض (كَفَّارَةْ) بمعنى أن المرض فيه خير فهو يمحو الذنوب . وقد يكثر الفتى من العبور أمام بيت حبيبته وبجانب ساقية أبيها ويراها ويتوقع أن تسلم عليه أو أن تشير له إشارة تدل على أنها أحست به وأن قلبها خفق له ولكنها لا تنظر إليه ولا تحدثه ولا تحس بوجوده ، فيذهب الفتى إلى بعض أهلها أو أصدقاءها شاكياً من تجاهلها ، ويذهب هؤلاء إلى الفتاة لائمين قائلين : هذا ابن عمك وهو ليس فتى غِرًا نزقاً ،إنه رجل يكسب قُوتَه وتحلم به النساء وأنت يجب ألا تكونى مغرورة . ولا تجرؤ الفتاة على أن تقول إنها تصدّه ، فتتلعثم وتقول : إننى لم أره فهو لا يمر أمام بيتنا ولا فى الأماكن التى يمكن أن أراه فيها . ولا أملك أن أزوره فى بيته لأسأل عنه . ويقول لها الرسول : أنت على حق فلا يجب على مثلك أن تزوره وهنا ينشد [٢] الفتى فتاته ألا تقسم بالباطل أنها لم تره حتى لا تصاب بمكروه من غضب السماء . وهو يصور أسباب شقائه فى أن الزرع الأخضر والنخل قد غرق وأشجار المانجو والحدائق المزهرة ولم يعد

(١) من الشعر النوبى المعروف باسم دسى يمونا .

(٢) من الشعر النوبى .

الشاعر يرى إلا الشقاء ولا يسير إلا فى طرقات قاحلة تمزق أقدامه وتدمى جلده وتعرضه للمخاطر .

والنوبى يقسم بين الإسلام وعبادة نهر النيل سبيكة عجيبة . ففى « عاشوراء » و هو موسم إسلامى يخرج النوبيون نساء ورجالا من بيوتهم ومعهم العرجون « سباطات النخل » بلا بلح وقد أشعلوا أطرافها الرقيقة وأمسكوها من ناحية الجذر ويديرونها فى أيديهم بحيث يطوّحون أيديهم بشكل دائرى فيكونون من اللهب دائرة كبيرة محيطها عند أطراف السباطة ومركزها عند الكتف . . حتى يصلوا إلى النهر فيلقون بأجسامهم فيه وتنطفىء الشعلة فتتحول إلى عصا للمشاكسة والضرب حتى العجائز يهبطن إلى النهر فى هذا اليوم . . وقصة مشهورة مثال قصة نوح لا تنتهى عندهم بأن يظل النبى الصالح نوح مع من آمن فى السفينة إلى أن يفيض الماء بل أن السفينة تهب عليها عاصفة فيوشكون على الغرق ثم ترتطم السفينة بجزيرة أو ينجو ويغرق الذين وقعوا من السفينة فى هذه الجزيرة ويهبط الناجون يوم الأربعاء ، ولذلك يحتفلون بيوم الأربعاء الأخير من آخر شهر فى العام العربى ، وفى اليوم التالى لعقد القران يجتمع الأحباب ببيت العريس ثم يذهب الجميع إلى النهر فى سباق ونزق وضرب ثم يحدث العراك للمرح فى النهر أيضاً إلى أن ينتهى العريس من الاستحمام فيخرج ليلبس ثيابه الجديدة ويطلقون البخور ويسير مع الموكب الشيخ الذى علم العريس القرآن . . وبالبيت فى يوم (الزّرافة) يجلس العريس وبجانبه أستاذ القرية يقرأ له القرآن إلى آية « فى أي صورة ما شاء ركبك [1] » ويقدم أهل

(١) من سورة الانفطار – وآخر الجملة (كبك) معناه بالنوبية الطعام ، فهم يقدمون لذلك طعاما للشيخ القارئ المعلم .

العريس للشيخ طبقين من القش بأحدهما بلح وبالثاني قمح (آسليه) مغطى بقماش أبيض ثم يتوجه الجميع إلى بيت العروس . وفى الطريق يمرون بسبعة [1] من البيوت يقدم أصحابها الهدايا للعريس وصحبه تحية له وتغنى النساء « إلى مَارِمَارنْتُودْ . . يَا سَلُّو يَا لِنَّبِي . . . » ويبدأ الرقص الجماعى مع أغنية «وُوبِلاَّجَا » . . وهذه أبيات منها . .

إرْكُوتُوجَاشِي وُوبلاَّجَـــهْ تخطري وحلك يا حسناء
دِوَانِيِلْ جاشي ووبِلاجـه فى حجـرات البيـت

(1) الرقم ٧ أهمية خاصة فى الاساطير والمعتقدات النوبية كما سيأتى .

شىء من التاريخ

والنوبيون هم أوّل السّلالات البشرية على الأرض ، وإن غالبية العادات والتقاليد المصرية القديمة من مخلفات هؤلاء النوبيين [1] .

وكان الإغريق يسمّون النوبيين الأثيوبيين . . وتقاليد المصريين وعاداتهم تدل على أن أجدادهم قدموا من بلاد النوبة من بونت أو بلاد الالهة [2] . . ولم يَجِدْ الرحالة في الرحلة الطويلة من منبع النيل إلى مصبه من هم أكثر أمانة من أهل النوبة ، على الطعام والثياب والأجهزة التي تترك في القارب أياما كاملة فلا يقربه أي نوبي ولا يمسه سوء[3]

وقد استطاع النوبيون حكم مصر في فترة من فترات ضعفها . . وإن أول من سيطر على مصر العليا هو (حرحور) الذي قدم من النوبة بحجة قمع اضطرابات داخلية في طيبة . . ومن أهم ملوك كوش الذين حكموا مصر (طهراقة الذى توج فى طيبة ملكا على مصر ، وكوش عام ٦٨٩ ق . م . . وإن الفراعنة ليسوا إلا سلالة تلك الجماعات الكوشية المهاجرة إلى الشمال [4] .

وأقدم ذكر لبلاد النوبة في الاثار المصرية يرجع تاريخه إلى أيام الأسرة الرابعة . . فقد جاء فيها أن سنفرو أحد ملوك الأسرة الرابعة

(١) المؤرخ الإغريقي تيودور الصقلي أو دوروس سيلكيلوس

(٢) م . ج آركل

(٣) جان لابورت . .

(٤) لسلي جرينر فى كتابه .. السد العالى فوق النوبة- ترجمة حسين الحوت- الدار القومية بالقاهرة)

غزا النوبة وعاد منها بسبعة آلاف أسير ومائتى ألف رأس من الماشية وأنه استخدم الأسري فى تعدين النحاس فى سيناء وفى بناء هرم سقارة وقداتخذ النوبيون اللغة الهيروغليفية كلغة رسمية يكتبون بها ويسجّلون الأحداث التى تمر بها وبجانب هذه اللغة كانت لهم لغتهم الخاصة يستعملونها فى أحاديثهم العادية .

وفى أيام الأسرة السادسة امتدت حدود مصر إلى الجندل الثانى . وقد وصف القواد المصريون الذين ذهبوا إلى الجنوب أعمالهم على الجدران بالقرب من أسوان — ومن هذه الاثار ما كتبه « حرخوف » (خوف حر) فى وصف رحلاته إلى السودان إذ قال : « أرسلنى مولاي الملك لأفتح طريقا إلى بلاد يام فأنهيت عملى فى سبعة أشهر وأحضرت معى كل محصولات البلاد ونلت ثناء سيدي الملك » .

وفى أيام الأسرة الثانية عشرة عادت العلاقات بين مصر والنوبة إلى قوتها وازدهارها . . فقد استطاع ملوك هذه الأسرة أن يعيدوا النظام إلى مصر بعد عصورا ضطراب وفوضى ، وتشير الآثار إلى ثلاث حملات وجهها ملوك هذه ا لأسرة إلى بلاد النوبة : الأولى فى عهد امنمحعت الأول ، والثانية فى عهد سيزوستريس الأول ، والثالثة فى عهد سيزوستريس الثالث وهكذا ضمت النوبة إلى مصر .

ومنذ ذلك الحين اهتم ملوك الدولة الوسطى بإقامة القلاع والحصون على الطريق بين أسوان وكرمة لتأمين الطريق وحماية سبل الاتصال بين البلدين وكانت كرمة مقرالحاكم العام للنوبة فى عهد هذه الدولة .

وحوالى عام ١٧٣٠ ق . م أغار الهكسوس على مصر واستولوا عليها وانتزعوا السلطة من أبنائها فهاجر كثير من المصريين إلى بلاد النوبة

فراراً من الظلم وأنشأوا عدة مهاجر أهمها (مهجر أرجو) ومازالت بها الآثار إلى الآن .

وبينما كانت مصر تئن تحت نير الاستعمار الهكسوسى كانت النوبة تنعم بالأمن والاستقرار . وكان ملوك النوبة فى ذلك العهد من القوة بحيث زوج ملك أثيوبيا ابنته لأحمس الأول وساعده على طرد الرعاة . . ويقول نعوم شقير « إن أحد ملوك الأسرة الحادية والعشرين[1] المسمى سمنتو ميامون نفى بعض الكهنة المصريين إلى اثيوبيا فأدخلوا عبادة الإله آمون إلى « نباتا » وقوّوا الأثيوبيين فخرجوا عن طاعة مصر واستقلوا تحت حكم كاهن منهم ، ونفهم من هذا أن الكهنة المصريين هم مؤسسو مملكة نباتا المستقلة .

وهكذا استطاع أحمس الأول أحد أمراء طيبة أن يطرد الهكسوس من البلاد وأعلن نفسه ملكا على مصر المتحدة وأسس الأسرة[18] الثامنة عشرة . فصارت طيبة عاصمة مصر وأصبح إلهها آمون رع معبود مصر كلها . وعبد النوبيون آمون رع فصار جبل البرقل أو الجبل المقدس مقر عبادة هذا الإله . وشرع المصريون فى إنشاء معابد على طول البلاد وأنشأوا معابد فى كلابشة وجرف حسين والسبوع والدر وابريم وأبو سنبل وحلفا ودلجو وجبل البرجل حيث كان الكهنة والجنود والصناع يقيمون . وأصبحت البلاد حتى نهاية دنقلة قسماً من أقسام مصر سياسياً ودينياً وإدارياً ومركزاً لنشر الدعاية المصرية بين الأثيوبيين . ثم جاء عصر ملوك نباتا المستقلة وأول من عرف من ملوك النوبة المستقلين « كاشتا **Kashta** » وقد اتخذ نباتا عاصمة لملكه ولقب ملك كوش وطيبة مع أن سلطته لم تمتد إلى مصر السفلى

(معالم تاريخ سودان وادي النيل للأستاذ الشاطر بصيلى عبد الجليل)

وكوش هو الجد الأعلى للنوبيين وأخو مصرايم الجد الأعلى للمصريين وكلاهما من حام بن نوح كما تقول التوراة (تاريخ مروج الذهب لأبى الحسن بن الحسين بن المسعودي) .

وأهملت اللغة الهيروغلفية وكتب النوبيون بأحرف محلية جديدة سميت فيما بعد الكتابة المروية نسبة للمملكة مروي وإن كان تأثير الهيروغلفية فيها واضحاً (موجز لتاريخ السودان لمرجريت شينى صفحة ٥ ، ٦) .

وفى كتاب (شعوب وحضارات أفريقيا) « بقلم هـ . بومان ـ باريس سنة ١٩٦٢ » .

أن تاريخ النوبة يرجع إلى حوالى ١٠٠٠ سنة قبل الميلاد عند قيام الأسرة الفرعونة الحادية والعشرين عند قيام الدولة الحبشية المسماة نباته التى كان مقرها منطقة النوبة ، تلك المنطقة التى ظلت محتفظة بأصلها النوبى منذ الأسرة الثامنة عشرة وخضعت للحكم الفرعونى فى الأسرة الحادية والعشرين .

وتولى بعنخى (Biankhi) حكم النوبة بعد كاشتا ويعتبر بعنخى من أقوي الملوك الذين ظهروا فى نباتا بل هو مؤسس الإمبراطورية النوبية وفى أيامه . حاول تفنخت مؤسس الأسرة الرابعة والعشرين المصرية استرجاع الصعيد من النوبة فجرد جيشا قويا وقاتله فى عدة مواقع حتى تم له النصر . . (منقوش على حجر وجد فى معبد آمون رع فى جبل البرقل ونقل منه إلى متحف القاهرة) . وقد اشتهر

بعنخي بمبانيه التي لا تزال موجودة بجبل البركل فقد أعاد بناء المعبد الذي بناه المصريون من قبل كما شيد معابد أخري . وكان أول من استعمل الهرم من ملوك نبته (تاريخ السودان لمندور مهدوي صفحة ١٨ ، السودان لعبد الله حسين جـ١ ص ٣١) .

وتوفى بعنخي فخلفه في الحكم أخوه « شباكا » وكان من أعماله أن قاتل باكوريس بن تفنخت مستعينا بالأمراء المصريين الذين كانوا يبغضونه ووقع باكوريس في يد شباكا فألقاه حيًا في النار [1] .

ويعتبر شباكا المؤسس الأول للأسرة الخامسة والعشرين الأثيوبية فى مصر ويؤثر عنه أنه كان عادلا فى حكمه محبا للإصلاح شاد الجسور ورمم المعابد وحفر الترع ونظم الإدارة . وأبقى كل رئيس على إقليمه تحت اشرافه . (من كتاب تاريخ السودان لمندور مهدوي ص ٣٢ ، ص ٣٧ (وجعل شقيقته امنارديس **Amenardis** ملكة فى طيبة .

شبتاكا **Shabataka** (٧٠٠ – ٦٨٨ ق . م .) وتولى شباتاكا الحكم بعد شباكا وكان الوجه البحري تتنازعه فئتان من المصرية فانتهز شبتاكا الفرصة ووجه إليه جيشاً قوياً تمكن من الاستيلاء عليه وجمع السلطة في يده ثم خرج عليه طهراقة أحد أمراء النوبة فقتله واستولى على السلطة .

ويعتبر طهراقة) ٦٨٨ – ٦٦٣ ق . م (اشهر ملوك النوبة وهو ابن بعنخي وقد بدأ حكمه بالعمل على تطهير البلاد من العصاة . إلى أن أغار أشور أخي الدين **Esarhaddon** ملك أشور على مصر فلم يستطع

---

(١) عقوبة الحرق من بقاياها فى الحكايات النوبية كثير من الصور و الأوصاف .

مقاومته وتقهقر بجيشه إلى نباتا ولكنه عاد إلى مصر عند ما بلغه مرض أشور أخى الدين وأغار على منف واستولى عليها . فاضطر أشور أخى الدين إلى التنازل عن الملك لابنه الأكبر أشور بانيبال Achurbanpal الذي تقدم بجنوده إلى مصر ونكل بالنوبيين وأخرجهم من منف ورجع إلى بلاده . وما أن وصل إلى عاصمة ملكه حتى رجع طهراقة على رأس جيشه وتمكن من الاستيلاء على طيبة . وحكم طهراقة أكثر من ٢٠ سنة وأقام هرماً في نوري قرب الجندل الثالث . وأشرك معه فى الحكمة ابن شباتاكا المسمى تانوت آمون وعينه حاكما على الصعيد سنة ٦٦٣ ورجع إلى نباتا متعبا من كفاحه مع آشور حيث مات .

وعلى طول الطريق من الشلال الأول إلى الجزيرة فى السودان نجد ما خلفه النوبيون من آثار رائعة تشهد لهم بالتفوق والبراعة في الفنون جميعاً . . وأهم هذه الاثار آثار نباتا ومروي . ففى نباتا ١٣ هرما وهيكلا من بناء طهراقة . وفي مروي معبد لامون وأهرام تبلغ الثمانين وبركة تجتمع فيها المياه تحوطها آثار هياكل فخمة . وفى نوري قرب الجندل الثالث هرم من بناء طهراقة وبه معبد كبير . وفى عمارة على بعد مائة ميل جنوب حلفا هيكل من بناء ملوك مروي . وتولى تانوت آمون Tanutamon الحكم (٦٦٣ — ٦٦١ ق . م) . فزحف إلى الوجه القبلى واستولى عليه بلا قتال بمساعدة طائفة من النوبيين كانوا قد استقروا فى طيبة وضواحيها ثم سار إلى منف واستولى عليها وتقدم إليه أمراء الوجه البحرى مظهرين له الطاعة والخضوع . . وقد نقشت هذه القصة على حجر وجد فى أطلال نباتا وفى سنة ٦٦١ بعث آشور بانيبال جيشاً إلى مصر لإخراج النوبيين فانسحب تانوت

آمون إلى طيبة فتعقبه الأشوريون واستولوا على طيبة ونهبوها وأتوا على ما فيها من معابد . . وعاد تانوت أمون إلى نباتا . . وانتهى الحكم النوبي لمصر . . واستمر تانوت أمون يحكم أثيوبيا إلىسنة ٦٥٣ ق . م

ثم قامت مملكة مروي فى الجنوب بينما ظلت نباتا عاصمة للإقليم الشمالى ثم تغلب ملوك مروي على نباتا وتم توحيد البلاد وانتقال العاصمة إلى مروي لتكون آمنة من غارات الأعداء فى الشمال ولازدياد الجزء الجنوبي من البلاد بعد انفصال النوبة عن مصر .

وتقع مدينة مروي على النيل على بعد ٢٣ ميلا شمال شندي وهى غير البلدة المعروفة بهذا الاسم الان فهى تقع قرب مدينة نباتا القديمة . وأخذت البلاد تتسع جنوبا منذ القرن السادس قبل الميلاد حتى شملت إقليم النيل الأزرق الخصب المعروف باسم علوه Aloa وكانت مروي معاصره للفرس والبطالسة والرومان .

وقد استقدم هؤلاء الحكام عددا كبيرا من الصناع المصريين فتطورت على أيديهم صناعة الفخار الأحمر ذي الحافة السوداء ونحتوا التماثيل الجنائزية وصنعوا السيوف البرونزية ذات المقابض العاجية الجميلة وطعموا السرر بالعاج على شكل زحاف ونعام وضباع وطيور الخ) من كتاب الشعر الحديث فى السودان للدكتور عبده بدوي – سنة ١٩٦٤ – مطابع الشعب القاهرة) كما صنعوا الأواني من الفيانس Faience الأزرق وزخرفوا المنازل بالبلاط. الأزرق الجميل وصنعوا رقائق المايكا على شكل حيوانات لتغطى رؤوس النساء (موجز تاريخ السودان تأليف أ . ح آراكل) . وفى كرمة بين الشلالين الثالث والرابع بين طمبس وجزيرة ارجو الشهيرة بالاثار

حاميات وقلاع . . ومبانى ما تزال آثارها باقية وتعرف محلياً بالدفوفه (تاريخ السودان من أقدم العصور للأستاذ مندور مهدوي) .

وحينما احتل الأغريق مصر أطلقوا اسم أثيوبيا على البلاد التى تليها جنوبا دون تحديد وقد جاراهم الرومان فى هذه التسمية (تاريخ التربية فى السودان ج ٣ ص ١ ، والسودان لعبد الله حسين ج ١ ص ٤) بمعنى الوجه المحترق أو الوجه الأسود .

يقول هيرودوت :

« إن حامية الفنتين ويبلغ عدد جنودها ١٤٠ ألفا هربوا من مصر وعرضوا مساعداتهم لملك أثيوبيا لاستيائهم من بقائهم ٣ سنين فى جزيرة الفنتين) (جزيرة أسوان) بدون تنقل . ورحب بهم ملك اثيوبيا (واختار منهم أشدهم وضمهم إلى جيشه وأرسل البافى لقتال أعدائه واسكنهم المنطقة الواقعة جنوب مروي أو فى الجزيرة الواقعة بين النيل الأزرق والأبيض على رأى آخر .

وظلت العلاقات قائمة بين مصر وبلاد النوبة فى العصر البطلمى وازدادت هذه العلاقة على يد بطليموس الثانى الذي اهتم بربط البلدين ونشطت التجارة فى عهده حتى صار المكان الذي تشغله سواكن الخالية أعظم مرفأ تجاري بين البلدين وفى عهدهم امتدت حدود مصر المحرقة على بعد نحو ٨٠ ميلا من الشلال الأول . ومن آثارهم فى بلاد النوبة هيكل جزيرة فيلى المعروف الان بأنس الوجود ، أقامه بطليموس الثانى وأتمه من بعده من جاء بعده من البطالسة . وهو هيكل على جانب عظيم من الروعة والجمال .

واشتهر فى مروي فى هذا العهد ارجيمنس وهو معاصر لبطليموس . الثانى وكانت أيامه من أزهى عصور أثيوبيا ،وقد استعان بالمصريين فى بناء معابد جديدة . وكان للكهنة فى عصره سلطة عجيبة . حتى إنه كان فى مقدورهم أن يرغموا الملك على الانتحار لإرضاء الالهة .

وكان ارجمينس يكره الكهنة ولا يطيق غطرستهم فلما أرسلوا إليه يطلبون منه قتل نفسه ثار وقتلهم عن آخرهم ومن أعمال ارجمينس تحوير الديانة النوبية وإدخال النظم والقوانين الإغريقية وإنشاء هيكل فى الدكة أتمه البطالسة من بعده .

ومن الملوك الذين اشتهروا بعد ارجمينس الملك اذخر أمون ــ ومن آثاره هيكل صغير فى دابود لا يزال قائما للآن . ثم خضع النوبيون لنفوذ الرومان منذ عام ٢٩ ق . م . كما جاء فى لوحة عثر عليها عند معبد فيله . وهى مكتوبة بالهيروغلفية والإغريقية والرومانية . وحوالى سنة ٢٣ ق . م أرسل الامبراطور الرومانى أوغسطس ميقر معظم جنوده إلى مصر لغزوها . فاغتنمت كنداكة ملكة مروي (وكنداكة لقب يطلق على الملكات فى مروي أو على الوصيات على الملوك) تلك الفرصة وزحفت إلى مصر واحتلت بعض أجزائها الجنوبية . فأرسل الرومان القائد بترونوس فانتصر عليها وشتت جنودها وسار إلى نبَاتا ودمرها . وترك حامية عند أبريم وعاد . واستمر الأمر للرومان حتى أرسل الامبراطور نيرون حملة لاكتشاف منابع النيل وصلت لمنطقة السدود وظلت المحرقة آخر حدود مصر الجنوبية فى عهد الرومان إلى أن رأى الامبراطور ديوقليد تسيان أن خراج المنطقة لا يفى بنفقاتها وتنازل عنها للنوبة وأعاد الحدود إلى أسوان وقوي حامية الفنتيق . وظلت

مروي تحكم أثيوبيا إلى أن سقطت سنة ٣٥٠ م فى يد ملك اكسوم الذي جاء من مرتفعات الحبشة وضمها إليه . . وابتدأت المسيحية تنتشر فى النوبة منذ القرن الأول للميلاد . وقد لاقى المسيحيون اضطهاداً كثيرا فى أول عهدهم ففروا إلى النوبة من ظلم الرومان . ووجدوا هناك جواً ملائماً لنشر المسيحية . وفى العصر المسيحى استخدمت الحروف القبطية في كتابة اللغة النوبية وللأستاذ جرفت Grifeth كتاب بعنوان (نصوص نوبية من العصر المسيحى) جمع فيه نصوصا نوبية يرجع تاريخها إلى العصر المسيحى كتب بالحروف القبطية وقد ترجمها المؤلف إلى اللغة الانجليزية . وفي القرن السادس الميلادي أرسلت الامبراطورة ثيودوا أحد القسس المسمى جوليان إلى بلاد النوبة . فنجح هو وخلفه لونجنيوس في مهمة نشر المسيحية . وصارت منذ ذلك الحين الدين الرسمى للنوبة . وقد عنى مؤرخو العرب من أمثال : ابن خلدون والمقريزي والمسعودي وابن الأثير وابن سليم الأسوانى بالكتابة عن تاريخ المسيحية في بلاد النوبة ويعتبر ما كتبه هؤلاء أهم مصادر تاريخ النوبة في ذلك العهد وهذا ملخص لما قالوه : كان للنوبة المسيحية مملكتان قويتان : ١ — مملكة النوبة السفلى أو المقرة من الشلال الأول إلى الشلال الرابع وعاصمتها دنقلة العجوز ٢— مملكة النوبة العليا من الشلال الرابع إلى أعالى جزيرة سنار وعاصمتها سوبة على النيل الأزرق على بعد١٥ ميلا من الخرطوم . وقد عنى النوبيون المسيحيون بإقامة الكنائس والأديرة . وهناك آثار كثيرة تشهد لهم بهذه العناية . ففى جزيرة فيلى آثار كنيسة جميلة وفى أبريم آثار كنائس وأديرة وفي دُنقلة

العجوز كنيسة تحولت إلى مسجد دنقلة . كما عنى المسيحيون بتحويل الهياكل الوثنية إلى كنائس فطلوا النقوش الهيروغليفية والصور القديمة بالطين ورسموا على الطلاء صورة المسيح وبعض القديسين كما فى هيكل السبوع وهيكل فَرَّيقْ . وسقطت مملكة المُقْرةَ فى يد المسلمين حوالى سنة ١٣١٨ وبانتشار الإسلام خضعت البلاد لنفوذ المسلمين العرب فبطل استعمال الحروف القبطية وكتابة اللغة النوبية نهائياً . وتغلب الفونج على مملكة علوة حوالى سنة ١٥٠٥ فزالت المسيحية من البلاد بعد أن ظلت مسيطرة أكثر من ٧ قرون . وقد تعارضت الآراء حول مصدر كلمة فونج التى أطلقت على مملكة سنار (إسَ نَارْتِي النوبية بمعنى جزيرة الأخت – اللغة النوبية – الأستاذ محمد متولى بدر) أما رأي الفونج فى أنفسهم فهو أنهم من بنى أمية وأنهم نزلوا إلى الحبشة بعد صراعهم مع العباسيين (كما هاجر عبد الرحمن الفاتح إلى الأندلس لنفس السبب) ولكن العباسيين احتجوا لدي الأحباش مما اضطر الجماعة الهاربة إلى اللجوء للبلاد المجاورة (السودان الشمالى الخطط للمقريزي ج ١ ص ٣٠٩ تاريخ السودان القديم والحديث طبعة القاهرة) . وقد ذكر النوبة المسلمة وقد ذكر كثير من الرحالة والباحثين العرب من أمثال المقريزي فى (المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والاثار (حيث ذكر قول عبد الله احمد بن سليم الأسوانى) وفيها جماعة من المسلمين قاطنون لا يفصح أحدهم بالعربية) .

وتمتد صلات العروبة بالنوبة إلى عصور سحيقة فى القدم فقبل عصر الرومان عبر تجار العرب بوغاز باب المندب فى سعيهم للحصول على الذهب والعاج ثم جاء الإسلام لتمتد راياته المؤمنة شرقاً وغرباً

وخفقت الأعلام المسلمة فى سماء مصر عام ٦٤٠ م وأرسل عمرو بن العاص الحملات والكتائب إلى بلاد النوبة ولكنها ظلت منيعة على فرسانه . ووقف الأبطال النوبيون صامدين يدافعون عن أرضهم بروح الفداء ويصوّبون السهام إلى عيون القوات المقبلة من الشمال ومن بين الذين فقدوا عيونهم فى معاركهم ضد النوبة من كبار القادة العرب سهم بن أبرهة بن الصباح ومعاوية بن جريج . ولم يجد القائد العربى عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى مصر من قِبَل عمرو بن العاص بعد فشله فى الاستيلاء على الأرض النوبية بُداً من أن يرضى بالأدنى فيعقد معهم اتفاقية يقدم العرب بمقتضاها القمح والخيل والثياب ويقدّم النوبيون القوة العاملة من الفتيان الأقوياء والنّساء ، وحصل رماة الحدق من فرسان النوبة على معاهدة متكافئة تقول «وللرعايا من كلا الطرفين حقّ عبور الحدود على ألا يكون قصدهم الإقامة » .

وبالرغم من أن النوبيين كانوا فى ذللك الوقت مسيحيين فإن مقاومتهم لم تحمل عدواناً ضد الإسلام بل ضدّ الغزو ، والدليل على ذلك أن ملك النوبة أهدي إلى عبد الله بن سعد بن أبى سرح منبراً للصلاة وبعث معه نجّاراً يسمى «فيكتور» ليضعه فى مكانه من مسجد عمرو ابن العاص وقد ظل المنبر النوبى بالمسجد إلى عهد ذاد قرة بن شريك وفى عهد السلطان قلاوون سقطت دنقلة وزالت المسيحية تدريجيا من النوبة ... وقد تمت هجرات عربية متتالية على مدي التاريخ إلى النوبة حتى صار هو الدم الغالب على المنطقة ولا سيما بعد دخول الإسلام إذ أن النوبة مسلمة ١٠٠٪ .. ونلاحظ أن الأمثلة فيها أمثلة عربية مثل (كُل يوم ، مُبحة ، ماشاء الله ، مصر شيطان ، لا إله إلا الله محمد

رسول الله ، النّبى ، آدم ، ذِنب ، نار الغرام ، وَضّاحة ، وقت شاى مكتب) وهذه الكلمات العربية تزيد مع الزمن حتى أنك تستطيع أن تجعلها (ترمومترا) تعرف به زمن إنشاء الشعر .. ومن هنا فهى قليلة قليلة جداً فى الحكاية النوبية المحتفظة بخصائص النوبة القديمة .
وهناك نوع آخر من الكلمات العربية تمت فيها عمليات نحات لتُو ائم الحِسّ النوبى أولتسير مع قواعد النوبى فى تصريف الأفعال مثل :
(سَلُّمْنّا - لاأصلى - دُورُوش - ادار دَاوِيُومِنُّو - داووا .

الميلاد والطفولة والصبا

فى لحظات المخاض الأولى « تَاجْ » والأوجاع والطلقْ .. تأْتى المولدّة (الداية) [أونوسكار] .. ومعها يأْتى الجيران حيث يقدم كل إنسان ما يستطيع من خدمات .. لاتفضّلا ولارداً لجميل سابق بل درءاً للعنة غامضة تلحق من تتردد فى تقديم ماتستطيع من خدمات.

والمرأة الحامل تسير بين اثنتين من الصديقات مستندة على كتفيهما .. وهما يرددان من حولها نداءات مثل أغانى العمل تتلاءم مع الحركة المجهدة ومناشدة الأقدار أن نقف مع الأم فى محنتها .

وللمولدة بعد ذلك تضع السيدة الحبلى على رجليها الممدودتين فيسقط الطفل فى صحن .

وقبل الولادة يضعون قطعة من قماش البافتا على رأس الحبلى أثناء الالام .. وعند ميلاد الطفل يؤخذ القماش من فوق رأس المرأة ويمزق من الوسط ليحدث مكان دخول الرأس وبذلك يتكون أول ثوب للطفل !!

وميلاد الطفل فرحة ، ومولد الذكر من البنين عرس له تقاليده ورقصاته ونداءاته وحلقة ذكره الصوفى.. وعند مرور سبعة أيام على الولادة يقام بالمنزل حفل يقدم فيه البلح والشربات .

فالطفل يوضع فى طبق من الخوص (كراج) كأنما هو البلح أو القمح المستوي الذى يقدم هدية للضيوف .. ويوضع بجانبه عدد من التمر .. ويرفع الطبق سبع مرات (يلاحظ العدد ٧) فى مواجهة الشمس (يلاحظ الجانب العبادي الأسطوري فى الشمس) ويصنع زورق من الخوص (مراكب الشمس !!) به طعام تحمله الأم مع وليدها .. وتطلق الزورق فى النيل (يلاحظ النيل أيضا .. وهو الذي سيصاحب الكائن النوبى فى طقوس مستمرة متتالية إلى ساعة الوفاة ورش الماء على القبر وملء صحن من الطين بالمقبرة) تعبيرا عن انطلاق المولود فى خضم الحياة .. وهكذا يشارك النيل في الاحتفال بميلاد الطفل

ثم يؤتى بالبلح وتنزع النواة ويغلى بالماء مع التحريك بعصا (نبِرْ) من جريد النخيل على شكل صليب .. كما يقدم للأم « شوربة » الدجاج ويقدم للناس شوربة البلح.. وفي اليوم الثالث يذبحون خروفا لتأكل الأم .

وفى اليوم السادس يوزعون كميات من القمح على بيوت الجيران لتقوم كل جارة بطحنها في بيتها ، ومن الدقيق المتكون يصنعون في اليوم السابع (الشّدّي والنانري) من أنواع الخبز ويطهون الأطعمة المختلفة التى تقدّم للرجال والنساء .

فإذا كان المولود ذكرا أقام الرجال حلقة ذكر حيث ينشدون « سفين » الأناشيد الصوفية .

ويوضع الطفل في طبق خوص كبير ويُحمل إلى حيث ينشد للترتلون .. وفي اليوم السابع يفصّلون للطفل ثوبا لأول مرة .

وبعد الغداء يتركون بعض اللحم للساوق ليصعد به صبى دون البلوغ [ستلاحظ في أعمال السحرة فيما بعد أن الطفل دون البلوغ هوأجود وسيط حيث لاتسيطر عليه الأرواح الشريرة] إلى أعلى الدار وينادي باسم المولود الذكر .. ويهبط هذا الصبى ثم ينادي باسم الطفل فى أذنه وبعد هذا الإعلان يتناول الجميع الطعام والقماش الذي يلف به الطفل يلقى كله في لحظة واحدة إلى النيل حيث يكون القمر هلالا (عند مولد القمر) .

* * *

والمشاهرة هى لائحة الممنوعات في النوبة .. والأم تلتزم بحياة ضيقة خوف المشاهرة .. والأقارب والأهل والجيران يقدمون الخدمات بلاحدود خوف المشاهرة ! !

وللمشاهرة عقوبة قدرية لمن يخالف الطقوس.. كأن لاتدر (أثداؤها اللبن أوتعنى ألاتلد مرة أخري أو تعنى أن تصاب بمكروه .

فعلى الأم ألاتقترب من الموقد .. وألاتلمس الرماد (أوبورنى) [والرماد هو مسكن الجن فى الخرافات] وممنوع أن يدخل عليها أنماط من الناس منهم .

● من قتل عقربا .. لأن روح التوءم قد تكون متجسده فيه .

● من غسلت ثوبها (لأن غسل الثوب على شاطىء النيل قد يغري بعض المخلوقات الشريرة غير المنظورة أن تتلبس المرأة الغاسلة فهى تحمل هذه الكائنات إلى بيت الأم ..

- أو حالق ذقنه اوشعره
- أو التى عادت فورا من عزاء أوجنازة
- أو المستجلية

وهذه المشاهرة تجعل الجميع يقوم بكل أعمال الأم تاركين لها إرضاع الطفل والعناية به .

وبعد مرور ٤٠ يوما تكنس الأم بيتها وتجمع نتاج الكنس وتلقى به إلى النهر .. ثم تصبح حرة فى حركتها بلا خوف من المشاهرة .

ثم يكبر الطفل فينتقل إلى مراحل الصبا .. ويلتقى مع الأصدقاء فى ألعاب كثيرة مثل : كيوكيو .. والهندكى .. وناف نافى .. وجسر أدى .. واللادونا .. و والاوالا ..والطاب .. هذا عدا صنع بعض اللعب من الخامات المحلية .

وهذه بعض أوصاف الألعاب النوبية .

والروح الجماعية التى ظهرت قبل ميلاد الطفل هى التى تستقبله فى احتفال ثم تستمر الجماعية قاعدة للطفل فى ألعابه . وأن الظروف البائسة الفقيرة التى تجعل الطفل يلعب بالعقرب بعد نزع زبانه السام وبالعنكبوت ومنه السام ويسميه اسما راقصا « كيوكيو » وسبب التسمية أن الطفل يمسك بالعنكبوت ويقذفه فيفرز العنكبوت خيطا يلصق طرفه بيد الطفل وقبل أن يصل العنكبوت إلى الارض يحرك الطفل يده فتنعقد الخيوط وتقصر ويعود العنكبوت إلى نسج الخيط من جديد والخيط يطول ويقصر والولد يردد كيوكيو كيوكيو . والظروف البائسة هى التى تجعل الطفل النوبى لايلعب فقط

مع زميله بلعبة مشتركة بل هو فى نفس الوقت يلعب معه حينا ويدفعه حيناآخر ويجرى وراءه أو يوقعه أرضا أويبحث عنه فى مخابئه وهو يعطى لزميله الفرصة فيقدم نفسه هو الاخر لعهة لزميله .

فى لعبة الهَنْدكيّ تجد صفاً من الجنود وخلفهم للملك والوزير وإذا نفذت قطعة من وحدات الخصم إلى الملك فانها تقتله بالرغم من وجود جنود فى مواقعهم فكذلك لعبة « الهَنْدَكيّ » نجد مكان ملك الشطرنج « العريس » وأمامه صف من الجنود وليس عليك بالضرورة أن تهزم كل الجنود الحارسين بل المهم أن تصل إلى العريس ولكن الجنود لن يتركوا لك فرصة التسلل إليه .. والأطفال فى الشتاء يلعبون الهندكى موسم نضج البلح ويتراهنون بالتمر ليكون من نصيب المنتصر وفى هذه اللعبة تتصارع مجموعة ضد مجموعة وقد ثنى كل منهم إحدى ساقيه وأمسكها بيدوالمجموعة تتكون من أربعة أو ستة من المهاجمين وخلفهم يقف واحد اسمه العريس هو القلعة التى إذا اقتحمت وسقطت هزم الفريق . لذلك تقوم فرقة للمهاجمين بالدفاع المستبسل لإنقاذ العريس وفى نفس الوقت لمهاجمة العريس المقابل .

ولعبة ناف نافى شبيهة بالاستغماية ولعبة جسر ادي نجد فيها أحد اللاعبين يلقى بعظمة فك حيوان فى الطريق فى ظلام الليل ويقوم الاخرون بالبحث عن العظمة من يجدها يكون له الحق فى اختيار مكان جديد للعظمة . ولعبة الليلى وكى شبيهة بالاستغماية تحت الماء وفيها يرفع أحد الشبان رأسه من الماء ويصرخ الليلى واكى ويختفى فى النهر ويغوص الاخرون بحثا عنه ولعبة الطاب قريبة من لعبة السيجة ولكليهما أنواع عديدة فى بلاد النوبة . وتام تام لعبة مثل حادي بادي

سيدي محمد البغدادي شالوا وحطوا كله على دى بل انها تستعمل بعض ألفاظ. هذه اللعبة .. وفى هذه اللعبة يجلس الأطفال وقد مدوا أرجلهم على أعظم اتساع ممكن ويقوم اللاعب بوضع أصبعه على قصبة رجل كل منهم بالتتالى مع كل مقطع من نشيد وحين يصل إلىنهاية النشيد يلم الجالس إحدي رجليه التى وصل إليها العدد ويعيد اللاعب النشيد وهو يمر بأصبعه على قصبات الأرجل حتى يصل إلى نهاية النشيد فلم الشخص الذي وصلت الأصبع إلى رجله تلك الرجل والأخير الباقى هو الذي يقوم بإلقاء النشيد ونصه : تَامْ تَامْ / هيدين ديلو / بدينديلو / هادي يامادي / كسر السومادي / جَبْلِلْمُوتْ شيلودي / تَرِيْنكَاكَا قدم لى هذه اللعبة مع معلومات مفيدة الأستاذ جابر محمد عبد القادر من ادندان .

اللهْ دُونَا ، اللّادُونَا بلادَ لْمَسِيرْ إرْفِلْ جُوبِى جنيجُوْن كُنِيٌّ إرْيَالْ كُونْ كُنِيٌّ أَىْ شِنْكُوكُنِيٌّ ومعناه أنه ذهب إلى مصر إلى العاصمة) أو الريفمنا يسمى في السودان والنوبة) ومعه الجنيه ومعناه الريال ومعه عملة الشكو القديمة . هذا النص ينشده اللاعب وهو يطرق بيديه بأطراف أصابعه على صدره على التوالى بسرعة شديدة وهو يسير إلى صفالخصوم قبالة فريقه ويعود إلى فريقه. فإذا قطع النشيد بالتنفس قبل عودته يحجزه الخصوم عندهم (يكتفون حيث يظل فى حبس انفرادى معتقلاً عندهم) ويخرج من الفريق الثانى من يردد للمقاطع السابقة ويضيف إسْكِنْ اسْكِنْ كِرْكُوسِيتْجى ومعناه : لو استطعتم لو استطعتم وقد كتفناه تعالوا وفكونى من أساره وهو هنا فارس يشمت في خصومه ويتحداهم أن يفكوا أسيرهم . وهنا يخرج لاعب

من فريق الأسير ويردد النشيد الأول وبدلاً من الختام المتحدى يقول ردا على التحدى : أُوكُسيشُّونْ كِتُّوفِنْجَنْ ومعناه لقد فككنا أسره فتعالوا سروه ويعود مع زمليه منتصرا .

إن لعبة تام تام التى ذكرناها قريبة من الترنيمة التى تنشدها الجدة للطفل النوبى وقد جلس أمامها ومد رجليه على أقصى اتساع لهما والجدة تمر بأصبعها على الرجلين على التوالى وهى تنشد : وَلاَ وَالا سِنًّا سِيِنْتًنًّا جُولِنْ جُولاَ لِوَيَرا هَسِنْتُو . . » وعند آخر كلمة تقرصه فى رجله التى تصل إليها الجملة إذا لم يكن قد لم رجله وأبعدها سريعا قبل وصول يدها إليه فتقع يده على الأرض كما يصبح مخطئا إذا رفع رجله من خوفه قبل المقطع النهائى . والسرعة فى رفع الرجل مثل السرعة فى انتزاع اليد فى لعبة البسة المصرية فالشخص يمد يده أمامه وبطن اليد إلى أسفل ويحاول اللاعب أن يضرب ظهر يد الشخص ببطن يده قبل أن يفر منه كما يفر الفار من القط. ومن هنا جاءت التسمية بسة والهروب السريع فى لعبة البسة قبل الانقضاض له نظير فى لعبة عربية (لعبة الذئب والغنم) .. وفيها يقف اللاعب وينادى الأشخاص الواقفين بالطرف الاخر إلىّ إلىّ أيها الغنم فيجيبون لا نستطيع ذلك ولماذا ؟ خوفا من الذئب فيقول اللاعب : الذئب هرب ولم يعد إلينا يقصدون لن يعود عندئذ تندفع الغنم نحو الأم ويكون من يمثل الذئب بينهما متربصا يحاول اختطاف أحد الغنم . . والمقبوض عليه هو ذئب لعبة فى الدورة التالية .

ولعبة الطاب يستعمل فيها سعف النخيل بقطع صغيرة مقطوعة بحيث يكون أحد الجانبين أخضر والثانى أبيض ويقذفه اللاعب

أربع قطع من الجريد والذى تكون قطعه الأربع بيضاء هو العربجى يحمل عصا صغيرة والذى تكون قطعه الأربع خضراء هو ستوت يحمل عصا كبيرة اسمها السيف والحاكم واسلام ويصدر الحاكم أوامره دمج شر أضربه عشر ضربات والسياف ينفذ الحكم وفى إمكانه أن يصبح حاكما أعظم يحكم وينفذ حاكم خط. وحين يأتى بأربع قطع بيضاء يصبح الحاكم بلا وزير ويبعد عن اللعب وهنا يلعب الباقون وهو يحكم فقط .

الشباب والرجولة

لا يمكن أن نبدأ الحديث عن هذه المرحلة بغير ذكر الأعراس ، فهى مهرجانات تتعدى نطاق القرية إلى القرى المجاورة ثم يمتلىء البيت والطريق بالزائرين عند المرضى ، ثم يشترك الجميع فى وداعه الأخير وتبكى النساء فى عناق وغناء .

وحفل الزفاف كان يستمر أربعين يوما (ورقم ٤٠ مثل ٧ ، ٣ من الأرقام ذات الدلالة فى الخرافات) . . فحين يرغب الشاب فى الزواج يعلن ذلك لولى أمره من غير أن يحدّد العروس ويقوم ولى الأمر بعرض قائمة بالزوجات اللائى يناسبن ابنه . . أو ابنها . . وميزات كل واحدة . .

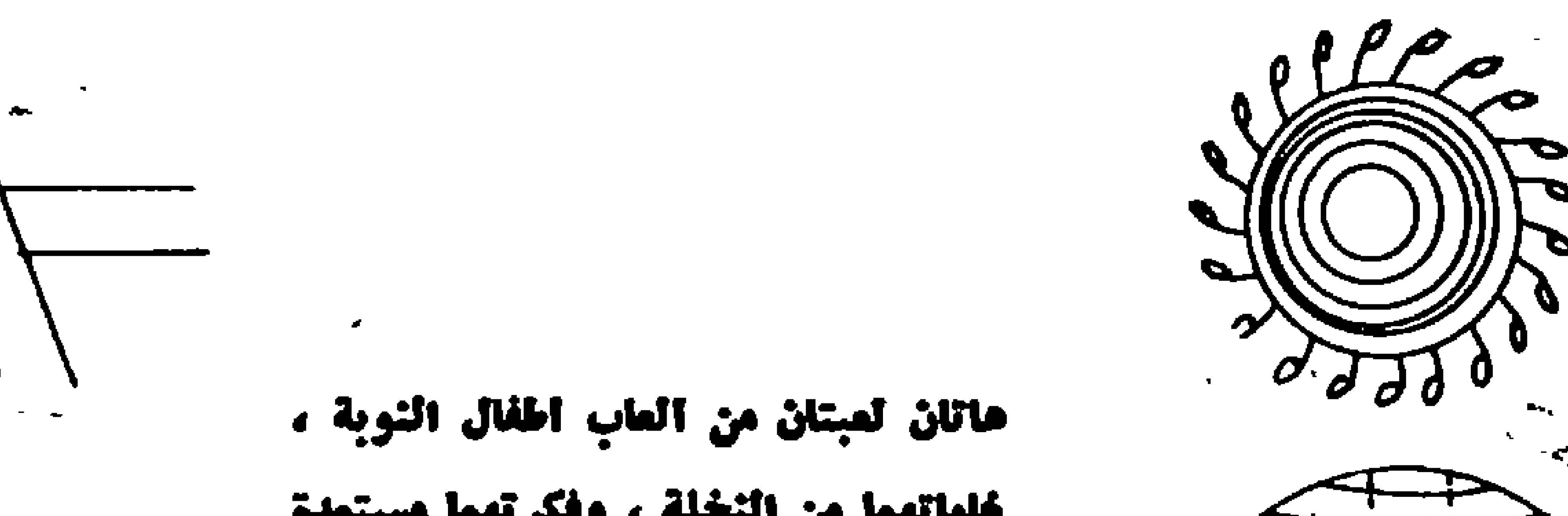
وعلى ولى الأمر أن يقف طويلا عند بنت العم متغنيا بجمالها أو بضرورة سترها . . ثم لبنات القبائل المجيدة مع مراعاة أن الكُشاف فى أغلب الأحيان لا يتزوجان إلا من بنات الكُشاف .

ولا يجرؤ فتى من النُوبْ على طلب الزواج من بنات الكُشاف . . كما أن النوب لا يقبل النزول عن طبقته الوسطى للزواج من الطبقة التالية له وهم الرقيق « أو شى » .

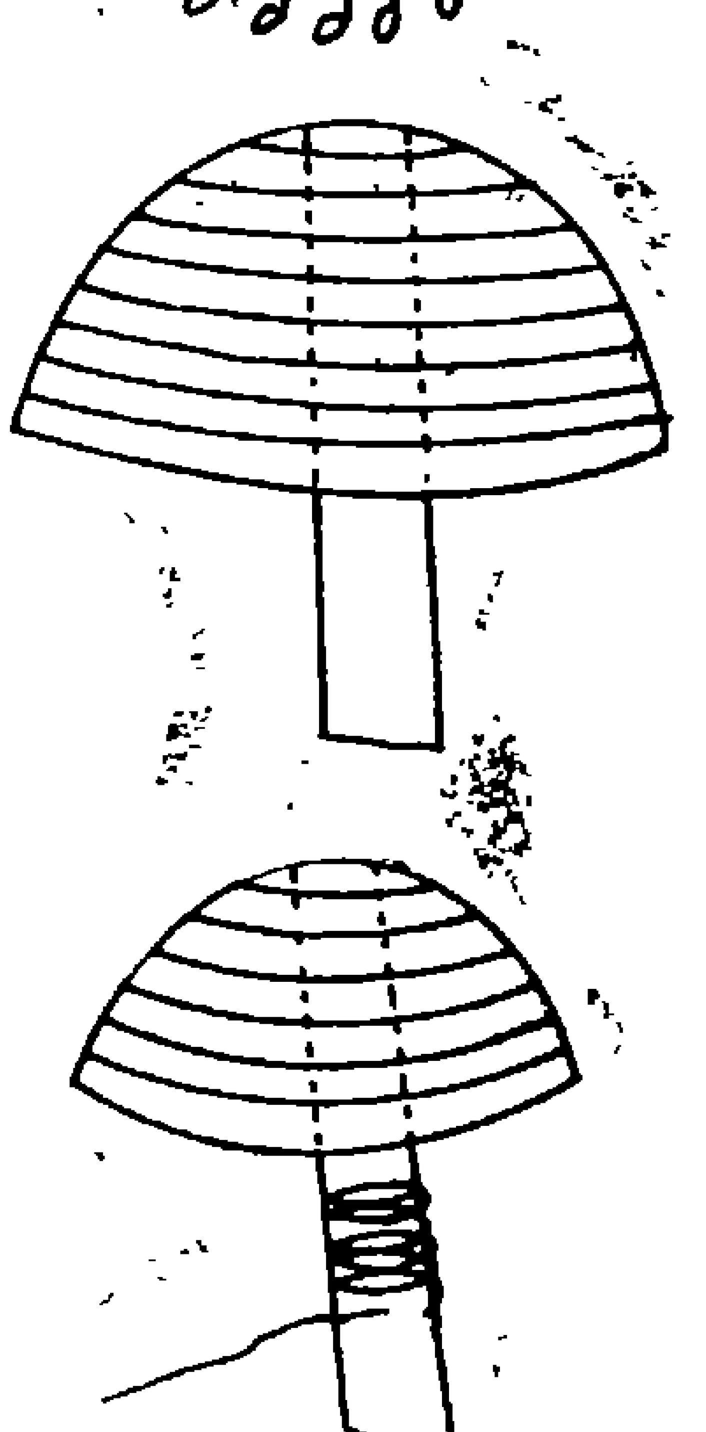
لعب الأطفال

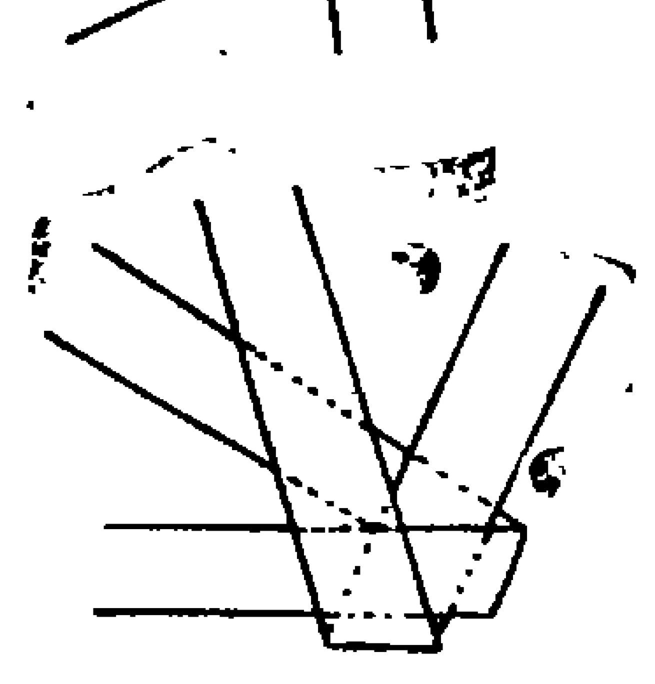
طريقـة الصنع

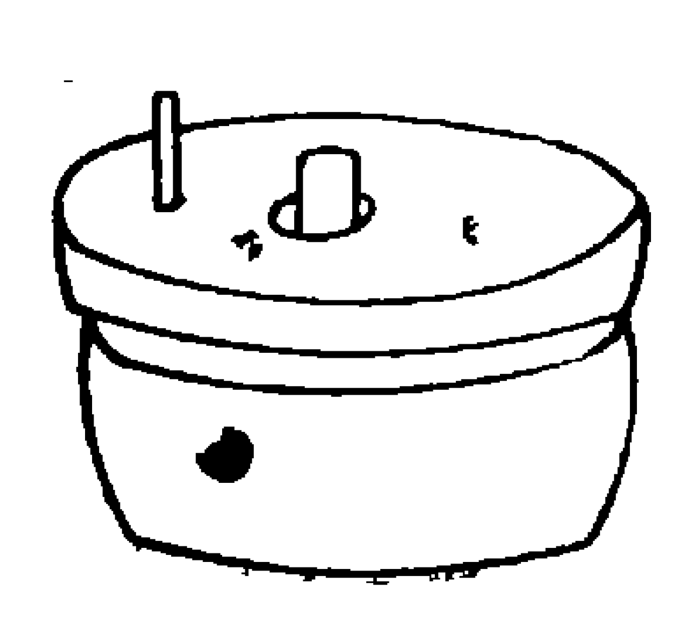
طريقـة الصنع



هاتان لعبتان من العاب اطفال النوبة ،
خاماتهما من النخلة ، وفكرتهما مستمدة
من احجار الرحى التى تطحن القمح



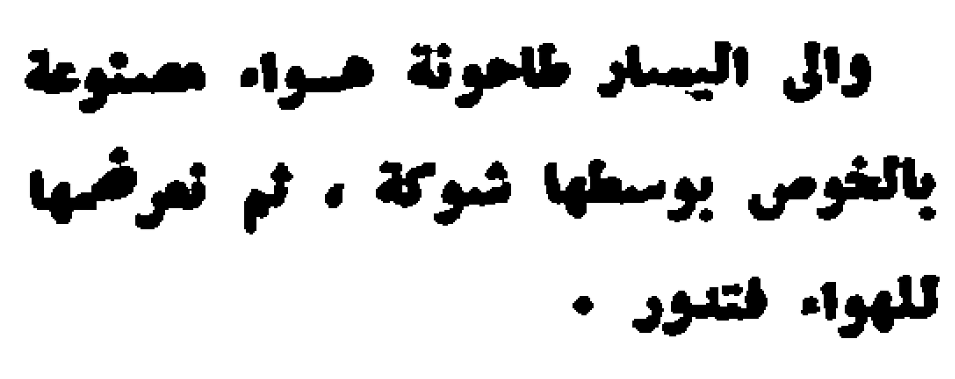


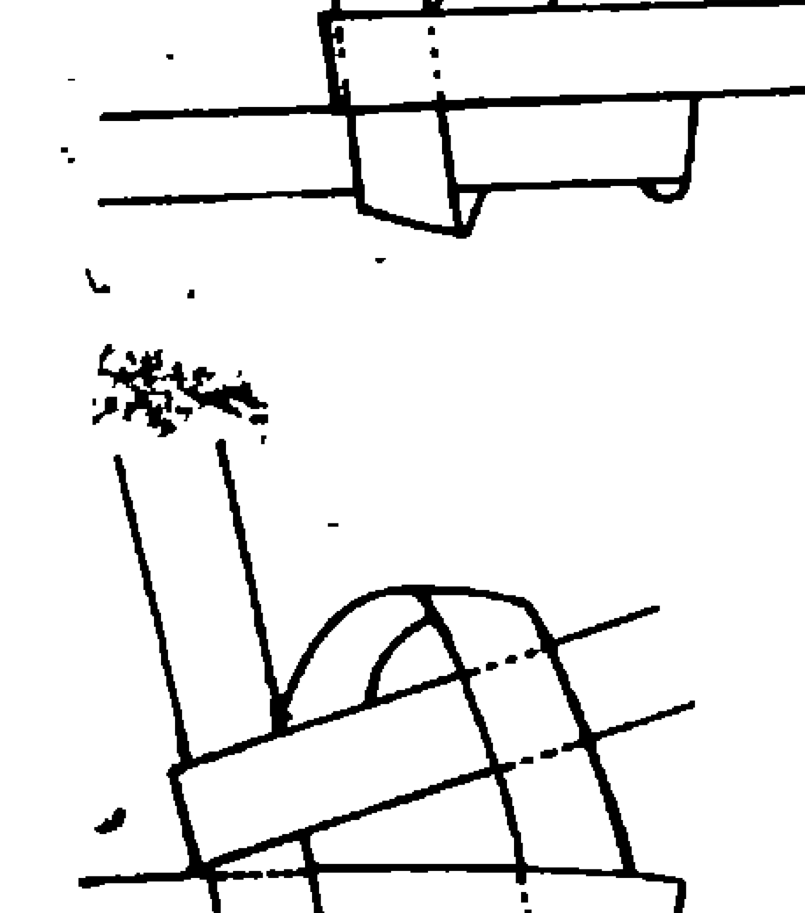


طريقة الصنع

طريقة الصنع

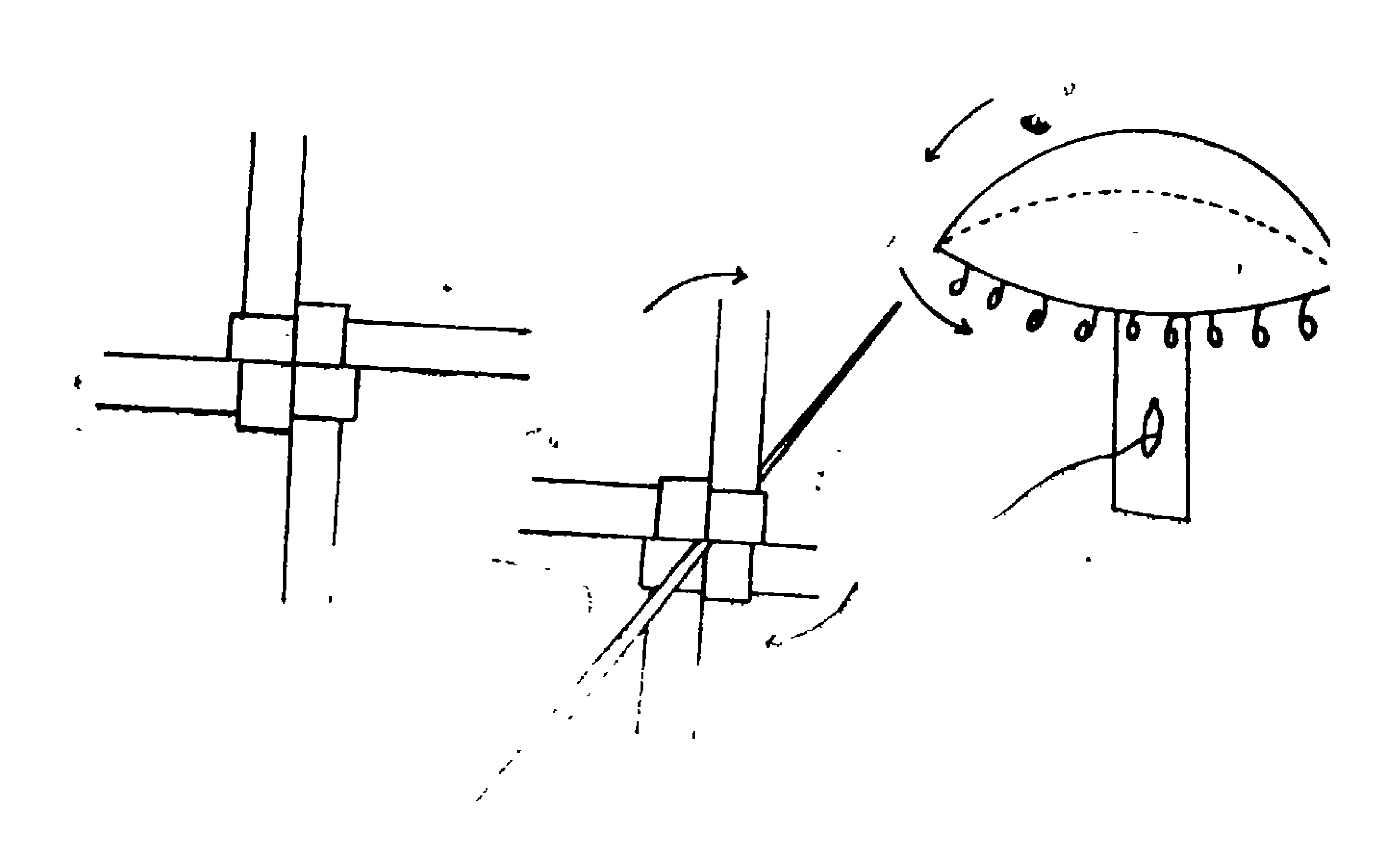
والى اليمين نجد نموذجا صغيرا جدا لطبق من الخوص ، بمنتصفه قطعة من الخشب مثل الشمسية ، تدخل في قضيب من خشب الغاب المثقوب وتدار بخيط بالشد والارخاء .





والى اليسار طاحونة هواء مصنوعة بالخوص بوسطها شوكة ، ثم نعرضها للهواء فتدور .

كما يصنع الأطفال الدمى من القماش او الطين ، ويصنعون المركب ومنقار الغراب من الورق ، ويلعبون باجزاء الطيور وفضلات ريشها وارجلها لعبا مختلفة .



وبالرغم من أن هذه الخطوة تحدث فى سرية تامة داخل البيت فإن رائحتها تفوح فى فجر اليوم التالى فى المنطقة كلها ، حتى أن العريس إذا غير رأيه ، معتمداً على أنه لم يذهب لإبلاغ أسرة العروس واختار فتاة أخرى ، فإن هذا يكون شبيها بفسخ الخطوبة فى الشمال ، وأحيانا بالطلاق ، فالقرية النوبية مفتوحة القلب يعرف كل بيت فيه همس البيوت الأخرى وخفقات الضمائر . .

ويدعو ولى الأمر بعض أفراد أسرته ويتوجه الجميع إلى منزل العروس المرشحة للزواج حيث يعرض ولى الأمر رغبته فى المصاهرة فيجيبه والد العروس فى حالة القبول بامهاله لموعد آخر حتى يتمكن من أخذ رأى باقى أفراد الأسرة . . وابن العم هو أحق الناس بالزواج من بنت عمه .. ولا يعيبه إلا الفقر لدرجة لا يمكن معها أن ينفق عليها . .

وبالرغم من أن الفتاة لا تستطيع الزواج من آخر إذا أرادها ابن عمها فإن العكس ليس صحيحا فإن الفتى يستطيع الزواج من أى إنسانة فى الوجود ، وابنة عمة تنتظره . .

وفى حالة الرفض تعتذر أسرة العروس عن المصاهرة بطريقة لبقة كأن يزعموا أن ابنتهم سبق لها الارتباط بأحد أقاربهم . . وهذا نادر جدا فإن أهل العريس يعرفون رأى أهل العروس قبل ذهابهم لنفس سبب القرية المفتوحة المتحدة الوجدان .

وقبل أن نسمع رد أسرة الفتاة بالموافقة أو الرفض . . أنتهز فرصة الفترة الممنوحة للتفكير ومناقشة الأهل . . لأقدم إليك صورة سريعة عن التقسيم الطبقى والاجتماعى فى النوبة القديمة . . حتى إذا ما كان

الجواب بالرفض لم أصدمك أيها القارىء بهذه النتيجة فهناك أشياء خفية تتحكم فى تصرفات النوبى .

* * *

إن المجتمع النوبى القديم مجتمع شبه رعوى ينتقل نحو الزراعة ويعتمد فى اقتصادياته على التجارة والترانزيت للسلع المتبادلة بين مصر والسودان . . فى عصر كان الرق فيه قاعدة سلعية عالمية وعملة ذات إقبال عام .

وكل سلوك وكل عمل حتى تنفيذ تعاليم الدين الحنيف كان يفعله النوبى من أجل القبيلة ، وكنوع من الزهو القَبَلى والمجد الدال على أصالة المنبت وجدارة الإنسان بطيبات الحياة وثمارها وخيرات المجتمع .

ولنأخذ مثلا الصلاة .. إنها تدل على شيئين هما : أن الشخص ليس صعلوكا .. وانه ليس عبدا ! !.. وأخيرا فالصلاة شاهد على الذكورة التى هى من مفاخر القبيلة ! !

ولتفسير ذلك نقول إن الصعاليك لا يملكون أرضاً ولا ساقية ولا احترافا يستمدونه من مهنة كالكهانة والسّحر ، يعيشون حياة غير مستقرة تجعل انتظامهم فى الطقوس الدينية المحتاجة للاستقرار أمراً مستحيلا .. فالصلاة تؤدىٰ فى خمسة أوقات .. والصوم يحتاج لتنظيم مواعيد الطعام والزكاة تحتاج لوجودما نقدمه للفقراء . . وكل هذالا يمكن أن يتوفر للصعلوك . .

والعبيد هم آلات المجتمع القديم وقواد الضاربة وشرايينه التى تنقل السلع والخدمات . . ومن هنا يصعب قيامهم بالعبادات فى

شبابهم . . . حتى إذا ما وصلوا لسن الشيخوخة ، ترك لهم ساداتهم مهمة القيام بالفرائض . . ولكنهم يثيرون الضحك فى عباداتهم أحيانا لأنهم لم يتعوّدوا ولم يتعلموا . .

وبقيت الذكورة وتأكيدها بالعبادات !! إن المرأة فى ظروف الحيض والرضاعة يصبح عسيرا عليها أن تطهر نفسها أو ثيابها للقيام بالعبادات فى شكلها الأمثل ..

والذكورة فى تلك الظروف القديمة كانت التفوق فى القوة الجسدية وفى الطاقة الذهنية وفى السمات الخلقية .. لذلك نجد عدم تأدية الصلاة اتهاما بانعدام الذكورة توجهه القبيلة للقبائل الأخرى للتقليل من شأنها ولاحتقارها ..

ومن هنا فالمنطقة الوسطى تلقى هذا الاتهام إجمالا على المنطقة الطرفية المتمثلة فى المنطقة الكنزية عند الطرف الشمالى ، والدنقلية السودانية عند الطرف الجنوبى ..

ومنطقتا الأطراف تعتبران المنطقة الوسطى الممثلة للنوبة المصرية وحلفا وسكوت والمحس فى السودان منطقة ميوعة واستهتار بالقيم الدينية وأداء فريضة الصلاة ..

هذا من الناحية العامة ، ومن الناحية الخاصة نجد داخل القسم الواحد اتهاما يلقيه كل شطر على باقى الجسد ... فأهالى سكوت يعتبرون إخوانهم من أبناء النوبة الشمالية قوما لايحسن إيمانهم فلا طاقة لهم على أداء فريضة الصلاة .

ولكن كيف تعتبر الصلاة مظهراً للزهو القبلى ؟ إن القبيلة تفاخر بعدد

السواق المملوكة لأفرادها وبالسبيل الذى يسقى العابرين وبالمَنْيفَة فى البيت وفى هذه الظروف لايمسك أفراد القبيلة مالكة السواقى بالفأس ولا بالطورية .. أى أنهم فقط يشرفون على الزراعة ولايغوصون فيها . .

وفى الصباح المبكر يخرج النوبى «الكاشْبْ» أو «الكاشف» وارث عصر الكشاف وزهو المغول والترك ومعه فوق حماره البرش والإبريق مع حاجياته وهو يصلى الظهر والعصر فى المزرعة متأنيا .. وقد يشاركه فى الصلاة بعض أمثاله من ملاك السواقى .. وهؤلاء لاتتسخ عمائمهم ولا أكمام ثيابهم ، بالرغم من أن أطراف تلك الأكمام قد تصل إلى لأرض .

أما التُرْبَرْ وهو مستعمل التِّربْ (المنجل) فى الزراعة ، أو العامل الزراعى ، فهو غائص فى الطين وفى الفضلات العفنة التى يخرجها الإنسان والدواب ويستعملها سمادا . . ولما كانت الأرض رملية فإن الماء يتسرب منها سريعا إلى الباطن البعيد ومعه كميات من السماد قبل أن يستفيد النبات . . لذلك تحتاج الأرض إلى تسميد دائم أى إلى أن يصبح العامل الزراعى بين الروث والفضلات دائما . . وبالتالى لاتتاح له فرصة العبادات المتأنية النظيفة الآمنة . .

أما الأوشى الذى اشتراه الأجداد أو انتزعوه من أهله أو تركوه فى المنطقة النوبية فى رحلتهم بين الجنوب والشمال فقد ظلوا على وفائهم للنوبيين بعد إلغاء الرق ، فقد كان يقع على كواهلهم حماية الاقتصاد النوبى وتنميته . . ومن كدهم وجهدهم ، ارتفعت العمائم على رؤوس الكشاف الذين لا يجيدون الزراعة ولا الرعى ولا أى عمل مفيد .. وليس لديهم حس فنى ولا تذوق جمالى أى أنهم لا يعملون ولا يلهون .

* * *

والآن نستطيع أن نستقبل رد أهل العروس على والد العريس، بعد أن انتهزت فرصة الانتظار لعرض المستويات الطبقية والاجتماعية فى النوبة .

ويأتى الرد بالقبول ويتفق الطرفان على موعد تقديم الشبكة .. ومنذ هذه اللحظة تبدأ الأعراس وعلامات الفرح بأشكاله المختلفة .. ولكن البداية الحقيقية للمهرجانات حين يجتمع أهل الطرفين بمنزل العروس ويعلن والدها على الحاضرين أنه قد أناب عنه أحد شيوخ الأسرة ، وكذا يعلن العريس اسم وكيله . . ثم يجلس الوكيلان متقابلين .. ويطلب وكيل العريس من وكيل العروس إيضاح طلباته فيجيبه الاخر بأعداد كبيرة من وحدات الذهب والفضة مقدم الصداق وكذا مؤخر الصداق .. وعندئذ يرد وكيل العريس بأن هذا النسب الكريم يستحق أكثر من ذلك ولكن تكريم المجلس يدعو للتخفيض فيبدأ وكيل العروس فى التخفيض إلى أن تتم الموافقة ويقدم الصداق وتقرأ الفاتحة ويتفق الجميع على نقل عفش العريس إلى بيت العروس

ويخرج موكب الهدايا من منزل العريس يتقدمه والد العريس وكبار المدعوين من الرجال وتسير خلفهم الحمير المحملة بالغلال والدقيق .. ثم بنات يحملن أطباقا من الخوص صفت عليها الهدايا ومن الخلف تسير السيدات يغنين ويزغردن . .

وقبل وصول الموكب إلى منزل العروس يخرج كل من به لاستقبال الموكب ما عدا العروس التى تستتر خلف البيت حتى تدخل الهدايا ثم تدخل هى بعد ذلك (وأى مخالفة تؤدى إلى المشاهرة) .

ويعود العريس ومعه المدعوون يحيطون به إلى بيته فيجلس بفناء

البيت على نسيج من الخوص ثم يقوم الحلاق بحلق شعره ، وتوضع أمامه ٣ أطباق بإحداها الحنة وبالثانى بلح وبالثالث ماء . . ويضع العريس سيفه وسوطه بجانب الأطباق ، . . وينادى كل من أهله وأقاربه معلنا أو معلنة عن الهدية التى قدمتها له .. فتقول العمة مثلا .. لقد وهبت العريس النخلة التى عند الجسر وهكذا . .

ثم يتجه العريس ومعه كيس به ملابس للعروس وإخوتها ووالدتها على ظهر جمل مزين بالزخارف والألوان والأقمشة الحريرية ومعه سوطه وسيفه . . وقبل الوصول إلى منزل العروس بمسافة يتوقف موكب العريس إلى أن يتقدم أهل العروس لاستقباله ويتجه الجميع إلى المنزل حيث يجلس الرجال بالمضيفة والنساء يالحوش . . ويقدم للجميع العشاء . .

وبعد العشاء يجلس وكيلا العروسين متقابلين أمام كاتب العقد ويتم الزواج رسميا ثم يمر على المدعوين البلح والاسلى (القمح) فى أطباق الخوص .

ثم تصحب الجموع العريس إلى حجرة العروس بداخل المنزل فيطرق الباب بسيفه ٣ مرات أو سبع مرات حسب تقاليد كل قرية (أرجو ملاحظة الرقمين وأثرهما السحرى فى المعتقدات البدائية) ثم يدخل الحجرة فيصلى ثم يرفع الطرحة عن العروس ثم يمر بيده على جبينها وتخرج العروس مسرعة لتبيت عند أهلها . .

ويتجه العريس مع أصدقائه إلى النيل ويستحم الجميع ويحاول الأصدقاء مشاكسة العريس وهو يقاوم فى بطولة وفروسية . . .

ثم يأخذ من الشاطىء نباتا أخضر ويعود ثانية إلى منزل عروسه حيث يظل مع صحابه حتى بعد تناول العشاء فينصرفون .

وبعد انصراف الأصدقاء مساء ، تصحب القابلة العروس إلى حجرة العريس وتتركهما معا . . ويحاول العريس أن يجعل عروسه تتكلم بتقديم النقود إليها « أجين بانيّد » أى النقود التى تجعل العروس تتكلم . . ويزيد فى المبلغ حتى ترضى وتكلمه .

وفى كل صباح تترك العروس زوجها وتقضى النهار بحجرتها بالمنزل وتعود إليه فى المساء وتستمر هذه العادة حتى السّبوع بطريقة طقوسية . . وكذلك يستمر الطقس العبادى الخاص بذهاب العريس كل صباح إلى النيل ومعه فرع أخضر من بقايا عبادة النهر الخالد .

ويرفع العريس يديه متقاربتين وتحت يديه بقليل ترفع العروس يديها كموقف الدعاء . . وتأتى القابلة بكميات من القمح وتصبّها على يدى العريس فيتدفق منه القمح على يدى الزوجة ثم يكون كومة على الأرض دليلا للرخاء ورمزا للوفرة والخير العميم [وهذه عادة من بقايا الوثنية والرمز للقمح بالخير وارتباط القمح بالأرض معناه أن تكون المرأة ولودا مثل الأرض] .

وفى الأيام (السّبعة) الأولى تترك الزوجة زوجها ينام وحده ومن علامات البركة والخير أن تضاء الحجرة بشمعة بجانب قطعة من القماش عليها رسم صليب . . وإن كان النوبى لا يعتقد أنه صليب بل فى حراسة الأربعة الخلفاء الراشدين .. وهذا من بقايا المسيحية فى النوبة . .

وتحمل سيدة عصا برأسها عجينة من العطور والحناء وتدور مع موكب صاحب فى القرية ثم يلتقى الجميع لتقديم الهبات للزوج . .

وبعد هذه الجولة يجلس المدعوون حول المغنين والمنشدين حيث يغنون أغنيات هادئة من نوع أسمر اللونا . . ودمىّ ليمونا . .

* * *

ومن بين المهر الذى يقدمه العريس حلى من الذهب مثل « جَكَدْ » و « شيش » و « قس الرحمن » ذى الشكل المثلث والذى يعلق على جبهة العروس علامة على أنها متزوجة . . وواضح من (الرحمن) تغلغل الدين الاسلامى فى وجدان النوبى ، إلّا أنه متفاعل مع العقائد والوثنيات السابقه والديانات البدائية . .

والمرأة النوبية تضع حول جيدها صفين من الجاكيد وما شاالله وتحته صف من فرج الله وبيبى وعلى الجبهة قس الرحمن وعلى الأنف سروجين بتَار . . وبالأذن حلق كبير بأعلى الأذن وآخر أسفله وثالث بينهما . . وبالساق خلخال فضىّ وبالأصابع خواتم فضية .

ثم ننتقل إلى الرقص لنرى لونا من الوحدات الزخرفية والنظام وبقايا الطقوس القديمة . . والجماعية تبدو جلية فى أعراسى النوبية وفى رقصاتهم . . التى تأخذ أشكالا هندسية جميلة حيث يقف الذكور والإناث فى جماعتين متقابليتين على شكل قوس . . ويفصل بين الذكور والإناث المغنون وحملة المشاعل التى تضىء الليل وتشد جلد الدفوف . . وترقص النوبية وعلى رأسها وشاح ملون « السمردحان » أما الحلى فليست مجرد زينة فى رقصة العرس ، بل هى ضرورة طقوسية ، وعدم التزين بها يأتى بالمشاهرة .

وقد ذكرت أثر النيل فى حياة النوبى ومعتقداته . . ومن بين الرقصات النوبية رقصة اسمها البُلْطى « فِرِّى » سريعة الحركة . .

والنوبية لا تتجمل بالحلى فقط ، بل بالوشم أيضا . . والوشم يكون أحيانا على شكل شامة فى الخد . . أو على شكل هلال على الجبهة أو خط من الشفة إلى أسفل الوجه ، أو تلوين للشفة السفلى نفسها .

أما العطور والبخور والخضاب بالحناء فهى من علامات الأعراس.. وهناك وعاء خشبي جميل مزوق اسمه « أَجُلْ » يحفظ فيه العطر والبخور . .

* * *

والإنسان النوبى هو الإنسان الذكر « تُودْ » . . أما الأنثى فيجب أن تضاف انوثتها إلى إنسانيتها فنقول «بُرُو - تود » والفتى الجميل يوصف بأنه « تود جاشور » أى الفتى المعتد بنفسه الفخور بنسبه ، والذى يسير فى زهو « جاشا تانجى » . . الفارع الطول العظم الجسم الشامخ « شلشلادوه » . . وعمامته عالية ذات أطراف « كاسر - جورداكو » . . ويرتدى العباءة « الشاهى » فوق القميص الأبيض المفتوح من أمام . . والخنجر معلق بيده والسّوط بيده الأخرى . . بعد أن تكون القابلة « دويشا » قد دلكته بالمحلب والعطور الزيتية ! !

أما الفتاة الجميلة فتشبه زجاجة العطر تتأود فى سيرها وترتج كالموج وضفائر شعرها طويلة سبع أذرع . . وعيونها كحيلة . . وعلى يديها خضاب . . وهى تجعل قلب حبيبها يضطرب مثل عصفور فى

الفخ . . وتتشح بالزردخان الحريرى . . وعلى شفتيها وشم . . وهى مثل عود السيسبان والخيزران . . ومثل الغزال . . وتلبس خلخالا وعلى صدرها حلى بأسمائها . . والحلى ترقص على صدرها رقصة الكف . .

والنوبى يرى الخطابات تأتيه من الشمال وبها النقود التى تساعده على مواجهة أعباء الحياة ويرى طابع البريد ملتصقا بكل خطاب لصقا محكما ، لا يمكن انتزاعه ، إلا إذا انتزعت أجزاء من الخطاب نفسه . . هذا الالتحام يوحى للنوبى بأمنية . . هى أن تلصق الفتاة شفاهها بشفاهه كما يلتصق طابع البريد بالخطاب . .

الحرف المنزلية والأعمال اليومية

والفتاة النوبية تحمل من أعباء العمل كثيرا من الجهد ، فهى التى تشعل النار بروث الخراف والعنز والبقر مخلوطا بالخشب الجاف وبسعف النخيل . . ولم يكن الكبريت معروفًا عندهم ، لذلك كنت تجد في بيت عريق في القرية شعلة دائمة يلجأ إليها الناس جميعا ، وهذا واضح في الحكايات النوبية مثل قصة فاطمة بنت النجار .

وكان الكهول يعرفون أنواع الثمار والسماد القابلة للاشتعال ودرجة اشتعال كل مادة ونوع النار الناتجة ، وهل هى سريعة أم بطيئة ، مضيئة أم مطفأة ، إلى غير ذلك مما يناسب كل ظرف من ظروف الوقود .

وحين تصنع الفتاة الخبز تشعل النار وحولها ثلاثة قوالب مخروطية مثل رأس القمع يسمونها (أوجرى) . . وتضع الفتاة على الحوامل

المخروطية قطعة رقيقة من الحديد (دِيوْ) مستديرة الشكل ، وقد تصنع من الطين .

والفرق بينهما أن المصنوع من الحديد يفيد فى السرعة وفى صنع الفطائر الرقيقة . . أما المصنوع من الطين فهو ينضج الخبز السميك نوعا إنضاجا جيدا .

وتضع الفتاة عجين الدقيق فى وعاء (سكى) من الطين . . وتجلس أمامه (دَاردَا) . . وإذا سخن سطح الديو تمرّر الفتاة قطعة قماش (كوسمير) مبللة قليلا بالزيت ليبدو أملس ، والفتاة تنقل العجين إلى سطح الديو بملء يدها أو بمغرفة (إسىَ فَجْ) .. وتحرك النار بعصا) تور نير (والأرغفة توضع على أطباق) شُوِزْ (من الخوص . . والصغير من تلك الأطباق (كَارَاجْ) يقدمون عليه المضيوف الفشار والبلح والقمح المشوى و(الترمس) وإذا كنت قد ذكرت أشياء استعملتها الفتاة أثناء صنع الخبز ، فأنا أضيف أنها صنعت كل هذه الأشياء ، ما عدا ما صنع من الحديد فهو مستورد من الشمال الذى يصنعه حسب مواصفات النوبيين .

وفى الصيف تخرج الفتاة من بيتها وهى تحمل السلة (الشبرّ) لتجمع فيها أوراق اللوبيا أوأوراق اللبلاب فتأخذ أطرافها الطيبة الطرية الصغيرة للطهى ، والباقى لطعام الدواب . . وهى مع جمعها للأوراق الصغيرة لا تجرؤ على قطف الثمار الصغيرة مثل البامية لأن هذا يحمل معنى القسوة على الكائن الصغير الذى يجب أن نترك له الفرصة لينمو .

ثم تذهب إلى صويحباتها أو لزيارة المرضى أو العائدين من الشمال..
ثم ينام الرجال بعد الغداء فى المندرة اضطجاعا . . ومن الممكن أن يأتى الضيوف فى هذه الفترة . . والإناث ينمْن فى الدهليز . . وتقوم الفتاة لتصنع الشاى . . أما إذا جاء الضيوف من الرجال فالشاى يُرسل إليهم .. وقد تغنى الشعراء الشعبيون بالشاى مثل قول أحدهم «عندما كنت اتحدث إلى أبيها .. تلك الفتاة السمراء .. وقفت خلف الباب فى حياء .. وطرقت الصينية بالملعقة الفضية طرقات متتالية .. لم يكن ذلك فقط ليسمع أبوها فيحمل الشاى إلى.. وقدحدث هذا فعلا .. ولكن لتشرح لى دقات قلبها العاشق »

والذين لديهم دواب كثيرة يرسلون فتاتهم لتملأ الأوعية بماء النهر عند العصر وكذلك لجمع القش لطعام الدواب .. وهى تسوق خرافها بجانب المزارع فى صحبة صديقاتها . . ويجلسن تحت أشجار الدوم والكافور في سمر وأحاديث هامسة . . وعند الغروب يعدن إلى البيوت .. وبعد العشاء يجلس الرجال على الرصيف الكبير ، وتجلس الفتيات على الرصيف المقابل .. ثم يأتى الليل بأحلامه..

والطبخة الشعبية للنوبى هى « إتر » .. وعند موعد الغداء يجلس الرجال خارج البيوت أو عند المندرة أو تحت النخيل وكل سيدة تحمل لزوجها طعامه .. ومن النساء من تنتظر فضلات طعام زوجها لتأكل بعده وبعضهن يأكلن إتر » بعد أن يقدمن الخضروات للرجال ..

والإتر يتكون من أطراف ورق اللوبيا أو ورق اللبلاب أو ورق البامية .. وفي المدن يصنع الإتر من السلق والشمر والكسبرة الخضراء أو من ورق العنب مع إضافة قليل من الملح وحجر النطرون والبامية

الجافة والدقيق .. ولاتوضع الأرغفة أمام الآكلين بل على الإدام ..

وكل نوع من أنواع الأطعمة يحتاج لنار تختلف عن الطعام الاخر فما يصلح لصنع الإتر لايصلح لصنع مربى البلح الذى تستمر شعلته أياما كاملة .. وأشجار السنط تشتعل بصعوبة ولكنها تحتفظ بنارها فترة طويلة كما أنها ساخنة جدا .. بينما روث الحمير سريع الاشتعال سريع الانطفاء .. والحبال المصنوعة من ألياف نوع من النخيل قد تكون أكثر قدرة على حفظ النار تحت الرماد من نوع آخر . . وهذه الحبال المشتعلة كانت تفيد فى معرفة الوقت بدقة مثل الساعة فى أيامنا بربط الزمن بطول الحبل وما ينقص منه . .

وقد جاء ذكر الإتر « فى كتابات المؤرخين فذكر المؤرخ ديودور الصقلى بالقرن الأول الميلادى بعد زيارته لمصر يقول : يربى المصريون أولادهم فى يسر واقتصاد بالغين فيطعمونهم عصيدة يطبخونها من مواد رخيصة وافرة ومن سيقان البردى بعد شيّها على النار . . وجذور نباتات مائية يستسيغون طعمها نيئة ومطبوخة ومشواة » .

وأكلات النوبيين بسيطة من محاصيل المنطقة .. والخبز يصنع أولا بأول على « الديو » وأنواع الخبز كثيرة على أساس السُّمك واختلاف درجاته فهناك « النَّانيزِى والشَّدى والأَلْبُودْ ومَرِيْن كَابِدْ وإلِلّيْنْ كَابِدْ وَشِيلِيدْ » . . وأشهر الطبخات هى الإتر والمَيَحِيّا من أوراق الشجر والبامية بطريقة السلق . . أما اللحوم فيأكل منها لحم الخراف والماعز والبقر والدجاج من الطيور وقليلا من السمك . .

وفى الشتاء لا عمل ولا خضروات ولا رعى . . حيث يرتفع الماء ويفيض ليصل إلى عتبات البيوت . .

وهنا تقام الأعراس والمواسم السارة لأنه وقت فراغ وغناء وطرب وصناعة السلال والحصر وأطباق الخوص من أهم ما يشغل الفتيات غير المتزوجات . . وهن بذلك يصنعن مدخرات قد تكون في بيوتهن بعد الزواج . . كما أن النشاط والمهارة يجعل لهن سمعة حسنة فى القرية مما يجعل الزواج سهلا ومتاحا .

كما أن الفتاة العاشقة تكتب بالنقش اسم حبيبها أو العلامة التى يفهمها ويحبّها . . وهن يصبغن بوص النخيل بصبغات نيلية تجلب من مصر . .

وتقوم طريقة صنع السّلال على إحضار قطع مستديرة من الخشب قد تغلف بجلد ملون وتصبغ هذه القطع وتكون بمثابة قاع السلة أو مركز الحصير (البُرش) . . وتثبت حول الرقعة الخشبية ألياف من جريد النخل بشكل حلزونى وتحاك بشرائح ملونة من السّعف فتثبت كل حلقة أو دائرة جديدة من ألياف الجريد بالحلقة السابقة كما تغلف وتزخرف بألوان مختلفة في الوقت نفسه . .

والصبية النوبية تفكر فى مستقبلها حين تصبح زوجة فهى لذلك تصنع أطباق الخوص بأشكال وأحجام مختلفة وبألوان متناسقة متماوجة وبنفس هذا الذوق المرهف تنقش الجدران وتلونها بوحدات بسيطة متكررة ذات طابع خاص . .

وهى تختار الوحدات من البيئة المحيطة بها من زروع وحيوان وطير ورموز سحرية مثل الكف والعقرب والديك . . هذا عدا أنها تصوّر أحيانا وحدات هندسية بحتة مثل المربعات والدوائر والمثلثات التى هى أقرب إلى التطريز (شغل الإبرة) . . وأدوات وخامات الرسم والنقش

من البيئة أيضا . . مثل الجير والصمغ والألوان النباتية والمعدنية والرمّاد والسناج . . والفرشاة من ريش الطيور أو من فروع سعف النخيل . .

ويندر أن تجد بيتا ليست جدرانه مزينة بعدد وفير من الأطباق والسّلال على أخشاب « فيندى » بدل المسامير وبناء الصوامع للغلال بطريقة تجعل الطعام لايفسد ولا يتسوّس من خير ما يجيده النوبى .. وهذه الصوامع تصنع من اللبن حيث يحفظ البلح المخلوط بالرماد ، وبه فتحة من أسفل لإخراج البلح ثم يغلق جيدا . .

ولكن أهم حرفة فى بلاد النوبة القديمة هى النجارة ، فالنجار هو المخترع وعميد صناع المنطقة فهو يقدم الساقية أداة الزراعة والمركب أداة النقل النهرى والبيت والأثاث وهو لذلك يغلف بجو أسطورى ويصنع المعجزات فى الحكايات النوبية . .

. . .

مع الكلمة النوبية

واللغتان النوبيتان على تقاربهما هما الفاديدجا والماتوكى أو النوبى والكنزى ، وهما من أصل واحد ، بل هما لهجتان للغة دارسة استعملت بعض الوقت مرادفات لفظية فى منطقة والمرادف الاخر فى منطقة أخرى.

كما يحدث فى اللغة العربية ففيها كلمتا اجلس واقعد بمعنى واحد.. ولكن العامية المصرية تستعمل كلمة اقعد ، والعامية الحجازية مثلا تستعمل كلمة إجلس ، وكل من المنطقتين لا تقبل المرادف الاخر . .

ولتوضيح الفكرة أقول إن « نعم » هى « إيّو » فى المنطقتين

وجملة « هل يوجد » هى دانا عند الأول ودارْنا عند الثانى .. وهل أنت متزوج ؟ « إدَا فينا ؟ » و « إردابوبا » وما صناعتك ؟ « ميتحا شوغْلى » « منِحاشا غلى » وما اسمك ؟ إكَانَانَيا .. إكانابِرًا . .
وفى الأمثلة السابقة تقارب تام .. وهناك كلمات متباعدة مثل الماء «أمن » و « إبىً ».. ونفس كلمة إبىّ معناها فى المنطقة الجنوبية « الأخت وهنايرينا الترابط الأخوى بين النوبى والنهر .. فالنهر هو « الأخت » بالنسبة للنوبى . . والسمك «انجسى » قريب من « أنَّسى » بمعى الأخت وهذا يفسر مضافا إلى غيره من الاسباب ، عزوف النوبى عن السمك لارتباطه بالسمك والنّهر ارتباطاً طوطميا أخويا . .

* * *

واللغة مكونة من ١٦ حرفا لها نظائر فى اللغة العربية والإفرنجية هى

ـ الألف i,a,	٢ ـ ب ـ b	٣ ـ ت t	٤ ـ ج j-g
٥ ـ د d	٦ ـ ر r	٧ ـ س ، i s	٨ ـ ش sh
٩ ـ ف ph'f	١٠ ـ ك k-c	١١ ـ ل .L	١٢ ـ م m
١٣ ـ ن n	١٤ ـ هـ h	١٥ ـ و .o.w	١٦ ـ ى y.i

وفى النوبية الإمالة كما فى العامية المصرية . .

وهذا عدا وجود حرفين أولهما بين الجيم والنون قريبة من حرف الغين فالابن Inga باعتبار ng حرفا واحدا أو إنغا على أساس نطق الغين نطقا خاصا . .

وثانيهما بين التاء والشين : فالغزال Kitchud .

* * *

على أن هناك دليلا يمكن الاستدلال به على أنه كان للنوبة لغة مكتوبة ثم اندثرت . . ففى الوقف الذى نجد ندرة الغيوم فى النوبة لم تجعل للغيم أو السحاب كلمة فى قاموسهم ، نجد الكتابة هى « قَاى » عند النوبى . .والنوبى لا يعطى التسمية إلا للشىء المتداول المعروف عنده . .

وليس فى النوبة حروف ا ل ث ، ح ، خ ز ، ص ، ض ، ط ، ظ ، ع ، غ ، ف ، ذ . .

وفى الجملة النوبية توضع حروف بين الكلمات للترخيم . . كما أن الكلمة قد تتغير فيها الحروف لتعبر عن انفعال معين . . فأنت تقول « هيا ارقص » هكذا « جَاشِمِى » أو « جَاشِتِّمِى » أو « جَاشَومىّ » . .

وأنت تقول اشرب اللبن « سُوِينمى » أو « سوج نيمى » أو « شوجانيمى » . .

ولعدم وجود الكتابة اندثرت كلمات نوبية كبيرة وحلت محلها كلمات عربية أو نابية كلمات نوبية أخرى عنها . . فالأرقام ٣٠ ، ٤٠ ٥٠ . . الخ تنطق بالعربية . اماالألوان السبعة المشهورة فى قوس قزح فليس لها نظير عند النوبى إلا فى ألوان قليلة . . فالأبيض نلُوُ والاسود . . أوروم . . والاصفر والازرق والاخضر والأسمر « دسى » والأحمر « جيل » .

وهناك كلمات كثيرة لا معنى لها إلا منحك الجو النغمى فالإنسان يقع « باو » أو « كودروف » أو « دلاك » والشىء يُنزع « شيليك » والمرء يسير « داى داى داى » أو « دِجْ دِجْ » . . ويبكى « اهَنج اهنج »

الخرافة والأسطورة في بلاد النوبة

دراسة الخرافات والأساطير يفيد فى الوصول إلى القواعد المتينة التى غالبا ما تكون متخفية عن العيون ، أو تبدو أقل أهمية من البناء الشامخ المنيف ، لأن هذا البناء بروعيته محتاج إلى أن ندرس قواعده وأصوله الغائصة فى أعماق الأرض لنتأكد من سلامة أسسه ومثل البناء المادى تصل الافكار إلى مستويات رفيعة ، ولا تكتفى بالأرض مجالا فتسعى إلى السماء بين الكواكب والأقمار ، ويصبح هاماً جداً معرفة روافد الفكر الانسانى وينابيعه . ومن هنا كان اهتمام علماء عصرنا بالحضارات القديمة وبآثار الانسان منذ ما قبل التاريخ ومحاولة فهم رموزها وإشاراتها الغامضة بسبب بعد المسافة الزمنية بين معتقداتنا ومعتقداتهم

وكثيرا ما نسمع حكاية من حكايات الجدات ، فنجد كأنما زرعت فى منطقة معينة من بلادنا ففيها أوصاف معينة ونماذج حياة محددة فى صنوف من البشر وألوان من الحيوان والطير والنبات ، ومنطق فكرى هو السمة الغالبة على أهل هذه المنطقة ، ثم تمر فترة فنقرأ شيئا من حكايات اليونان أو الرومان أو الهند أو الزنوج الإفريقيين فى الزولا أو المازوي فإذا الحكاية تروي إما بذاتها أو مقاطع كاملة منها ، وهذه الحيرة التى يحس بها متلقى الحكاية تصيب الدارسين باليأس وتتشعب مدارسهم حول الموطن الأول للحكاية هل هو مكان معين له ولأهله قدرات متفوقة على الابتكار والرواية والتطوير ، أم أن الظروف المتشابهة للمناخ الملائم لنمو الحكاية يجعلها بالضرورة تنبت فى شكلها المحدود طالما أن بذرتها هى حاجات الناس إلى الطعام والشراب واللباس والسكن والأمن والحرية .

والرواة عناصر هامة فى رواية الحكايات الخرافية . وقد كانت الأسرة فى العصور الوسطى فى أوربا تنظر وصول الراوى إلى القلعة فيخرج إليه الخدم ومعهم المشاعل ويقودونه بين ممرات القلعة ليصل به إلى حجرة واسعة يجلس فيها رب القصر النبيل الإقطاعى - وبجانبه زوجته ثم الأولاد والاقرباء ثم الخدم والكل شاردون بعيونهم وأعصابهم وتشرئب أعناقهم لمشاهدة الراوى وهو يحكى ويمثل بقوته وبحركة يده الوقائع الفروسية المختلفة .

وفى بلاد النوبة كانت بيوت الحى يجتمع أفرادها فى بيت الراوية بعد غروب الشمس فالراوية تصاب بالعمى إذا حكت وخيط من نور الشمس فوق أرض القرية وتقف عندما يتعب المستمعون عن السرد وتعدهم باكمال الحكاية فى اليوم التالى .ثم يخرج الرجال بالمصابيح لتوصيل الجيران إلى بيوتهم لأن الطريق بعد حكاية الراوية يمتلىء فجأة بالأشباح والعفاريت .

وأهمية الرواى أو الراوية ليست لأن من حقه أن يؤلف أو يخترع ولكن لقدرته على الحفظ ، فقد كانت جدتى زينب كوتود حين تبدأ الحكاية تتقمسها روح عجيبة تحول كثيرا من الكلمات النوبية ذات الأصول العربية مثل (دهب) بدلا من (هب) إلى كلمات نوبية قديمة فالذهب هو « نبب » حتى ليتخيل المرء أن جدة أخرى قد بعثت من القبور لتحكى بلغة ساحرة . . وبالرغم من أنها لاتعرف كلمة واحدة عربية فى تعاملها اليومى فقد كانت تعرف عشرات الجمل العربية فى حالتين . . فى الصلاة ، والدعاء من ناحية وفى رواية الحكاية من ناحية أخرى ، وهى فى الحكاية تقول : يونس فى تونس وسط

البحر المالح » و « إنتي عجبك يا سلطانه لما رميتى فردة خلخالك على الأرض ، كنتى شفتى إيه ؟ وشيء محبب ومدبب اسمه بطيخ) ...الخ
إن القدرة على الحفظ هى أهم سمات وميزات الراوي ، وعلى النقل إلى السامعين بشكل يثير انتباهم ويقظتهم فى حدود الأشكال المحدودة التى تخضع لها الحكايه الخرافية والتقاليد المتبعة فى الراوية منذ أقدم العصور وكانت السيدة فيهمانين (آراء الاخوين جرم فى مصدر الحكايات الخرافية العلمية [1]) فلاحة تسكن تسفيون بالقرب من كاسل وقد ذكر الأخوان جرم فى الجزء الثانى من كتابهما أن هذه السيده تحتفظ فى ذاكرتها بحكايات كثيرة وهذه موهبة لا تمنح لكل إنسان بل أن بعض الأفراد لا يمتلكها على الإطلاق ومن ثم تقص فيهمانين حكاياتها فى حذر وثقة وحيوية صادقة وتستمع بما تقصه. وطريقتها أن تسترسل فى الحكاية فى حرية ثم تحكيها ببطء مرة أخري إذا شاء المستمع ذلك حتى يتمكن أن يستملى منها . ولكن الشيء الذى لم تستطع التمسك به هو عدد المقاطع فقد كانت مقاطع تسقط فى مواسم العمل الزراعى حيث يكون الوقت قصيرا أما فى شهور النشاط فقد كانت الحكاية تطول من خلال تذكر المقاطع التى سقطت فى الموسم الماضى والمقاطع فى الحكاية مثل أبيات الشعر الكلاسيكى المقفلة مع باقى الأبيات بحيث يمكن أن تنقل بيتا من قصيدة بقافية الميم من البحر الكامل إلى قصيدة أخري ميمية من البحر الكامل أحيانا .

(١) ترجمة الدكتورة نبيلة إبراهيم والدكتور عز الدين اسماعيل . —

وللقطع الأول يكون عادة إجابة على سؤال يوضح أحد للقاطع التالية :

فإذا أوجدنا فتى يملك ديكا مسحورا فالسؤال هو من أين لك هذا ؟ وهنا تبدأ الحكاية الخرافية هكذا :

* * *

خرج ولد مع أبيه الصياد إلى النهر وبعد نضالوبحث استطاع أبوه أن يشد (الطُّراحة) ويفك خيوط الشبكة ويحصل على سمكة كبيرة جدا فقال لابنه احرس السمكة إلى أن أذهب إلى البيت وآتى بسكين لنقطع السمكة إلى أجزاء صغيرة ونحملها إلى البيت . وابتعد الصياد وجلس الولد بجانب السمكة فرآها تفتح فمها وتغلقهُ كأنما هى ظامئة فمضى الطفل يدفعها إلى النهر ويقول لها اشربى ياسمكتى المسكينة ، ولكن السمكة لم تكتف بالشرب بل انزلقت إلى الماء واختفت وبعد قليل جاء الصياد فلم يجد السمكة وسمع من ابنه الحكاية فغضب ورفع السكين محاولا قتل ابنه وأسرع الولد هاربا من أبيه وظل يجرى يجرى إلى أن تعب فجلس تحت شجرة وبعد أن التقط أنفاسهُ وجد ديكا على الشجرة فأمسك به ومر رجل غريب واشتراه منه بمبلغ كبير لا يتناسب مع الديك لدرجة جعلت الولد يشك فى نوايا الرجل الغريب ويرى فى الأمر سرا فمضى خلف الرجل الغريب ليعرف السر .

* * *

وهذه بداية أخرى كان فتى لا يجد عملا وذهب إلى الشيخ الفقير يسأله فقال له إذا أردت الفرج فصلِّ فإن الصلاة كلها خير وخرج

الفتى إلى النهر ليتوضأ فوجد ديكا وبعد مغامرات حصل على الديك وجاء الرجل الغريب واشتراه بثمن كبير جعل الفتى يعتقد أن فى الأمر سرا .

* * *

وإذا كان المقطع الثانى يقول ان ابن السلطان وجد الفتاة الجميلة بين السماء والأرض على أغصان الشجرة العالية فإن السؤال يكون : كيف وصلت الفتاة الجميلة إلى الشجرة العالية ؟

« فانا التى ترعى الجارة العجوز وتهتم بالعصفور الجريح ، تموت أمها فتقوم على رعاية أبيها ولكنه يتزوج ليريحها من خدمته وتأتى زوجة الأب ومعها ابنتها وبينما كانت فانا ترعى الغنم سقت نخلة فدعت لشعرها أن يطول وأطعمت غرابا فدعى لشعرها أن يكون فاحم السواد وأطعمت حمامة بيضاء فدعت أن يكون جسمها أبيض مثلها ولكن زوجة الاب استمرت توغرصدر الأب حتى ألقى بها خلف الجبل وهناك ملأت فانا زيرا ونامت بين أغصان شجرة ومر ابن السلطان فرأى صورتها على سطح الماء فطلبها أن تهبط إليه . . هذا مقطع من مقاطع الحكاية النوبية »

وهذا مقطع من حكاية اخرى : كان الصقر يحلق فوق البيوت فرأى طفلة ملقاة على الطريق وقد تخلص منها أهلها فحملها إلى شجرة عالية وقام بتربيتها ومر ابن السلطان ورآها . .

وهذا مقطع ثالث : أتت امرأة عاقر بدواء من ساحر لتلد وأكله زوجها فجاءه المخاض ، هرب بعيدا عن القرية ومر غراب فقرر أن

يساعده فى الإنجاب على شرط. أن يكون للمولود من نصيب الرجل إذا كان ذكرا أما إذا كان أنثى فمن نصيب الغراب ولما كان للمولود أنثى باهرة الحسن فقد صارت من نصيب الغراب فطار بها وأسكنها فوق شجرة وقام بالعناية بها إلى أن نمت وذات يوم مر بها السلطان وشاهدها فوق الشجرة .

* * *

إن الحكاية الشعبية تحكيها العجوز باعتبارها راوية جيدة نقلت هذا التراث عَبْر الأجيال إذ أن عجوز اليوم هى طفلة الأمس البعيد ولكن قيام العجائز بالحكاية الخرافية لا يجعلنا نعتقد أنها ثرثرة لا جدوي منها ولا طائل تحتها . . وفى القرن الثامن عشر قَدَّمَ « الأخوان جرم » بحوثا عن أصل الحكاية الخرافية ومعانى رموزها وأسباب تقبل الجماهير لها أثناء تعليقهما (حكايات الأطفال والبيت) متأثرين بمجموعات سبقتهما وكان سبب نجاح الأخوين جرم (يعقوب ووليم) فى مجموعة حكاياتهم الخرافية أنهما قدما كتابا حقيقيا للبيت الألمانى وللأطفال الألمان ففى عام ١٨١٢ ظهر أول جزء من كتابهما فى عيد ميلاد المسيح عام ١٨١٢ م تحت عنوان (حكايات الأطفال والبيوت) وفى نهاية عام ١٨١٤ م وفى فترة سادها الاضطراب ظهر الجزء الثانى من كتابهما ثم اقتضت الحاجة إلى ظهور طبعة ثانية للكتاب ثم طبعات متلاحقة وما تزال حكاياتهما تحمل حتى اليوم الحيوية والجدة اللتين كانت عليهما فى عهد ظهورها بل إنها لم تزدد فى خلال ال ١٥٠ سنة الماضية إلا تأثيرا فما تزال فنون الموسيقى والشعر والفن التشكيلى تستمد منها موضوعات اثارتها .

وأهم ما تتميز به هذه المجموعة هى أنها دونت الحكايات الخرافية كما كان يحكيها الشعب من غير إضافات تشوهها ودون إيداعها رمزاً مستقراً أو حكمة خفية ولم يهدف الأخوان بذلك سوى أن يكونا وسيطين أمينين فى نقل ما سبق أن نقله الاخرون وفى نقل ما سمعاه من أفواه رواة الحكايات الخرافية من الرجال والنساء على السواء أو نقلته آداب العصور الوسطى .

ومما يساعد على تطوير الحكايات الخرافية من عوامل : عنصر يتصل بالراوى وعنصر يتصل بالرواية وعنصر ثالث يتصل بالمتلقّى .. فالرّاوى بخياله وابتكاره المبدع يتمرد على آثار الحكاية الواردة إليه فيضيف ويُلغى .. والرواية بطبيعتها تتكون من وحدات متخلخلة الصلة ومن هنا يسهل عزل وحدة أو إضافة وحدة من حكاية أخري أو تأخير أو تقديم بعض الوحدات . . وبعد الراوى والحكاية يبقى المستمع وهذا يحمل معتقدات وأخلاقيات طقوسية ، وهو يحب الحكاية أن تسير موازية لذلك فيفرض منطقهُ عليها . . . ولما كان راوى حكاية هو أحد المستمعين لحكاية أخرى مع جماهير الناس ، فإن الراوى والجمهور يعيشان فى مجتمع واحد ومن هنا يكون تأثيرهم فى اتجاه واحد وذا طابع واحد وهكذا لا ينتسب قالب الحكاية للراوى مستقلا عن مجال إقامته ونشاطه ولكن القالب الفنى من حسن الحظ لا يصيبهُ التغيير ويؤكد ذلك أن الحكايات المكتوبة التى حصلنا عليها منذ ما قبل ألف سنة قبل الميلاد فى مصر وبابل والهند والصين تكاد تتطابق مع الحكايات الخرافية المعاصرة والتغيرات لا تطمس معالم الوجه المشرق الوضيء .

وقد جاءت كلمة « أساطير » فى القرآن تسع مرات هى :

١ – « يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا : « إِنْ هَذَا إِلاَّ أَساطِيرُ الأَوَّلِين الاية ٢٥ سورة الأنعام .

٢ – « قَدْ سَمِعْنَا ، لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِين » الاية ٣١ سورة الأنفال .

٣ – « إِذَا قِيلَ لَهُمْ : مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا : أَسَاطِيرُ الأَوَّلِين » « الاية ٢٤ سورة النحل .

٤ – « إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِين » الاية ٨٣ سورة « المؤمنون »

٥ – « وَقَالُوا : أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وأَصِيلاً » الاية ٥ سورة الفرْقان .

٦ – « لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا – نَحْنُ وَآبَاؤُنَا – مِنْ قَبْل إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِين » الاية ٦٨ سورة النمل .

٧ – « فَيَقُولَ : مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِين » الاية ١٧ سورة الأحقاف .

٨ – « إِذْ تُتْلَى عَلَيْه آيَاتُنَا ، قَالَ : أَسَاطِيرُ الأَوَّلِين » الاية ١٥ سورة القلم .

٩ – « إِذْ تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنا ، قَالَ : أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ » الايةَ ١٣ سورة الْمُطَفِّفِين .

وتقول القواميس اللغوية العربية ان خرافة اسم رجل من عذرة ، استهوته الجن فكان يحدّث بما رأى فكذبوه وقالوا : حديث خرافة – ويروى أن النبى قال : وخرافة حقّ . والرّاء فيه مخففة ولا تدخله الألف

واللام لأنه معرفة ، إلا أن تريد به الخرافات الموضوعة من حديث الليل – والخَرَف بفتحتين فساد العقل من الكبر .

والسطر هو الخط أو الكتابة وهو فى الأصل مصدر وبابه نَصَرَ وسَطَرَ أيضا بفتحتين والجمع أسْطَار كسبب وأسباب وجمع الجمع أساطير ، والأساطير الأباطيل والواحد أسطورة وإسطارة .

والخرافة حكاية بسيطة التركيب ساذجة المحتوى لا تميل إلى التعقيد ، مفردة لا تتداخل فى غيرها ، وهذا يؤدى إلى سرعة تذكرها ، فإذا ذكرت أكثر من خرافة فى عمل واحد فإنها لا تتفاعل تفاعلا ينسج عنصراً جديداً بل تظل الخطوط بينها واضحة مثل المزج بين الكبريت وبرادة الحديد ويسهل فصل أحدهما عن الاخر ، كما يفعل تلامذة المدارس فى الفصل بين عناصر المزج .

والأب الحانى على ابنته الوحيدة ، الذى يموت تاركاً هذه البنت الجميلة الطيبة التى تعطف على الإنسان والحيوان ولا تحمل الإساءة ولا تعرف الانتقام ، وتموت الأم أيضا تاركة الطفلة لزوجة أخرى قاسية لها طفلة غبية قبيحة الخلقة ، وهى تريد أن تتخلص من الفتاة الجميلة حتى نفتح طريق المستقبل والزواج أمام ابنتها . هذه الوحدة الحكائية نجدها فى (سندرلا) ، ونجدها مع إلغاء عنصر الطفلة فى « الأميرة الصغيرة والأقزام السبعة » وإلغاء عنصر الطفلة القبيحة وجهاً وسلوكاً لابد من أن ينوب عنه شىء يبقى على الوحدة متماثلة متوازنة ، هذا البديل هو أن الزوجة الشريرة الساحرة تريد أن تظل أجمل إنسانة فى الوجود وهو سبب فى مستوى الدفاع عن مستقبل الابنة بل إنه يفوقه لأنه دفاع عن النفس .

وقد بدأت بهذين المثلين لانتشارهما بعد أن قام « والت ديزنى » بتقديمهما بين أفلامه السينمائية ، كما نشرت فى كتب ملونة أو بارزة وفى « ألف ليلة وليلة » نجد نماذج من ألوان من الحقد المدمر ، كما نجدها فى حكايات الشعوب المختلفة ، وهذه حكاية « البحيرة المقدسة » من الهند تصور زوجة الأب هذه ومحاولاتها اليائسة من أجل التخلص من الفتاة الجميلة الطيبة لصالح ابنتها ، والنتائج السيئة التى لاحقت الأم وابنتها لشرورهما .

وإذا كانت حكاية البحيرة المقدسة من الهند وفيها نرى المسافة الشاسعة التى تفصل القرية الأخرى وتجعل السفر شاقا وطويلا ، كما نجد الثراء العظيم وكثيراً من ملامح الهند ، فإن عصب الحكاية الممثل فى زوجة الأب التى تريد أن تزوج ابنتها القبيحة الخِلقة والخُلق والتى فوق ذلك لا تملك لساناً يعجب الخَلْق ، هذا العصب الحى فى الحكاية الهندية .

وفى حكايتى « البحيرة المقدسة » الهندية و « الزير » النوبية نجد عالَماً خاصا غير العالم الذى نعيشه ، وبالرغم من أنه عالم يمكن إدراكه وقبوله والاقتناع به ، إلا أنه عالم خاص يختلف عن عالمنا — فالأسماك فى البحيرة المقدسة ليست مثل التى نعرفها على السفُّود أو على الزيت المغلى ، بل هى كائنات عاقلة تغضب ممن يحاول صيدها وتقرر عليه عقوبة الغرق ثم تخفف العقوبةَ إلى السحر فتحول الأمير إلى سمكة — ومنطق الحكايات يتفق مع منطق الحياة فى أجزاء كثيرة ولا تضطر لتخلق لها منطقا إلا إذا وجدت أن قوانين الحياة تعوق سير الحدث — فالأمير السمكة يأخذ منطق السمكة العادية فى أنه يختنق

إذا خرج من الماء ، إلا أنه يخرج عن هذا المنطق إذا كان على الأم الملكة أن تعلم أن ابنها مسحور ، هنا ينادى أمه ويقول لها : لقد صرت سمكة وأنا لا أريد أن أبقى فى البحيرة عمرى كله - كما أن الثعبان السام « الكوبرا » يتحول إلى ملاك منقذ فى الحكاية الخرافية الهندية .

وفى الحكاية النوبية نجد منطق الحياة الواقعية لا يلبث أن يختفى ليبدو منطق الحكاية فإذا فاتنا تسقى النخلة الظامئة فتدعو النخلة ربها أن يطيل شعر فانا مثل طول النخل ، ونجد غراباً جائعاً فتطعمه فيدعو الله أن يأخذ من سواده ويضع فى شعرها .

وعالم الحكاية الخرافية بلا عمق ، مسطح ، ذو بعد واحد فيه كل كائن يمثل دوراً معينا لا يحيد عنه ولا ينمو نمواً ديالكتيكيا فيصبح الكائن مثل حجر الشطرنج له مكانه وخطواته لا يتعداها وكما أن الذى يسقط يخرج من اللعبة ، فإن زوجة الأب تختفى ابنتها فى حكاية البحيرة المقدسة عند البئر فى انتظار البنت الطيبة وتظل هناك إلى لحظة القيام بالدور المحدد فتدفعها إلى البئر ، وما أن تهوى إلى القاع حتى تبدأ خطوة جديدة ، ومن هنا يصبح من حقك أن تحكى هكذا- هذا ما كان من أمر البنت الطيبة أما زوجة الأب وابنتها . . .- أى أنك توقف الحياة فى قطاع من الحكاية وتستمر بها فى جانب آخر فلا يتداخل هذا فى ذاك. . . . . . . والشريرة فى الحكاية الخرافية شريرة شراً مطلقا عاماً لا ينفذ منه الضوء ، فالأسلوب فى هذا النوع من الحكايات تجريدى .

وقد رأى ماكس لوثى أن الخاصية المميزة للحكاية الخرافية مع

وجود عالم خاص بها يختلف عن عالمنا الذى ندركه هو أنها ذات بعد واحد ، وأنها مسطحة وذات أسلوب تجريدى وأن الباعث منعزل عنها ، كما أنها لا تتضمن أى موضوع نفسى ، ولا ترتبط بالالهة والأرواح العلوية وإن حكت عن المردة والسحره والأقزام فهى لا تعرف الترتيب المنطقى الدقيق ، كما أن شخوصها غير مجسمة ولا مشاعر لها ، والعنصر الزمنى مفقود فى الحكاية الخرافية ، ويحتمل أى تصوير أو زخرفة أو تعليق ينشر أثناءها ،وكلما ازداد سرد الحكاية الخرافية وضوحا ما كان ذلك ضمانا لوصولها إلىهدفها وتأكيد أصالتها .

بالرغم من اعتقادى أن الحكاية الخرافية لا يمكن أن يكون لها موقع محدد تبدأ منه ، فإن استعداد بعض الأمم لتطوير الخرافة يجعل الاراء التى تحد البداية الموقعة أهمية دراسية مثل رأى « فل- اريك بيوكيرت » الذى يميل إلى أن الموطن الأصلى للحكايات الخرافية بوصفها صورا مكتملة ترجع حقا إلى عصور بالغة فى القدم ، هو منطقة الحضارات القديمة فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، إذ أن عالم الحكايات الخرافية فى رأيه هو عالم المزارعين ذوى المواصفات الخاصة عن العمل والتفكير ، مما يخلق كيانا روحيا متفق الأسس مع الكيان الروحى فى العالم أجمع .

والحياة الزراعية تفرض منطقها الخاص بها والمختلف عن المنطق الصناعى- فالصناعة سواء كانت استخرافية أو تحويلية أو تركيبية تحدث أمام الصانع ، والتفاعلات يمكن تفسيرها كما أن الظواهر العلمية كالجاذبية والتأكسد والقصور الذاتى يمكن تطبيقها بوضوح أيضا ، أما فى الزراعة فالمسأله أكثر تعقيدا . فالبذرة والأوكسوجين

الجوى والضوء والماء وأملاح التربة تتفاعل لتصنع الشجرة ، ولكن ما هو هذا التفاعل ؟ وما قدر وحداته ؟ ومتى يتوقف وما مداه ؟ ، وما جدوى كثير من عناصره ؟ هذه مسائل نجد الزراع وهم يروون أرضا تخصب وأخرى تجدب ، وأشجاراً تسقى بماء واحد ويختلف طعمها وحجمها وعمرها . . . . ثم الدود والجراد وأعداء النباتات ، متى تأتى ولماذا ؟ وإذا كانت المياه تطفىء النار التى تحرق المزرعة فلماذا تغرق المياه المزرعة ؟ ولماذا خلق الله الفئران ؟ وإذا كانت الطواعين شروراً فلماذا أصابت قرية الرجل الصالح ؟ إن الغيب والمعجزة والقدرة يقيمون إقامة دائمة فى المزرعة البدائية ولا يملك الفلاح فكاكاً منها فى إطار مجتمعه بل إن هذه القوى تنسج شراكها زمنا طويلا حول المجتمع الصناعى إلى أن تعمق تقاليده وتتأكد قيمه ، ويتكامل العامل الصناعى الحق الذى يؤمن بالعمل والتنظيم والتخطيط. والإنتاج ، ويعرف قيمة الزمن وأثره ، وعلاقة أدوات الإنتاج وعوامله بعوائده .

وإذا كانت الخرافة نتاجاً ضرورياً للمجتمع الزراعى ، فقد ازدهرت فى مجتمعات الحضارات الأولى ، ولكننا لم نصل بعد إلى معرفة ترتيب الأماكن التى قامت بها الزراعة فى الزمان القديم ترتيبا محكما ولكى لا نصل إلى نتائج منافية للعلم وروحه يحسن عدم تحديد مكان البداية للحكايات الخرافية ، وأن نكتفى بدراسة الظروف المتشابهة التى جعلته يخلق على صورته وينتشر فى الافاق .

ولا تقف آمال الانسان عند حد ، وسوف يظل يناضل على مدى الأجيال للوصول إلى قدر أكبر من الطيبات وإلى عدد أقل من الجهود

والتضحيات ، فالعمال تقل ساعات عملهم وتزيد أجورهم فيبدأ أمل فى زيادة جديدة فى الأجور على شكل عائد نقدى أو منفعى أو على شكل خدمات - ولا تلبث الامال أن تتحول إلى سياط تلهب وجدان الإنسان وتسوقه مسعورا فى متاهات المستقبل ، وحين يجنى المرء الطيبات التى نسعى إلى تحقيقها لا يكون فى حالة يستفيد فيها مما جنى أو بسعر المحصول ، إنه يصل بعد أن يفقد أن يتلف أعضاء من جسمه أو من روحه . ومن هنا تنبت أفكار مضادة تطالب الناس بالرضا والامتسلام ، بأن الأبيض كالأسود والماء كالخشب - الاندفاع مدمر أو النوم مدمر ولابد للمجتمع من أن يجعل للعمل وللطموح علامات مرور محددة تمنع الاندفاع الرهيب الذى يسوق للهلاك (العصفور المغرور) وفى نفس الوقت يعاقب الذى يقف فى وسط الطريق ويعطل المرور .

والخرافة بشخوصها غير القابلين للانجذاب إلى الأرض على أساس الثقل وليست أطوالهم أو ألوانهم ثابتة كما أن الاخرين فى خلفة الحكاية بحيث تنتظر الشخصية لحظة أداء دورها مثل مؤلف الشخصية التى سيمثل دورها ، ثم يظهر على خشبة المسرح وتصفق له الجماهير فيعلم صاحبنا فى حجرته الجانبية أن دوره قد اقترب ثم يسرع ليدخل من الباب الأيمن ويهتف : مولاه ، الأوغاد يحرقون صوامع الغلال « ثم يخرج مسرعا ، ويذهب إلى غرفة الملابس ويلبس بذلته الافرنجية وينصرف إلى بيته ومازالت المسرحية مستمرة بعد الخرافة ، بل ان الحكاية الخرافية تختلف عن كل الأدوات الفنية العصرية فى أن البطل نفسه قد ينتهى دوره قبل انتهاء المسرحية .

ففي حكاية « الصياد والعفريت » أخرجه من القمقم ، وينفذ العفريت قسمه بأن يقول له : سر خلفي ويمضي به إلى بحيرة بها أسماك ذات ألوان أربعة فيلقي الصياد شبكته فيخرج أربع سمكات يذهب بها الى السلطان وينال جائزة ، وينتهي دور الصياد والعفريت ولا تنتتهي الحكاية إذ أن السلطان يأمر وزيره بالاهتمام بطهي السمك وتقوم الجارية بالطهي فينشق الجدار وتخرج جارية تحدث السمك ويرفع السمك رأسه ويجيب ثم يتحول السمك إلى رماد ويخوض السلطان تجربة لمعرفة سر السمك ، ثم يفك الطلسم وتدب الحياة في المدينة

وهكذا نجد الحكاية الخرافية بكل إمكانيتها قادرة على القيام بدور تعليمي وان تثبت طقوس العصر ومعتقداته بجانب دورها الإنساني في الدفاع عن القيم المطلقة التي تتعدي العصر في مجالاتها ـ فصفة مثل الطموح تحتاج إلى تحديد وإلى مواصفات معينة ، وموقف من أبناء العصر يفرضه الراوي من خلال تجارب الحكاية في رشاقة وخفة وتفاؤل : وهذه حكاية (البيضة) من التراث النوبي الخرافي ، الذى تمتزج فيه الحكاية بالشعر ، وقد تعمدت أن اقدم الجزء الشعري مقطعيا حتى أعطي للقارىء العربي الإيحاء الشعري للأصل :

أما أشهر الحكايات الخرافية المصرية (الحكاية الخرافية ـ تأليف فريدرش فون دير لاين ـ ترجمة دكتورة نبيلة إبراهيم ـ راجعه دكتور ـ عز الدين إسماعيل

فهي حكاية الأخوين « أنوب » و « باتو » التي دونت قبل الميلاد بحوالي ألف وثمانمائة سنة ، وعرفت في أوروبا عام ١٨٥٢ ـ كان أنوب يعيش مع أخيه الأصغر باتو الذى كان يفهم اصوات

الحيوان ، حياة وثام على الدوام - ثم انتهت زوجة انوب الاخ باتو ، الذي رفضها بالرغم من إغرائها. عند ذلك أوقعت الزوجة بباتو لدي أخيه أنوب ، وادعت أنه ان يعتدي عليها . وأنها لم تستطع أن ترده عنها إلا بعد جهد جهيد .

وصدق زوجها أنوب هذا القول وأراد أن يقتل أخاه باتو ، غير أن بقرة ذات صوت إنسانى حذرت باتو من الأمر - وهرب باتو مع أخيه وطلب العون من إله الشمس الذى خلق نهرا مليئا بالتماسيح يغرق بين الأخوين - وفى اليوم التالى أخبر باتو أخاه بما حدث فى الحقيقة وندم أنوب على فعلته وقتل زوجته .

وذهب باتو إلى وادى أشجار السدر وأراد أن يطرح قلبه بين براعمها ، وتوسل إلى أخيه أن يأتى إلى وادى الدر إذا انتابه حادث وعليه ألا يخلد إلى الراحة حتى يعثر على قلبه - وكانت هناك علامة تدله على أن أخاه فى خطر ، فإذا ما علا الزبد الجعة فى البراميل فعليه حينئذ أن يرحل إلى وادى الدر . وعاش باتو فى وادى الدر ، ومنحته الالهة أجمل امرأة .

وحدث أن حمل النهر خصلة من شعرها وألقاها فى المكان الذى تغسل فيه ملابس فرعون ولم يهدأ فرعون حتى تزوج من المرأة صاحبة الخصلة - وحين خانت الزوجة باتو ، تساقطت أشجار الدر ومات باتو - وعلا الزبد جعة أنوب فنزح وظل يبحث مدة أربع سنين حتى عثر على قلب أخيه باتو داخل ثمرة ، فألقى الثمرة فى وعاء به ماء ، فعاد باتو إلى الحياة .

ثم حول باتو نفسه إلى صورة ثور حمله أنوب إلى فرعون ، وهناك

كشف باتو لزوجته عن نفسه فأمرت الزوجة بقتل الثور - وتساقطت قطرتان من الدم على الأرض نبت منهما شجرتان من اللوز المر .

وكشفت إحدى الشجرتين عن نفسها للمرأة الخائنة معلنة أنها هى باتو ، وأقرت الزوجة بقطع الشجرة - فتطايرت شظية من خشبها إلى فمها فحملت عن طريقها وأنجبت ولدا هو باتو نفسه وشب الطفل عن الطوق وعلا عرش فرعون ، وأمر بشنق الزوجة الخائنة - وحكم باتو فترة طويلة وبعد موته خلفه أخوه الأكبر .

* * *

وأنت تحس فى هذه الحكاية الخرافية المصرية التى ترجع إلى ما قبل الميلاد بحوالى ١٨٠٠ سنة ، وعرفت فى أوربا عام ١٨٥٢ ، بالبطولة الأسطورية والعذاب والسعى الإيجابى من الأخوين مما يقربها من الحكاية الأسطورية ، إلا أن الحكاية فى أغلبها ساذجة مسطحة ذات بعد واحد تقوم القوى الخارجة عن الأبطال بتنفيذ إرادتها ، فالأخ يتحول إلى ثور ليذهب إلى زوجته التى لابد ستقتله وهو الذى سعى أخوه أربع سنين لإعادة الحياة إليه ، وأنه يفعل ذلك ليموت أمامها ليكون جريمتها وأمام عينيها تاركا باقى الأمر لقوى الغيب أن تحوله بعد موته إلى شجرة تدخل إلى أحشائها عن طريق فمها وتولد من جديد . كما أن الفواصل بين وحدات الحكاية قوية بحيث لا تتلاحم مثل الأساطير . فالفتى الأصغر باتو الذى ظن به أخوه ظن السوء وكاد يقتله ، هذا الفتى منحته الآلهة أجمل امرأة مكافأة له على العذاب الذى ناله ، وهنا نحس بمناخ طيب للحكاية ، كما أحسسنا فى ألف ليلة وليلة بنهاية حكاية الصياد والعفريت حين قدم السمك

للملك وحصل على الجائزة . وكما لم تنته حكاية الصياد والعفريت مع خروج الصياد وكذلك العفريت من مسرح الحكاية .

فكذلك نجد فى الحكاية الخرافية المصرية القديمة أن هذه الفتاة الجميلة - منحة السماء - تخون زوجها مع فرعون - وهذا ما يجعلنى بالرغم من السمات الأسطورية المتناثرة فى هذا العمل اعتبره حكاية خرافية ، وإن كنت أجر من هذا التطابق فى السمات ما يؤكد أن الفواصل بين الأسطورة والخرافة ليست حديدية صارمة محددة .

ومن قارة أخرى هى آسيا نجد هذه الحكاية الخرافية الهندية وسوف نلاحظ الشبه الكبير بينها وبين الخرافة المصرية القديمة ، ففيها محاولة دائبة للقتل ، وقوى غيبية أو واضحة تقف أمام هذه المحاولات وتسحقها فتقود المحاولة من جديد ، ولكن قوى الشر هى التى تتحطم بالرغم من أسلحتها الأقوى ويصل المستضعفون إلى القيادة والحكم .

والذى يستعرض الحكاية النوبية يلاحظ أنها تتباين تبايناً يدل على أنها نتاج عصور متخلفة ، وإن كان أغلب ما حصلنا عليه تشم فيه رائحة عصر المماليك الزاهى العبودى الرائع القاسى الزاهى الألوان . وفى الوقت الذى نرى فى حكاية « البيضة » مجتمعاً فقيراً يحتفى ببيضة دجاجة ! ، وكذلك نجد البؤس فى حكاية « الأسد والفتى العاشق فإن حكاية « فاطمة بنت النجار » ثرية مملوءة بالحلى والسفن والرحلات لسنوات على النيل مما يعبر عن الترف المملوكى القديم .

والحكاية الخرافية النوبية إما أن تعتمد على منطق الحياة أو تجعل لها منطقاً خاصاً بها أو تمزح لتقودنا إلى أسلوب معين فى الحياة أو لأخلاقية معينة . والتكرار من سمات الحكاية النوبية إما عن طريق تكرار

جملة أو تكرار عمل معين ، ففى فاطمة بنت النجار نجد لقاء جاسر مع فانا فى كل مكان من الأماكن الثلاثة يحدث بنفس الطريقة ويذهب الخادم ويطلب النار ويشوى الأوزة ...... الخ .... كما نجد لبعض الأرقام قداسة خاصة مثل الرقمين ٣ ، ٧ .... وبخروج الحكاية الخرافية عن منطق الحياة إلى منطق خاص بها يصبح استعمال الحيل والسحر من إمكانياتها .

والحكاية النوبية تسير فى خط مستقيم حيث يدور الحديث بين شخصين فإذا ظهر شخص ثالث توقف الحدث الأول وعدنا إلى أعمال الشخصية الثانية بدون تداخل أحدهما فى الاخر ، ففى حكاية الأسد والفتى العاشق نجد الفتاة الجميلة تخرج من الصورة بمجرد ذهاب ابن عمها إلى الصحراء للتجارة ليقابل الأسد ، ثم يختفى الأسد من الصورة حين يذهب ابن العم لمقابلة الفتاة الجميلة تاركا الصحراء . وربما كان هذا سبب الرواية الشفاهية إذ أن الشكل القصصى المتداخل الشخصيات المركب الخلق يحتاج إلى الكتابة والتدوين .

وإذا كان « اوتوكروسيوس » قد جمع الأمور المستحيلة فى بعض الحكايات الخرافية الإفريقية فى أن الأرنب والغزال يستخدمان للركوب .... الخ فإن الديك استخدم فى الحكاية النوبية للركوب كما فى حكاية « الفاربروكى » وفى حكاية « خالى جاءه المخاض ، كما أن فى الحكاية النوبية الرجل الذى ينجب ، أو البيضة التى تستبدل بجمل ، والشجرة التى تدعو فيستجيب الله لدعائها ، والجماعة تتكلم ، والأسد يعقد معاهدة مع شاب ويعيشان فى سلام والصقر يربى طفلة إلى أن تصبح فتاة وتتزوج والعصفور يخرج من النهر مرة ويحمل فأسا ويقود سفينة فى مرة أخرى

والحكاية النوبية تبدأ من والدىْ البطل « إِيْد تِري إِدِيْن تِكْ ادُونْ
حدث ذات مرة أن رجلا تزوج من امرأة وأنجبا طفلا . . . أو طفلة »
وفى الختام يذكر الراوى بعد وصف الحفلات أن طاقيته مخروقة « ولولا
ذلك لأحضر بعض الطعام إلينا » أو « انَ ما عِنْدَنَا يِنْمُو وَمَا لَدىَ
الآخرين « يَذْبُل »

وهى تختلف عن النكتة والأسطورة فى أنهما ينسبان إلى أشخاص بأسمائهم فنقول إن فلانا أو فلانة قابلت عند الفجر كائنا وصفه كذا وكذا ، ومن هنا نعتبر الخرافة من آدابنا وفنوننا لا من معتقداتنا الريفية كما فى الأساطير التى لا تهدف إلى مجرد التسلية وازجاء الفراغ بل تكمل فجوات فى كيان المجتمع المادى ومن هنا تأخذ شكلا ماديا ـ والحكاية الخرافية النوبية لاتهتم بالتفاصيل بل تقدم وصفاً تجريديا مطلقاً فالجمال مثالى والقبح لا حد له ، وفيها تتداخل حكايات الحيوان بالخرافة بالملحمة بالأسطورة فى بناء واحد . ففى حكاية الصياد وعصفورة الكاورانى « مزج بين الأسطورة والخرافة ، وفى الأسد والفتى العاشق مزج بين الخرافة وحكايات الحيوان ، وفى حكاية فاطمة بنت النجار مزج بين الملحمة والأسطورة والخرافة .

البكائيات والرثاء

والنوبية تبكى فى غناء حزين فقيدها العزيز ففى بلاد النوبة يودع الناس أنفاس الحياة بمهرجانات تستمر أياما كما يأتون إلى هذه الدنيا بمهرجانات وطقوس صاخبة فحين يموت المرء تقدم الذبائح لتوزع على الفقراء والمساكين ثم على المقرئين ورجال الدّين ثم للضيوف الذين يأتون من قرى بعيدة ومع كثير منهم طعام كثير يكفيه ويكفى

آخرين معه . ويجمع الأطفال الحصا من الجبل ليسبّحوا باسم الله فوق قبر الميت وتظل زوجة الفقيد فى حدادها مدة ٤٠ يوما

ولن تكون الوفاة نهاية لحياة النوبى فحياته ممتدة سواء كان هوفوق التراب أوتحته لذلك يعدون له عشاءه يومياً وهوميت مدة أربعين يوماً نفس الأطعمة التى كان يفضلها وفى نهاية كل يوم يقدّم للأطفال وعابرى السبيل ليأكلوه ويستمرون فى إعداد الطعام مدة أربعين ليلة نفس المدة التى كان ينتظرها أجدادنا الفراعنة إلى إكمال تحنيط الجثة . . وكان أجدادنا الفراعين يرون الجسم هو الذى يموت أما القرين فهو بنفس جسم الإنسان وإن كان من نوع أثيرى وبنفس شكله وعيوبه ومميزاته . إن (كا) يلازم الجثة بعد الموت لذلك نقدم له الطعام مدة أربعين يوما (المدة إلى الانتهاء من إجراءات التحنيط (حتى لايذبل من الجوع والظمأ ثم يصبح الجسم بالتحنيط قادراً على الاستمرار من غير حاجة إلى الطعام . ومثلما تُغَنّى الزوجة النوبية على زوجها الراحل وقد تعانقت جالسةً مع إحدى قريباتها والتصق الرأسان وتحركا بهدوء فكذلك فعل النوبى « عَلِين تُوْد »[1] (ومعناه ابن على) بكاء على ابنه الذى سافر إلى الشمال وانقطعت أخباره عن أبيه الحزين فى القرية قائلا (سِسُّورْ كِنْتِى تَنَّامْ جُونِيرى

دُجى كِنْتِى تَنَّامْ جُونيرى

إلِى يُويُو إلَّمْ زيرْمِينِى ؟

مَانِ اليِمِينْ إلِّمْ نِيرْمِينِى ؟ أنْجَاتُودْ بُوغَازِلْ دَانَا

مان اليمين بو غازل دانا

ومعناه : إن العصفور يعود إلى عشه لينام واليمامة تنام فى عشها .

فيا صغيرى الحبيب لماذا لاتنام ياعينى اليمنى لماذا لاتنام ؟ إن ابنى ذهب إلى البوغاز . . عينى اليُمنى إذهب إلى البوغاز .

الحكاية الخرافية الغنائية

فى كثير فى الحكايات النوبية الخرافية تجد مقطعاً فى كل منها يتكرر ففى حكاية الساقية المسحورة نجد الأُخت الثالثة الصغرى تبحث عن حبيبها فتتحمل المشاق ثم تأتى خادمتها فتتزوج من فتى أحلامها فتغنى له وهى تبلله بدموعها وهو لا يحس بوجودها بعد أن خدرته زوجته فتقول :

سِيِّنَّمْ اِيْجَاكُوجوُ مُجْجِسى

سُورَا تُودْ يِنْجُوْن وليِسَاْن ارجَبِى

دُنْيَا ملَكُّوْنْ جريَدْى جَرْبِنِى

ومعناه : لقد تركت أهلى من أجلك وسرت خلف طيفك الذى كان يراودنى دائما ومضيت أُغرْبل العالم كله بحثاً عنك ثم واحسرتاه ماذا جنيت فى النهاية ؟

وهذه الأغانى التى تكون أجزاء أساسية من كل حكاية من نوعها تمنح الحكاية طاقة نغميّة وتعمق الصور وتمنح الخرافة ظلال الواقع الحى فأنت لا تسمع عن شخص قد يكون وهماً بل تسمع صوته وهو يغنى بكلمات معينة ليست من حديثنا اليومى فكأنما تستحضره فى هذه الكلمات المنغومة .

وهناك بطولات تنسب لأشخاص في القرية وهذه البطولات لا تأخذ دائماً شكلاً عضلياً أو موقفاً استشهادياً بل هي أحيانا تكون في الواقع المتكرر يومياً ولكن مُرافعةً بليغةً مثلاً تكُسبها خلودًا .

ومن ذلك أن رجلا كان يملك بقرة وبجانب مزرعته أرض لامرأة تملك بقرة وقد اتفقا[1] على زراعة أرضيهما بطريقة تعاونية فتقوم البقرتان بالعمل في أرضه ثم تنتقلان إلى أرضها وقد أراح بقرته وأجهد بقرة جارته بأن جعلها تعمل ليلاً ونهارًا حتى تلفت فأعادها إلى صاحبتها وقال لها : إنني مضطر لفسخ العقد لأن بقرتك لاتصلح للعمل فشكته لمجلس القرية وقالت في مرافعتها : «وُوهَسِنْ نيدِنْ كُوشُيكُو ووُجَبَانْ كَاش وُ وجُفْتَانْ شَاهِي) كَاذْكُو إِرْتَبِجْو جْ مَانْ اركِّريتْجَا ميدَانْ المَنْشِيَّالاَنْ آجْ فِسَّهْكَتُّو ؟ »

ومعناه :ياحسني ياذا الأسنان المتكسرة المتناثرة من حبوب القرطم ياذا العمامة من القماش الرخيص ياذا القفطان الممزق عندما كنت تأخذ بقرتي من (الزريبة) ليلا متسللا هل كان ذلك بقصد الفسحة في ميدان المنشية ؟ وواضح أن ميدان المنشية في الاسكندرية حيث الترف والنزهة فهي تقول له إن قريتنا أخذ بقرة فيها معناه تشغيلها وبهذه المرافعة كسبت المرأة الفصيحة القضية

* * *

وفي الوقت الذي نجد فيه الحكايات رحيمة في عقوبة «المخطىء» نجدها ضارية في عقاب «المذنب» المدرك لخطيئته فقولة (الإيركاني) التي تدبر المؤامرة لقتل أطفال أبرياء تحمل سكينها في الظلام وتذبح

أولادها هى . . والأم التى تزوجت ابنها تُفْسَخ وتقُطع أعضاؤها وزوجة الأب تموت كمدا وتتمزق أحشاؤها محدثة صوتاً والأولاد السبعة المغرورون تكوى ابنة عمهم أفخاذهم بسمة العار ، وخال الولد قويايموت غرقاً والمرابى فى «حبة الرمل المسحورة» يدمر بيته ويلقى به للموت والدمار

هكذا تكون العقوبة صارخة رهيبة فى الحكاية النوبية فى حالة الخطيئة المقصودة وكذلك فى أساطير العالم ففى أسطورة «اريسيحنتون» اليونانية تجد أن زيد يقاً يحتقر الإله فكَر مَرَّةً أن ينتهك بالفأس حرمة دَغْل مكَرس لكيريس. وكان بهذا الدَّغل شجرة بلوط عتيقة وصلت من الضخامة أن ظنها الناس غابة بنفسها ، وكانت الحوريات ترقص حوله . . أمر أريسنتخون بقطع الشجرة أحس ترددهم حاول قطعها بنفسه وحين تلقّى الجذع أول ضربة نزف دما . . فأذهل الرعب جميع الحاضرين ، إلا أن واحدًا احتج بشدة فضربه اريستخون بفأسة حتى قتله ، فصدر من الشجرة صوت يقول : أنا قاطنة الشجرة حورية أثيرة عند كيريس وها أنا أموت الان «وأنذرك بالقصاص ، واستمر يضرب بفأسه فاجتمعت الحوريات الدرياد فى أسف وامتعاض لفقد رفيقتهن ،توجهن إلى كيريس وجميعهن بلباس الحداد مطالبات بالثأر بتسليمه لالهة الجوع فمينا **famine** ،ولم يكن فى استطاعة كيريس نفسها ملاقاة فمينا إذ قررت آلهة الاقتدار ألا تتلاقى هاتان الإلهتان قط ، فاستدعت حورية أورياد من موطنها بالجبل ، وخاطبتها بقولها : هناك فى أقصى مكان باسكثيا المغطاة بالثلج إقليم قاحل فيه تقطن آلهة البرد والجوع والخوف فاذهبى إلى الأخيرة واطلبى منها أن تستولى

على أحشاء اريستنحتون ، وأعطتها عربتها التى يقودها التنين بسرعة وتم كل ىء وذهبت الالهة وانتزعت أحشاءه وهو نائم ونفثت سمومها فى شرايينه وأحس أريسنحتون بالجوع وهو يأكل ولايشبع أبداً كان جوعهُ كالبحر الذى يستقبل جميع الأنهار ولكنه لايمتلىء قط. فأنفق كل ماله فى الطعام وباع ابنته أيضاً فرفعت عينيها إلى بشتونا فاستجاب لضراعتها فبدأت فى هيئة صياد سمك . وسأل السيد المشترى الصياد عن الفتاة فقالت أنها لاتدرى فمضى لحال سبيله وعندئذ استردت حالتها فسر والدها ولكنه باعها ثانية وفى كل مرة تتغير إلى حصان أو طائر أو . . . فتتخلص ممن اشتراها وأخيرا اضطره الجوع فى النهاية إلى التهام أعضاء جسمه ! ! !

إننا نجد فى الحكاية الخرافية البيئة المحيطة من مزروعات بسيطة تستعمل فى النوبة ، ففى حكاية الزير نجد النحلة والغراب والحمامة من طيور الحقل والأول يمثل المزرعة والحمامة تمثل البيت كما نجد تصور ما خلف الجبل إنه الموت إذ تبتعد عن النيل إلى الصحراء واخيراً فالزير هو ليس مجرد أداة لحفظ مجرد الماء بل يأخذ هو الاخر شكلا طقوسيا . ومن الواضح أن وضع الزير فى مكان لاسقف له (سماوى) وأن يكون بجانبه زير آخر (وليس ثلاثة ولا واحدا) مما يعطيه رمزًا خاصا

إن الزير هو ملخص النهر بكل تصوراته وسطح النهر يتحول إلى مرآة بكل رموز المرآة التى تسع العالم كله وتلخصه وبالتالى تسيطر عليه ، نجد سطح الزير مرآة يرى الأمير منه الفتاة التى بأعلى الشجرة .

وفى حكاية البيضة نجد أطباق الخوص وتفاصيل صنعها وأداة الصنع المكونة من إبرة كبيرة مغروسة فى قطعة من الخشب « إسأن »

ثم رسم جغرافى للوحدات السكانية فى المنطقة فالبيت به الدواجن والطيور وبجانب البيت صانع المخزاز لنسج الأطباق والدَّيْو للطهى ثم أرض فسيحة تجلس فيها النساء يثرثرن ويصنعن أطباق الخوص ، ثم الرجال فى المزرعة ثم بعد المزرعة المراعى حيث تنمو الأعشاب البرية على الماء القليل ثم الصحراء حيث البدو وتجّار الجمال .

وفى حكاية الأسد والفتى العاشق كما فى الوردة الشائكة نجد والد الفتاة يقع فى خطأ لا يدفع ثمنه وحده بل تشترك الجماعة وعلى وجه الخصوص الإبنة فى ذلك فهى تموت أو تستغرق فى النوم فى الحكاية النوبية وهى تفقد حبيبها وتبكى عليه فى الحكاية النوبية .

ولأنه خطأ وليس جريمة فإن العقوبة مؤقتة وليست صارمة فالفتاة الأوربية تستيقظ مع قبلة عاشق جسور والفتاة النوبية تتزوج من ابن عمها .

وهنا استاتيكية مشتركة فى الجو المحيط فبالرغم من مرور السنين ظلت الأميرة الوردة الشائكة ناضرة شابة فتية وبالرغم من طول رحلة ابن العم النوبى فقد عاد ليجد فأنا مازالت نضرة كأنه تركها منذ لحظة .

وكما ينمو نبات متماثل فى جميع أنحاء العالم فى أحوال جغرافية متشابهة كذلك تُظهر الظروف الروحية المتماثلة صوراً متماثلة للنشاط الروحى وعلى ذلك فمن الممكن أن تظهر الحكايات الخرافية فى شكل متماثل فى جميع أنحاء العالم (بيلديه فى كتابه عن الفابولا)

وقد ذكرت أن النوبين من الشعوب النهرية ومع ذلك فالسمك ليس طعاماً أساسياً لهم وقد يقول قائل إن خوفهم من التماسيح جعلهم

يضحون بالسمك والواقع أنهم لا يخافون التمساح بل يصطادونه بسهولة ويضعونه على واجهات بيوتهم ولو كان يؤكل لأكلوه ولكنهم على وفرة السمك وسهولة صيده ليسوا مغرمين به . والرأى عندى أن النوبى يعتقد أن بداخل الماء عالما مثل عالم الأرض (امانْ نُتُّو) أناسًا يعيشون فى بيوت ولهم مساجد ومطاحن غلال وحرف ورقصات ولما كان التناسخ يجعل الأرواح تتقمص كائنات البيئة فإن أرواح (اَمَانُتُّو) لابد أن تتقمص الأسماك فاذا أكلناها فقد نكون فى نفس الوقت نضع فى أمعائنا بشرًا من سكان النهر وإخوةً لنا فى الدين وبينهم وبين بعض أهل الأرض نسب وأصهار .. وهذه بقية للعبادة الطوطمية . وتتفق الأديان الطوطمية كلها فى أن مصير مجموعة الناس يرتبط بالطواطم وأن عددا من المحرمات (تابو) له صلة بالطوطم .

ومثال ذلك أنه لايحل أكل لحم الحيوان الطوطم وأكثر من ذلك لحم كل حيوان يشبهه وفى بلاد النوبة يذكرون أسماء أشخاص بذواتهم حدثت لهم حوادث رهيبة مثل التوائم ففلانة من أسرة كذا قامت من نومها والدم يسيل من كتفها وحكت كيف خرجت روحها وتقمصت قطة ومضت القطة تبحث عن طعام فخطفت دجاجة فضربتها صاحبة الدجاجة بسكين فى كتفها فسال الدم من كتف الفتاة . .

مثل هذا يحتاج فى تحليله إلى موضوعين الأول ذكر أسماء الناس وهل يعنى الصدق التاريخى ؟ والثانى موضوع تناسخ الأرواح وأثره فى الحكاية الخرافية أما بالنسبة للبنت التى ذكرت باسمها على أن الدم قد سال من كتفها فإن الرواية المتناقلة قد احتفظت بغرائب الحياة اليومية وغرائب الإنسان العادى فإذا تميز بذكاء نادر وحس رقيق

وملاحظة صائبة أو إذا ما اشتهر فى بغباء غير عادى أو إذا أصابته مصيبة نادرة فإن الحكاية فى العصور المتأخرة كثيراً ما تتوسع فى هذا كله وتنميه وقد رويت عن مثل هؤلاء الأشخاص حكايات عدة سواء أكانت تنتسب إليهم أصلا أم لا فيحكى عن فريدريك الأكبر (الحكاية الخرافية - دكتورة نبيلة ابراهيم) مثلا كثيرٌ من الحكايات والنكات التى غالبا ما ترجع فى قدمها إلى مئات السنين . . هذا بالنسبة لذكر الأشخاص . . بقى الجانب الموضوعى . فى كثير من الحكايات الخرافية يترك الروح جسد الإنسان فى أثناء نومه متخذاً صورة حيوان أما التجارب التى يعيشها الحيوان بعد ذلك فهذا ما يعتقد الإنسان أن يراه فى منامه وأشهر مثال على ذلك حكاية الرؤيا التى رآها ملك الافرنج جونترام تقول الحكاية بينما كان الملك نائما تسرب من فمه حيوان صغير وجرى إلى جدول ماء وأبصر خادم الملك هذا فوضع سيفه فوق الماء ولكن الحيوان الصغير جرى مبتعداً واختفى فى جحره ثم رجع بعد فترة وتسرب إلى فم الملك مرة أخرى ثم استيقظ الملك وحكى لخادمه أنه رأى فى منامه وكأنه يعبر جسراً من حديد فوق نهر كبير حتى وصل إلى كهف فى جبل حيث وجد كنزاً ثميناً عندئذ حكى له الخادم ما شاهده فأسرع الملك مع خادمه إلى مكان الكهف حيث وجد الكثير من الذهب والفضة .

وفى حكاية الأصبع وفاطمة بنت النجار نجد الوالد يخفيها عن الأنظار وينكر وجود ابنة له والسبب أنه وفقاً لتصور البدائيين تجلب الفتيات فى سن البلوغ النجاسة لكل ما تمسه أيديهن أما الدم الذى يندفع فجأة من أجسادهن فغير نقى ولذلك فإن الفتيات فى هذه

السنوات يحجزن أو يسقن إلى حجرة تحت الأرض حتى لا يتسرب إليهن أى شعاع للشمس ولا يسمح إلا لامرأة عجوز أن تتجول معهن وتنصح الحكاية الخرافية الأبوين بضرورة حجز ابنتهما إثر ولادتها داخل قلعة حتى لا يراها أى إنسان ولا يصل إليها شعاع شمس وهناك ينبغى على الفتاة أن تظل بداخل هذه القلعة إلى أن تتزوج .

وفى حكاية العصفور المغرور نجد نفس المسح الجغرافى . . ففى البيت تقوم السيدة بصنع الخبز وهو يصنع أولا بنول حيث تعطيها العصفورة الدقيق بعد أن طحنت سنبلة القمح بالمطحن المجاور بل المسح هذه المرة يضم وحدات جديدة مثل المقابر من ناحية والسفن فى النهر من الجانب الاخر .

وفى حكاية الصياد وعصفورة الكاوارنى نجد صياد السمك عند النهر الخرافى المملوء بالأعاجيب ، ونهر النيل كذلك فى التصوير النوبى .

وفى حكاية خالى يعانى المخاض نجد حيوانات من خلف الجبل المعروفة لديه مع حيواناته الأليفة وذكر حيوانات وطيور وحشرات المنطقة من أبرز السمات فى الحكاية الخرافية وحكاية الحيوان . وقد قدمت نماذج من الحكايات الإفريقية هى الذبابة تعلن الحرب والصرصار يبنى بينه والبقرة واللبؤة وولداهما . كما أن البيئة الاسيوية الخاصة تظهر فى الحكايات الخرافية الهندية فالبلاد الشاسعة الاتساع تظهر فى البحيرة المقدسة والتضاريس المتباينة تظهر فيها الشباشب الذهبية إذ أن الجبل رهيب الارتفاع . حتى أن إعادة شبشب وقع من القمة العالية إلى السطح مغامرة ومكافأتها الزواج من ابنة المهراجا . وفى

الحكاية النوبية فاطمة بنت النجار نجد القمح وهو من أقدم المحصولات الغذائية في العالم . ويزرع في جميع مناطق الوجه القبلي والبحري وهو محصول شتوى يزرع في أراضي الحياض متبادلا مع المحاصيل البقولية أو غيرها من المحاصيل . .

إن اختيار القمح في حكاية فاطمة بنت النجار ليس مجرد مصادفة لذكر أى نوع من النباتات بل إنه يأتي لذهن النوبي لأنه من النباتات المستوطنة إلى المنطقة ، فهو يحتاج إلى ماء قليل يناسب البيئة هناك - بل ان الرى الغزير يفقع الحبوب ويؤدى إلى ضعف الإنبات تبعاً لذلك .

وإذا وقفنا عند البيئة النوبية في حكاية فاطمة بنت النجار فإننا نجد - عدا - القمح أن النباتات والحبوب في الحكايات النوبية وليدة البيئة فعلا ، فالخس أو خس الزيت من المزروعات المعروفة في مصر - هو الاخر - في عهد الفراعنة ، ويزرع بالوجه القبلي إذ تجود زراعته في الاراضي الطينية الصفراء ، ويحتاج لجو دافىء (والخس محصول قائم بذاته في أراضي الحياض ويحتاج إلى ماء قليل وسماد قليل) .

الخرافة تحترم العمل :

والنجار في النوبة شخصية عبقرية محترمة ذكية فهو صانع الساقية والسفينة ، والساقية كانت عند النوبي القديم مثل علوم الذرة في أيامنا لأن الساقية معقدة التركيب والساقية هى هبة أوزوريس للبشر لتصبح حياتهم أجمل وأكثر رغدا وهي تتركب من دائرة من الخشب المتين على محيطها الخارجي أضراس من الخشب (كل أجزاء

الساقية مذكورة بالتفصيل فى القاموس النوبى بل يمثل جزءا هاماً من قاموسهم) ، وبوسط القوس قطعة من الخشب بوسطها فتحة يثبت[٣] بها رأسيا قائم من الخشب يدور حول نفسه .

وهناك دائرة أصغر من الأولى تتعشق مع أضراس الدائرة الكبيرة (وهنا العبقرية عند تصور الإنسان البدائى) بشكل دقيق يجعلها لا تسير فى عكس الاتجاه . والعلاقة الهندسية بين الدائرتين الصغرى والكبرى تبهر النوبى القديم لا سيما أن الأرض النوبية مرتفعة جدًا عن النهر مما يحتاج إلى متانة صنع الساقية أكثر من سواق الوجه البحرى كما نجد فى حكاية فاطمة بنت النجار أسماء القرى وأنواع المزروعات المختلفة وأساليب الحياة وطريقة الزواج وغير ذلك من أنواع الثياب والحلى والرقصات .

الظروف الاجتماعية فى الحكاية الخرافية :

وأبرز ما فى الحكاية المذكورة الهجرة فالرجل يهجر زوجته سنين طويلة حتى يكبر أولادها .

والحكايات الخرافية فى النوبة تصور دور المرأة ورأى المجتمع فيها واستعداداتها وحرياتها والقيود التى تقف فى سبيل انطلاقها (فالفتاة لابن عمها كما فى البيئات العربية مجنون ليلى) ونجد ذلك بوضوح فى حكاية الأسد والفتى العاشق ، فاطمة بنت النجار ؛ والرجل على حق دائما فكل الأعمال السيئة التى قام بها الزوج « جاسر » ليست شائنة له بل إن كل انتصارات فاطمة قدمت إليه ليوافق عليها ويقبلها .

والمرأة فى الحكاية الخرافية النوبية سيئة بطبيعتها ، ويزداد سوؤها

مع الشيخوخة ، فإذا هى تدبر المكائد والفتن وتخدع الصغيرات . . بل إن العجائز فى الحكايات عادة خادعات إلا أن خداعهن يكون أحيانا مفيدًا وأحياناً أخرى ضارًا

والمرأة فى الحكاية الخرافية النوبية إنسانة ضعيفة الجسم ضعيفة الرأى ضعيفة الارادة . . . وقلما نجد فتاة مفكرة جيدة التدبير مثل فاطمة بنت النجار وما نسب إليها الذكاء إلا بقدر نسبتها إلى أبيها النجار ، أذكى عبقرية فى الريف . ومع ذلك فقد نجحت العجوز فى خداعها وإن كان نجاحا لم يكمل . . والمرأة العجوز لعجزها تحمل العار فى صمتها وفى دفاعها .. وهذا واضح فى حكاية الأصبع وفاطمة بنت النجار ، فلو أن فاطمة صرخت مستنجدة وهى فى بيت عمها لَلَحِقَ بها العار ، ولو أنها سكتت واستسلمت لَلَحِقَهَا العار كذلك .

وحيازة المرأة من سمات الحكايات الخرافية النوبية فالمرأة ليست شريكة ، ولكنها خَلْفِيَّةٌ جيدة ، بل هى تسعى طول الحكاية لتنال شرف أن تكون فى حوزته .

وهكذا لا تكتفى الحكاية النوبية بتصوير البيئة والمناخ والأدوات والآلات والمساكن والنبات بل تغوص فى أعماق الوجدان النوبى فتصور رأيه ومعتقدهُ ، وقد وضَّحْتُ رأيه فى المرأة وتصوره لها .

والحكاية الخرافية تلجأُ للإطلاقات ففاطمة بنت النجار جمالها مطلَقٌ والعناصر الشريرة شرورها مطلقة ، ومجتمعُ الحكاية الخرافية عبودِيٌّ متخلف صعب الحصول على شعلة أو جذوة نار . . والمواصلات صعبه حتى أن الرجل يبيت بعيداً عن بيته خلال شهر كامل ليصنع سفينة فى قرية من القرى الأربعين . . كما نجد نظام المقايضة

لا العمله فالشاب جاسر قدم لفاطمة بنت النّجّار فى مقابل ليلة عمل بأن طحن القمح أو عصر بذر الخس .

وأخيراً فالخير ينتصر والحقيقة تظهر فى النهاية ، فالخاتمة السعيدة من سمات الحكاية الخرافية .

وفى الحكاية النوبية نجد بيتَ الغولة الإيركابى – فى أبعد مكان من العالم ، والغولة امرأة كريهة الوجه تعشق أولادها الصغار السبعة كما تعشق أكل اللحمْ البشرى وبين هذين العشيقين يلتقى فى قلب واحد الحنان المطلق بالقسوة المطلقة الرهيبة . والغولة قد خرجت من بيتها لتبحث عن ضحية تاركةً أولادها فى قدارة تامة جائعين والقمل يتمشى مع الحشرات الأخرى على أجسامهم . وهم ، الأطفال ، يسيل العرق منهم لأنهم جالسون تحت لفح الشمس المحرقة . . وباب البيت مغلق ولكنك تفتحه إذا دفعته دفعةً قويةً أى أنه ليس مغلقاً بمفتاح أو مزلاج .

+ الوحدات الهندسية :

هذا الذى ذكرناه يعتبر وحده هندسيةً فى الحكاية النوبية ، وهناك حكايات كثيرة نجد بها هذه الوحدة ، كأنها هى بيت من الشعر البليغ يتمثل به الراوى كلما أعوزه التعبير فى مناسبة من المناسبات .

« ففى إحدى القصص نجد بنتاً طيبة مَاتت أمها وأرسلتها زوجة أبيها القاسية لبيت الغولة لإحضار الغربال ، وهناك وجدت البنْتُ الطَّيبةُ الوَحدةَ السابقة فنقلت الأولاد السبعةَ من الحر للظّل ونظّفتهم واعتنت بهم فلما جاءت الغولةَ توسل إليها أولادها أن تجيب طلب

البنت التى اعتنت بهم وعملت على راحتهم وأعطتها الغولة غربالاً من الذهب . ولما عادت الطفلة إلى زوجة أبيها أرسلت ابنتها الغبية التى نقلت الأولاد من الظل إلى الحر لتفسح لنفسها مكاناً وجاءت الغولة غاضبة وأعطتها غربالاً مثقوبا . . » وفى هذه الحكاية وحدة كاملة مستقلة يمكن الاستغناء عنها وتظل الحكاية كاملة كما رأينا ولكن ذكر تلك الوحدة يزيد فى حيوية الحكاية . . هذه الوحدة تقول : « إن البنت الطيبة خرجت من بيتها فى ثياب ممزقة وقد أعطتها زوجة أبيها كسرات يابسة من الخبز ووعاء مشروخاً به ماء آسن . . وبينما هى فى طريقها إلى الغولة وأولادها السبعة مرت على نخلة ظامئة فسقتها فدعت لها النخلة : « يارب اجعل شعرها فى مثل طول قامتى ولا تجعلها طويلة مثلى » واستجاب الله الدعاء فإذا البنت الطيبة تجرجر شعرها على الأرض . . ومرت الطفلة على حمامة جائعة فأطعمتها فدعت لها الحمامة البيضاء : « اللهم اجعل بشرتها بيضاء مثل ريشى ولا تجعل شعرها أبيض مثل هذا الريش » ومرت بغراب ظامىء فسقته فدعا لها الغراب : اللهم خذ من سواد ريشى وضع فى شعرها ولا تضع فى بشرتها فصار شعرها فاحماً جميلا .

أما البنت الشريرة فقد رفضت أن تطعم أو تسقى من طلب منها الطعام أو الشراب بالرغم من أن أمها كانت قد حملتها أكداساً من الطعام وإناء به ماء معطر . . ودعا الغراب على وجهها أن يصير فاحما . . أما الحمامة فدعت أن يكون شعرها أبيض والنخلة تمنت أن تطول قامة الطفلة فتصير مثل النخلة » .

وهكذا نرى أن اعتماد الحكاية النوبية على الوحدات الهندسية قد

أدى إلى مرونتها وإمكان إلغاء أو إضافة مقاطع جديدة أو التعديل من ترتيب الحكاية حسب تغير البيئات والعصور . . والاستفادة من مقطع فى حكاية بنقله إلى حكاية أخرى على أساس التعبير عن أخلاقيات المجتمع النابعة من الحاجات المادية .

وهناك بداية أخرى تقول إن سيدة كانت تحتفظ بعقد غالى الثمن نادر الوجود وذات يوم جاءت صويحبات ابنتها إلى البيت طالبات من الأم أن تسمح لهن باصطحاب ابنتها وبعد تردد وافقت الأم وأصرت الابنة على التحلى بالعقد النادر ورفضت الأم ولكن الطفلة أكدت لها أنها سوف تحافظ على العقد . . وقالت الأم لابنتها « إذا ضيّعت العقد فالويل لك منى » .

ووقع العقد من الفتاة فى الترعة فوقفت تبكى وطلبت صديقاتها منها أن تعود إلى بيتها ورفضت هى خوفا من أمها . وبينما هى تبكى مرّ عليها الذئب وسألها : لماذا تبكين؟ قالت : لخوفى منك . . قال : لا تخافى منى خافى ممن يأتى بعدى . . وانصرف ومرت الوحوش وكل منها قال : لا تخافى منى خافى ممن يأتى بعدى . ثم جاء الأسد وظل واقفاً معها وكذلك جاءت الغولة وظلت واقفة .

وقال الأسد للغولة أنا أحق بالفتاة منك فقد رأيتها قبلك وقالت الغولة : أنا أحق بها منك فهى مثل أولادى السبعة وتراهنا على شرب ماء الترعة حتى تجف ويظهر العقد . وبدءا فى الشرب « وطقّ » الأسد ومات واستمرت الغولة تشرب حتى تمكنت البنت من التقاط العقد . . وهنا أخذتها الغولة إلى بيتها حيث وجدت الأبناء السبعة كما فى المقطع المذكور .

وبداية أخرى أن الفتاة كانت تحب أخاها التوأم حبا أخوياً بريئاً ولكنه أراد أن يتزوجها ففرت من البيت وظلت تجرى إلى أن وصلت لبيت الغولة . .

وفى حكاية أخرى نجد فى بيت الغولة ذات الأبناء السبعة أسرة مكونة من ستة أطفال وأختهم وقد اعتقلتهم الغولة فى بيتها . وقد نام الستة وظلت الطفلة ساهرة فقالت لها الغولة نامى أيتها الصغيرة لتأكلهم فى هدوء بعد أن يناموا وكانت تسن السكين وقالت لها الطفلة إذا أردت لى أن أنام فاصنعى معى مثلما كانت أمى تفعل . وسألتها الغولة : وماذا كانت أمك تفعل ؟ قالت : كانت تملأ لى الماء من النهر بالغربال فأشرب وأنام .

وحملت الغولة الغربال وذهبت إلى النهر وملأته وفى طريق عودتها وجدت الماء قد جف فعادت إلى النهر لتكرر التجربة الفاشلة عشرات المرات . . وأثناء ذلك كانت البنت قد أيقظت إخوتها وهربت من بيت الغولة بعد أن وضعت أبناء الغولة مكانها ومكان أخوتها وجاءت الغولة وذبحت أولادها وهى تظن أنهم الطفلة وإخوتها .

وأخيرا فمن الوحدات الجيدة التى تكمل حكاية الغولة مع أبنائها أن طفلة أسيرة عندهم فشلت فى الهرب وكانت تحسن إلى الجميع ومرت عليها عجوز تعودت أن تتقبل صدقاتها وأهدتها جلدها المتغضن العجوز فارتدت الصبية هذا الجلد فصارت عجوزاً واستطاعت بذلك أن تهرب من بيت الغولة .

هذه الوحدات الهندسية قد حمت الحكاية النوبية غير المدونة بطبيعتها فى شفاه الرواة كما حفظت القافية الشعر العربى فى عصور

ما قبل التدوين وإذا كانت الحكاية النوبية تعتمد على الحلقات الفقرية على أساس ارتباط. كل فقرة بالوحدة الفقرية السابقة فإن أساس التقسيم إلى مقاطع هندسية محكمة يقوم على الإجابة الشافية المقنعة للأسئلة المتتالية التى تبعثها الحكاية فى مراحل سردها . فكل مقطع تبرير للمقطع السابق أو استنتاج منه أو تاكيد لقيمه أو تأزيم لموقفه أو حل لعقدته .

عناصر البيئة :

والنهر من عناصر البيئة لذلك نجده بسفنه وتماسيحه وسواقيه والمستحمات به ومزروعاته فى الحكاية النوبية . وقد وضعت امرأة دبابة فى وعاء كبير . وأعلنت أن الذى يعرف ما بداخل الوعاء سوف تكون جائزته الزواج من ابنتها أجمل فتيات القرية . والخطأ الذى وقعت فيه هذه المرأة هو أنها همست بالسر لصديقة لها أثناء الاستحمام بالنهر . وكان التمساح ينصت إليها وهكذا عرف السر الخطير . وفى اليوم التالى تنكر التمساح فى زى شيخ وقور وتزوج بالفتاة بعد أن أعلن أنه يعرف ما بالوعاء

وإذا كانت هذه الحكاية تعلم الحفاظ على الأسرار الخاصة وعدم الإفشاء بها فهى مثل كل الحكايات الشعبية لا تتوجه بالحديث إلى الطفل وحده على قواعد تربوية أو أخلاقية ولكنها تحدث المواطن فى جميع مراحل عمره فلا تتحرج من مسائل الجنس ولا تتهيب مواقف التخويف مما نرفضه فى قواعد اختيار حكايات الأطفال فى أيامنا . . كذلك نلتقى بالمطلق الذى لا نصادفه فى الحياة . . ففاطمة بنت

النجار هى الجمال المطلق والتمساح هو القبح المطلق وأم الملك فى حكاية ذات الضفائر هى القسوة المطلقة .

والحكاية لا تحرم القواعد المنطقية التى نستمدّها من علاقاتنا بالواقع المحيط بنا كالجاذبيّة الأرضية والتمدد بالحرارة والغليان عند الحرارة الشديدة والتنفس فى جو من الهواء لا الماء بل تخلق لها قواعدها المنطقية الخاصة بها .. إنها خروج من منطق الجاذبية الأرضية إلى ظروف أخرى يتهيأ لها المسافرون بالصواريخ : فما دام هدفنا أن نتبع فاطمة بنت النجار زوجها فيجب أن يكون لها فى كل شواطىء مقابل للشاطىء الذى يرسو به الفتى شاطىء مناسب لها لتراقبه وتنتظر مقدم رسوله أو مقدمه . وإذا تغيرت حالتها وانتفخت بطنها فهى تختفى من عالمه تماماً . . ولا تهتم الحكاية بأن تذكر لنا أنها تركت من عبيدها مَن براقبه ويراسلها إلى أن تلد وتترك طفلها وتعود .

ولكن هذه العلاقات غير المنطقية تتكامل على أساس منطقى تفرضه القصة لا ما ألف الناس فلا يجب أن تسأل : لماذا أقام الفتى بعصر الزيت ولم يقم عبده أو عبيده بذلك ؟

ما دمت تفهم هدف الفتاة من طلبها منه أن يعصر الزيت . . ولا لماذا لم يعتد العبد على عرضها وهى وحدها بين يديه فى مكان منعزل قصىّ ؟ ولا لماذا أخذت فاطمة الفأس بين ثيابها ؟ ولماذا كانت أوزة تنتظر بالصدفة فى الحمّام . ولبعض الأرقام دلالات لا تقف عند حد العد والإحصاء بل تتعدّاها إلى آثار بعيدة كل البعد عن تلك الدلالات المباشرة . . فقد كان للرقم « ٣ » حظ عظيم فى حياة الناس منذ بدء الحضارة . فقد عرف قدماء المصريين ثالوث « إيزيس الزوجة

واوزوريس الزوج وحورس الابن . كما عرفوا موت الزوجه وآمون الزوج وخنسو الابن وقسموا فصول العام إلى ثلاثة لا إلى أربعة كما هو سائد عندنا . وأبسط الأرقام الدالة على الشمول هو الرقم « ٣ » لأن أى علاقة لابد أن تشمل الافضل والأسوأ وما بينهما . والحق أن بين الحدين النهائيين الأفضل والأسود «لايين الحالات التى لا هى إلى الفضل ولا هى إلى السوء كتلك التى بين الأبيض والأسود وبين القمة والسفح ، ومع ذلك فإن الوحدات الثلاث هى ابسط التصورات وأكثرها سذاجة .

والحكاية الشعبية تعرف الاخوة الثلاثة والأخوات الثلاث والأيام الثلاثة التى يمنحها الملك مهلة للشخص ليحقق أهدافه وإلاعلقه على أعواد المشانق . كما تعرف علاقات ثلاثية اخرى كثيرة ولا يتفوق على هذا الرقم فى مجال الحكايات الشعبية إلا رقم ٧ – وهذه حكاية نوبية يلعب فيه الرقم ٣ دوراً هاماً ومتكرراً . .

وإدا كانت الجارية الشريرة قد وقفت عائقا رهيبا بين لقاء حبيبين وبدات بالحرق وكانت مستعدة للقتل إذا احتاج الأمر فمن حكايات الزولو ما يقف فيه العائق بين العاشقين مواقف أشد عنفاً وضراوة لا سيما إذا كان العائق من فصيلة الغيلان .

وفى حكاية الاميرة والغولة (ogress) نجد الشرية العرجاء التى تسير فتحدث دوامة رملية فيهرب الناس قبل وصولها وهذا من حسن الحظ . وكانت قبيحة الخلقة ولكن العجيب ان لها ابنه جميلة الخلقة والخلق وكان البعض يقولون إنها ليست ابنتها بل هى خطفتها إلا أن البنت كانت بحزن تعتقد أن هذه أمها .

وكانت الشريرة تحرمها من اللعب مع قريناتها وتحبسها حين تخرج لتصيد والقنص . ومع الزمن أصبحت البنت أجمل فتاة . وجاء أمير باحثاً عن زوجة . وفى يوم قائظ كان ظامئاً فرأى الفتاة تطل من نافذة . وقالت له : لا سبيل للدخول إلا من النافذة وساعدته فى الوصول إليها وقدمت له طعاماً . وحكى لها عن العالم الخارجى الذى لا تعرفه ومر الوقت سريعاً وطلبت منه الخروج لأن أمها قد . تقتله ولكن الأم كانت قد اقتربت فحفرا حفرة فى الأرض اختبأ فيها الفتى وتغطى بالعشب وجلست الفتاة فوق العشب وغطت مكان الفتى حتى لا تراه الأم التى قالت إنى أشم رائحةوليمة .

وهنا قالت لها الفتاة الجميلة : دعينى فأنا أحس بالتعب ونامت بين العشب . ففتشت الأم فى كل مكان بالبيت ما عدا العشب الذى تنام ابنتها فوقه . وفى الصباح خرجت الأم من البيت وخرج الأمير من مكمنه السىء بعد أن قضى ليلة رهيبة وطلب من الفتاة أن تسير معه وقال لها : إن أبى ملك وسوف أصبح بعده ملكا وتصيرين الملكة . ووافقت لأنه عاملها بحنان وابتعدا مسرعين وعند الغروب قالت الفتاة فلنستمر فى السير فعندما ننام قد تصل إلينا وعادت الشريرة إلى البيت فلم تجد ابنتها ووجدت علامات أقدامها وأقدام الفتى فظلت تتبع آثارهما إلى اليوم التالى . ثم رأى الأمير اللوامة وقالت الفتاة هذه أمى مقبلة وصعدا شجرة . وجاءت الشريرة تطلب من ابنتها أن تهبط إليها فلم تجب الفتاة فقالت الشريرة سأقتلكما .

وبالفاس بدأت تقطع الشجرة وعندما انهارت الشجرة قال الأمير للفتاة الباكية : لا تخافى فسوف أدعو وحوش الغابة لتكون فى صفنا

وأرسل صفيراً خاصاً فظهرت كلاب برية من كل صوب ونهشت الشريرة وأغمضت البنت عينيها . وعندما فتحتها لم تجدالكلاب ولا الشريرة وهبطت مع الفتى من الشجرة إلى قصره وعاشا فى أسعد حال .

ويقول المستمع للحكاية النوبية (إينْ) تعبيراً عن انتباهه وقد يقول من وقت لآخر جملة « دَارِيلِّينْ ، أُكُسُّولنْ » أى الموجود الذى سمعناه .

وفى حكاية الساقية المسحورة نجد فتاة جميلة صغيرة عزلاء تناضل من أجل الوصول إلى فتاها وتحقيق حلمها المنشود ، ومثل هذا النوع من التضحيات من أجل غاية معينة تساعدها الأقدار فى النهاية للوصول إليها بعد أن تمتحن صبرها وإيمانها مشهور فى الحكايات الخرافية وهاتان حكايتان إفريقيتان الأولى الطائر الساحر من حكايات الزولو والثانية الأطفال المأسورون

* * *

وقد وضع النوبى فى الحكايات الشعبية والخرافية رأيه فى الحياة وعلاقته بالآخرين وأخلاقياته وقيمه ومثله العليا ، ولخص فيها تجارب الدهور .

وفى بلاد النوبة كائنات أسطورية تحيا فى وجدانهم مثل (تُروُ) وهو حيوان وهمي شبيه بالكنغر ، والمَارَافيلْ (وربما كانوا يقصدون الدارفيل) وهو حيوان ليس له شكل محدد و (هُورِيْنْ بُتِىّ جرِيْن سَاوْجُو) وهو إنسان أسطورى متوسط يحمل المخطوف فى كيس بظهره . ولكن أشهر الكائنات الأسطورية فى النوبة هى :

١ – امن دجراوسٍ دُجْرْ .

٢ – أَمَنْ نتُّو .

وسيأتى ذكرهما فى مكانيهمامن البحث . وفى الحكايات الشعبية نجد أمثلة عن كائنات بشرية ذات أظلاف يحبون الرقص ويعشقون الطرب ، أو ثيران بليدة تجر قرونها على الأرض وتسد الطريق على العابرين .

وقد لجأ الانسان للقوى الأسطورية نتيجة لحاجة من حاجات حياته لينتصر على عجزه ويأسه وليستعيد الثقة حين فقد كل سبيل آخر أمامه ولأوضح ذلك أقدم أربع حكايات نوبية تتطور من المنطق إلى اللامنطق ويجمع بينها الرقم (٧) سبعة .

فالحياة فى بلاد النوبة بسيطة محددة الأدوات والأرض تحتوى على حوالى ٩٠ ٪ من الرمل وقد تصلُ نسبة الطين إلى ٢٠ ٪ فى الأرض الرملية الصفراء فالحاصلات هى الترمس (أَجُونْدينَا) والقمح (إلىٌّ) والذرة (مَارى) والسمسم (فُتُّو) والحنا (كُفُّرى) والشمام (دِبُورين) والقثاء والخيار (مَجّاد) والبازلاء (أَرىٌّ) والبامية (وبىٌّ) وبعض المزروعات والنباتات الجبلية التى تنمو بلا كون بشرى (شيطانى) وهم يعرفون تفاصيل كل ما تخرج الأرض ويستعملونه فى العلاجات المختلفة .

• • •

ويلاحظ الدارس للحكاية النوبية كثرة ورود الرقم ٧ والملاحظ أن السبعة من الاخوة إذا كانوا فى حكاية فإنهم فى العادة يظهرون جملة ويخفون جملة بلا تفاصيل فأنت لن تعرف سمات كل واحد من السبعة

بل إن المجموعة تنال العقوبة الجسدية والآلام النفسية ما ليس نتيجة مباشرة لأعمالهم بل عقوبة لأحدهم وإذا تحرك أحدهم أو سافر أو غامر فهو يفعل ذلك من أجل السبعة .

وقد يكون الرقم ٧ تعويذة أو طاقة سحرية مثل طاقية الإخفاء أو البساط السحرى ففى قصة الصياد وعصفورة الكاروانى نجد أن الصياد المسكين حين حاصرته الهموم والآلام أرسل الله إليه الرقم ٧ فدية وضحية ممثلا فى العمالقة السبعة كما أرسل الكبش للذبيح إسماعيل لينقذه من القتل تصديقا للرؤيا .

والعامة تصور مرونة جسم القطة بحيث لا تصاب بمكروه إذا سقطت من مكان مرتفع بأن لها سبعة أرواح .

وكلمة (كولودا) فى النوبة بمعنى سبعة تشتق منها الفاظ لا صلة بينها وبين الرقم ٧ ولكنها تعطى تفسيرًا للآثار الوجدانية لهذا الرقم فى التراث الفكرى الشعبى هناك فكلمة (كُوليدْ) معناها ما يملكه الإنسان وحده و (كُولِّدْ) بتشديد اللام بمعنى التصق أو التحم أو تآزر أو تشبث وهكذا نجد أن كلمات الدالة على العزة أو الوحدة أو التمسك أو التآزر تشتق من الرقم ٧ وفى اللغة العربية نجد (السَبْع) بتحريك الوسط مشتقاً من هذا الرقم ولا يغيب عنّاما فى السُباع من صفات القوة والضَرَاوة والسيادة والتفرد .

ونلتقى بالرقم ٧ فى الخرافات النوبية وفى الحكايات الشعبية فالأخوة السبعة والأخوات السبع والبلاد السبعة والحجرات والجوارى السبع [1] .

---

(١) لك يوم سبوع الطفل (اليوم السابع بعد مولده) يذهبون إلى النهر ويلقون طعاما يوميا فى سبعة أوعية (٦ للنهر وواحد للفقراء)

و (كُولُوتوُدْ) مشتق من الرق ٧ (كُولُودَا) الساقية الصغيرة شريان الحياة للأرض .

وآيات القرآن فيها من مثل (ثم استوى إلى السّماء فسوّاهُنَّ سبع سموات) و (الله الذى خَلَقَ سَبْعَ سموات ومن الأرض مِثْلَهُنَّ) وكذلك تصوير العمل الصالح بانه (كمثل حبّةٍ أنبتت سبع سنابل) (ولقد آتيناك سبعاً من الْمَثَانى) (ولها سبعةُ أبواب) (ويقولون سبعةٌ وثامِنُهُمْ كلبُهم) (والبحر يَمُدُّهُ من بَعْدِهِ سبعَة أبحر) و (سَخَّرَهَا عليهم سبع لَيَال) .

وأخيراً قصة سيدنا يوسف الذى أكرمه الحاكم ووثق به فإذا جمال النبي يوقظ مكامن الشيطان في قلب زوجة الحاكم فتطارده بعواطفها وهو يصم عنها أذنيه وقلبه

حتى إذا ما يئست منه لجأت إلى الانتقام فإذا حبّ فرعون وعطفه وثقته يتحول إلى دمار وسجن ثم يأذن الله فيصل إلى كرسيّ الوزارة بعد تفسير حلم السبع بقرات بمعنى سبع سنوات وعَجائب الدنيا السبع : هى أهرام مصر وحدائق سميراميس فى بابل أو أسوار بابل .

والبحار السبعة : المحيط المتجمد الشمالى والجنوبى وشمال وجنوب الباسفيك وشمال وجنوب الاطلنطى والمحيط الهندى . والنجوم السبع مذكورة في المزامير فى التوراة وهناك السبعة ضد طيبة (الاغريقية) فى الأساطير اليونانية وهم سبعة الشهداء الذين سقطوا قتلى وهم يحاربون ضد طيبة بعد سقوط أوديب والنائمون السبعة فى افسوس Ephesus أهل الكهف عن سبعة من شباب المسيحية اختفوا

فى مغارة وناموا سنة ٢٥٠ م وحكاية الحكماء السبعة Seven Wise Marters شبيهة بقصة يوسف الصديق عن امبراطور يونانى أمر أبيه أن يتعلم بعيداً عن القصر الفنون الحرة السبعة بوساطة سبعة من السادة المفكرين وعند رجوعه إلى القصر حاولت زوجه أبية الأمبراطور أن تراوده عن نفسها فأبى فزلفت سبعة اتهامات قاتلة ضده ولزم الفتى الصمت ٧ أيام وظهرت الحقيقة وأعدمت الامبراطورة الشريرة .

وأهم ما فى النوبة نخلة البلح (فينتى) والدوم (آمى) وعيدان القمح التى يصنع منها طبق القش) الخوص (الكاراج) والبروش (أسيد) والليف الأحمر من النخل (أشمَانْ) والحجر الكلسى (القطرون ـ جَدِّى) ومن النهر السمك . وحول هذه الأشياء القليلة وبها يعيش النوبى حياة شاقة ولكنها محتملة ، ولابد من خدمة الأرض الرملية خدمة دائمة بتقليل القشرة بين الرية والأخرى وتصغير مساحة الحوض ، وهذا يجعل العمل بين الأحواض متصلا مع فترات راحة بجانب الملاحظة ، وأثناء ذلك يشرب النوبى الشاى ويترنم به فى أشعاره وأغانيه .

لذلك يسمى النوبى الزراعة (مَارُو) أى التسميد لأنه أهم عناصرها فلابد لمثل هذه الأرض من الاكثار من الأسمدة العضوية والصناعية المحتوية على الكالسيوم لافتقارها إلى الغذاء وعدم قدرتها على الاحتفاظ به .

وإذا كان فى قاموس النوبى القط والكلب والحمار والجمل والبقرة والعنزة والجدى ومن الحيوانات العابرة الحصان ، فإن قاموسه يحفل بالأعداء من الكائنات مثل الذئب والضبع والأسد والفأر والصرصار

والعقرب والثعبان والبرص والدفان (أوسىّ دُونْجى) والتمساح وهكذا نجد أن أصدقاءه فى قاموس كلماته أقل من أعدائه ، وهذا يجعله فى حالة مقاومة دائمة يحصر حياته بعيدا عن الجبل حيث الوحوش وعن النهر حيث التماسيح وعن الأخاديد حيث الزواحف. فإذا كان الأعداء من الهوام والطير حوله يناوشونه ويتحدّون إرادته ، فإن الإنسان أيضاً يُمثلَ عَدُوّاً خطرا فالمجرمون خلف الجبل ، والنهر الطيب الحانى قد يحمل إليهم الجنود الذين ينتزعون الشباب من عائلاتهم للخدمة العسكرية تحت ظروف لا تطاق ، فإذا أفلت أحدهم كان عليه أن يدفع ضرائب باهظة لا تكاد تُبقىَ على محصوله الضئيل ما يكفى إطعام أسرته .

والواقع أن هذه الصورة لخطف الأبناء فى حروب لصالح الترك والعجم صادقة فجدتى لأمى زينب (كُوتُودْ) أو زينب ابنة شبل الأسد ، سبب تسمية أبيها) كوتود (أو شبل الأسد أن الجنود أرسلوا سفينتهم ببلاد النوبة لجمع شباب القرية فدعاهم جدها) جد جدتى) لبيته وأطعمهم حتى ملأ أمعاءهم فاستلقوا يستريحون . وأثناء ذلك فرّ ابنه إلى الجبل ، وحين قام الجنود يبحثون عن الفتى لم يجدوه واعتبر الناس فراره هذا بطولة فسموه ابن الأسد .

للوصول إليهما . . . وهذه حكاية (الغزال الخشبى) تعرض لنا حكاية شاب لا يطلب مستحيلا ، ولكن الخط المستقيم ليس دائماً أقصر المسافات للوصول إلى الغاية فى الحكاية الخرافية .

وحول هذا الواقع الداكن المخِلّى كان من الضرورى أن يبحث النوبى عن قوة تحميه وإرادة غيبية تؤيد إرادته الفانية مثل مصباح

علاء الدين وخاتم سليمان والحصان الطائر وكلمة السر التى تفتح باب الكنز ، نجد فى التراث النوبى علاوة على ما سبق : سكان قاع النهر الذين يسكنون فى مدن كاملة وقصور وشوارع وطواحين ، بل إن النوبى تصور أن لديهم سواقى - وهم فى جوف الماء ! ، فقد تصور قريته تصور كاملا ، ومن سكان أعماق النهر امرأة أعجبت بفنان كنزى يغنى على آلة (الكسر) الوترية ، فمضت ترقص حوله ثم أصبح من أبنائها ومنحته معجزة .

وطالما أن الكائنات انقسمت إلى مادية وروحية ، فقد أصبح كل ما لا نلمسه مرئياً ملموساً وعاشت الحكاية الشعبية تاريخاً للقرية لا مجرد أعمال أدبية شفاهية ، ومن هنا ظهر السحر والأشياخ الفقراء واختلط الدين بالوثنية فأصبحنا نجد الشيخ الذى لا يستفيق من سكره فلا يؤاخذه أحد على الخمر بل يستمر تقديره إلزاميا على الجميع ، حتى الموظف المصرى شَدَّتْه الخيوط - ومع ذلك فلم يستطع السحرة أن يتحدوا فيمثلوا قوة موحدة كهنونية عند النوبيين لكثرة الخلاف بينهم .

وعرف النوبى كائنات مثل شرير الماء ، و (كُو) وهو يسبب القشعريرة لمجرد مروره خلف الجبل لمن لا يراه - وهناك (نبيلْ) الطائر الكبير سريع الحركة مثل الرخ عند العرب - ثم الغولة (إيْركَابِر)

وقد عاشت الخرافة فى بلاد النوبة لأسباب كثيرة منها ١- وجود ناس من مصلحتهم بقاء الخرافة وبالنسبة لهذا السبب فسيقضى على الخرافة حين ينتهى الدافع إلى خلقها ونشرها - فهنا قبيلة تستمد مجدها من علاقة بسكان أعماق النهر ، ثم هناك الساحر الذى تقدم

إليه القرابين منتظمة كالضرائب ، وأهمها ضريبة الرواج حى لا يُربَط العريس أو تنهال الحجارة على الحفل ٢ - ثم هناك العاجزون عن التلاؤم والتجانس مع المجتمع مثل المعتوهين والمجنونين ، وقد جعل المجتمع له منطقا لإيوائهم هو اتصالهم بالقوى الغيبية مثل (كلّو) العارى الذى عاش حياته حتى سن الخمسين أو يزيد بلا عمل .

وطالما أن الإنسان النوبى محاصر بكل هذه القوى فهو محتاج للحيلة للوصول إلى غاياته النبيلة - فلن يكفى شرف المقصد للنجاح بل لابد من الفكر والتصرف والمراوغة ، صحيح إن قوى الغيب مع الحق والعدل ، ولكن الذين فى صف الحق والعدل عليهم أن يعرفوا أنسب الطرق

* * *

رأينا فى حكاية « الغزال الخشبى كيف تحول الصندوق إلى جهاز مكيف الهواء يعيش بداخله الفتى فلا يصاب بمكروه ليدخل القصر ثم ليخرج منه وقد تحققت أمانيه ، ولا يحاول أحد أن يعنف مع الصندوق أو يضعه مقلوباً أو فى غرفة سيئة التهوية ، بل فى حجرة نوم الأميرة هذا الصندوق قد قام بدور الحصان المسحور الذى يطير ويعبر المسافات لتحقيق الغايات . إنه قبرة شيلى التى تغزّل فيها الشاعر الرومانسى الكبير وجعلها تعبيراً عن طبقته البورجوازية فى صراعها من أجل هدفيها الرئيسيين : التخلص من الوسطاء والحرية فى مجتمع مغلق معوّق كثير السدود والحواجز .

إن الفتى الذى يحب المقيمة بالقلعة لابد له من أداة مثل (طاقية الإخفاء) تجعله تمرّ من أمام الحراس فلا يرونه ، ثم يخلع الطاقية أمام

حبيبته فتراه وتتحدث إليه فلا يسمعها غيره ويبثها شوقه فلا يسمع بثه إلا تلك الفتاة الباهرة الحسن — وقد قام الصندوق الذى أكمل على شكل غزال بعمل طاقية الإخفاء فقد أخفى الفتى عن الحراس ثم أخرجه فى الوقت والمكان المناسبين بعد أن نام الحراس ، وبقيت الأميرة مستيقظة لتراه ، وهى لم تصرخ من الذعر لأن — الموقف لا يحتمل إلا أن ترضى وتقتنع به فى خلال منطق الحكاية .

كما نرى العجوز التى تعتمد على ذكائها وحيلتها من جانب ، على سمعتها التى تفتح أمامها الأبواب المغلقة من جانب آخر .

وان بساطة الحياة النوبية جعلت المواطن يلجأ إلى التفاصيل يثرى بها القليل الذى عنده فسمى البلح فى كل مرحلة باسم ، وقسما أنواعاً منها : اجندينا ، جيلادينا ، بركاوى زيتونا ، جاو ، أولين كومبو ، كِديِنْ فِنْتى ، حجازى ، دسى كپ ، ابرتى ، وكذلك جعل لكل جزىء من الساقية اسما ، أما المزرعة بأدواتها وآلاتها وأجزائها فلا تزيد فى قاموس النوبى عن كلمات قليلة لا تتناسب مع حرفة تستغرق حياة كاملة — فحياته لا تخرج عن الفاس (الصوريه) وأداة تسوية الأرض (إيْربْر) وآلة الحصاد أو المنجل (تيريپ) وسلة من الخوص لجمع العشب (شيبيير) وسلة لحمل السماد من الخوص (كونتى) والحوض (فَا) والحقل (جِشيْنتُو) والأرض الفضاء بجانب النخيل (فَانْجُورْ) والترعة (مَارْتى) والساقية (إسْكَالِيهْ) — وهذه البساطة فى الأدوات تعكس فكرًا ساذجاً ضحلاً عند كثير من الناس ، وهى فى نفس الوقت تعكس فكرًا مدرباً ذكياً

عبقرياً يستطيع أن يحقق أهدافه بهذه الأدوات ، فهو مطالب بتحريك كل عضو من جسمه للوصول إلى غاياته .

وحكاية « انتقام أب » تعرض للنموذجين اللذين تنتجها البيئة النوبية : السذاجة والسطحية بغير حدود ، والعمق والذكاء العبقرى .

* * *

وفى حكايات الحيوان تقوم الحيوانات والطيور بأدوار عاقلة وبشرية وتكون هذه الحيوانات شخصيات رئيسية وهى من أقدم أشكال الحكايات الشعبية إن لم تكن أقدمها على الإطلاق .

كما أن الصداقات غير المتكافئة بين البقرة والذئب تذكرنا بحكاية أفريقية من حكايات قبائل الزولا عن شبل أسد وعجل . كانت اللبؤة والدة الأول صديقة للبقرة والدة الثانى . وأثناء لعب الصغيرين وقع الشبل فى البئر ومات فخافت البقرة وأخذت ابنها العجل وظلا يجريان ، فقابلا زرافة وفيلا وحيوانات كثيرة كانت تقول فى شجاعة إن عندها الحماية فإذا سمعت عواء اللبؤة طردتهما . . إلى أن قالت العصفورة سوف أحميكما وطلبت زهرة عباد الشمس وهو أحمر مثل القلب وكوب لبن من البقرة . . نقرت رأس اللبؤة وهددتها بأنها ستخرج مخها على الأرض . . سكبت اللبن وبه الزهرة الحمراء على رأس اللبؤة فسال على عينيها سائل أحمر فظنته دماً ورأت القلب على الأرض فظنته قلبها فهربت . وهكذا أنقذت العصفورة أصدقاءها .

---

(١) الفولكلور ما هو . . لستاذ فوزى العنتيل

والحيلة أداة قد تكون فى يد إنسان فاضل فيسخرها للخير : وقد تكون غير محددة مثل موقف العجوز فى خلق السبل لدخول العاشق إلى القصر بداخل الغزال الخشبي - ثم تترك الموقف يكيفه الفلاح كما يشاء ، فهو إما أن يكتفى بالحديث والأمل وعناق محبوبة بنت السلطان أو يعتدى عليها وقد نام الحراس - ولكن الحلية قد تكون بهدف شيء رهيب كما فى حكاية الحمامتين .

* * *

وإذا كنا قد رأينا فى حكاية الحمامتين السحر يقف موقفاً مساعداً والحكاية تحاول أن تكون ملتصقة بمنطق الحياة مع جهل التشريح وتصور إمكان أن تعيش حمامتان فى بطن فتاة . فإن حكاية نمو الحيوانات والنباتات فى الأحشاء ناتج من رؤيتهم للديدان ولاسيما الكبيرة منها وهى تخرج بعد براز بعضهم فيتأكدون من إمكان الحياة ، هذا عدا أن الولادة نفسها وخروج طفل حى من هذه الأحشاء المظلمة تؤكد لهم إمكان حياة غير الجنين وقد سمعت من جدتى زينب كوتود هذه الحكاية .

كان فى القرية رجل قوى مهاب ، وحاول أعداؤه التخلص منه بالسم ، فسقوه كمية كبيرة منه فلم يصب بسوء ، وتكررت محاولاتهم وهو لايتأثر ، وبعد عمر طويل مات - فشرح الأطباء جثته فوجدوا أنه من كثر أكله الليمون بقشرة حينا وببذره حينا آخر ومعصوراً ومبشوراً نمت فى بطنه شجيرة ليمون !

وفى حكاية الغزال الخشبى رأينا علاقات مادية تسير مع منطق واقعنا الحى ، وفى انتقام الاب تعقدت العلاقات قليلا فأصبحت

القَدَرية ذات دور أكبر ولكن فى حدود منطق الحياة وفى حكاية الحمامتين اختل منطق الحياة ليلعب القدر دوراً كبيراً وإن كان جانبياً ، وأخيراً تأتى الخطوة التى تلعب فيها القوى الغيبية دوراً كاملاً وأساسياً فى الحكاية ، كما تتحرك القوى البشرية تحركا كاملا ، فنحصل على شىء شبيه فى عصرنا بالمسرح الذى تشترك فيه «الدُّمى » مع العنصر البشرى فى مسرحية واحدة .

وبالرغم من اشتراك القوى البشرية والغيبية فى عمل واحد ، فسنجد أسلوبين متباينين بينهما — بل سنجد قوى الغيب نوعين : منظورة مسخرة لمن يملكها بلا عقل ولا موقف فهى تخدم الإنسان الطيب كما تخدم الإنسان الشرير إذا ملكها أى منهما .

أما القوة غير المنظورة فهى تقف دائماً مع الإنسان الطيب وترسل الأعوان وتهىء له سبل النصر . . . كما فى حبة الرمل المسحورة :

ومن هنا نرى ان الحياة البسيطة الشاقة ، وأن الأعداء المحيطين من كل جانب بالنوبى داخل بلاده وخارجها ، لهم أعظم الأثر فى تصورات النوبيين ، فمن خارج البلاد كان يأتى الجنود العثمانيون لانتزاع الأبناء النوبيين إلى حرب لا ناقه لهم فيها ولاجمل .

فإذا كانت هذه الظروف هى التى خلقت الكائنات الأسطورية ، فإن أصحاب المصالح القبلية والمادية قد ساعدوا على تلوين الصورة ورسم تفاصيلها .

وقد لجأ النوبىّ فى تصوره للقوى الغيبية المساعدة إلى قوى منظورة مثل حبة الرمل المسحورة ، وهذه تكون فى خدمة مالكها سواء كان

هذا المالك طيبا أو شريرا ، بعكس القوى الغيبية غير المنظورة التى تخدم فقط قوى الخير .

وهذه القوى الغيبية المنظورة تقف مع حيلة البطل وقدرته على التنكر ، وهذه القدرة لصالح من يملكها . . وقد يكون شريرا كما فى (الحمامتان) أو فى يد انسان خيرّ صالح كما فى انتقام الاب ، وقد لا تكون محدودة فى اتجاهها كما فى الاتجاه الواضح فى حكاية الغزال الخشبى ، فلو ان الفلاح كان شريرا لصنع مع الاميرة ما يخجل عنه ابوها .

« المحدود » هو السد الرهيب أمام آمال البشر . ومن هنا لجأ الناس منذ القدم إلى وسيلتين للانتصار على المحدود وعبور المدى : إحدهما هى المحاولة المادية المخلصة الجادة والتجارب المتتالية التى امتصت أعمار الناس على مدى الأجيال ، وكان من نتائجها التليفون كوسيلة لعبور المكان وأجهزة التصوير والتسجيل لتحنيط الزمن وإيقافه عند لحظة معينة . فموعظة الجبل للمسيح عيسى وخطبة الوداع للنبى محمد والموقف الدرامى بين ابراهم النبى وزوجته هاجر وسارة من ناحية ، وبينه وبين ابنه إسماعيل الذبيح من ناحية أخرى ، وغيرها من المواقف الخالدة لم تترك فى وجدان الناس إلا الندم والحزن — اما فى ايامنا فأبسط عمدة إذا خطب فى مجلس قروى فإن كلماته وصوره يمكن أن تبقى لسنوات فى أجهزة التسجيل السمعية والبصرية .

وكانت المحاولة الثانية للانتصار على المحدود وعبور المدى وتخطى النطاق هى الاعتماد على قوى خارقة تستطيع بطبيعتها العبور والانطلاق وطالما أن القوة الخالقة لاحدود لقدرتها فان كل عمل نفعله يحمل

الدلالة على أعمال أخرى فى نفس الاتجاه أروع من هذا العمل . وطالما أن هذه القوة قد خلقت الانسان فهى إذن قادرة على الخلق ، وطالما أن قدرتها بلا حدود فهى تستطيع الخلق أيضا بلاحدود . ومن هنا قام الخيال باصلاح آلة الوجود لتعمل بأفضل طاقة ممكنة .

أنا الآن أسير فى تداع حرّ مع فكر الإنسان البدائى . طالما أن الله هو خالق الرمل والحصى والنجوم وهذه أشياء تستعصى على العد والإحصاء بالرغم من أنها ماثلة للأمس أو الرائى ، فانه فعلا قدم أشياء لاحدود لها فهو خالق الموج والليل والنهار وأنفاس العباد وكل مايطارد سابقه ليحل محله هذا من ناحية الكم .

أما من ناحية النوع أنه خلق قبضتى التى أبطش بها ، فلا شك أنه خلق قبضة أخرى يبطش بها غيرى ضد أعداء له فى بلاد أخرى . وكشكل أكثر تعقيداً هو خالق القبضة التى تبطش بالأعداء فى أزمان لاحقة ، ومن هنا نفسر اللعنة التى تصيب الأبناء والأحفاد ، وبأن قبضة القدر تعبر حدود الزمان لأن قوتها لاحدود لها ، ونفسر أن يأتى الساحر بكيس صغير فيضربه فيتألم إنسان فى بلاد أخرى من قوة الخواتم والتعاويذ .

والنوبى فى هذا المجال يتصور أو يقبل تصورات الاخرين ، فإن الظروف البدائية المشابهة جعلت الخرافة والأسطورة تتجه اتجاهات عالمية (فى محاولة الانتصار على حواجز الزمان والمكان فهو لم يبتكر العلوم الروحانية التى تكشف اللثام عن المجهول ولاالعزائم والطلاسم والاختام ، ولايستطيع غيره أن يزعم أنه ابتكر ، فهذه الأشياء جهد بشرى تداولته الأجيال فى جميع أنحاء العالم ، وأضاف كل شعب إليه

زاداً جديداً من خلال الأسئله الجديدة ، وقد استطاع بعض الاذكياء أن يجمعوا هذه الطقوس الشعبية فى كتب تقدم مرة أخرى للعامة تحت أسماء سحرية مثل : اللؤلؤ والمرجان فى تسخير ملوك الجان ، مفاتيح الكنوز فى حل الطلاسم والرموز (يشتمل على فوائد وأبواب للجلب والتهيج وارسالات الهواتف والمنادل) والبيان فى علم الكوتشينه والفنجان ، والكباريت فى إخراج العفاريت (وهو يشمل على القدرة الإلهية فى المعالجة الروحانية ،ويليه الحكمة الربانية فى المعالجة الجنسية ويليه : كشف اللثام عن جعفر الإمام) .

ولكى أوضح مقصدى من السؤال الجديد أقدم هذا المثل . نفرض أنى قد أضفت لوجدانى وتصورى أداتين رائعتين مسحوريتين لقضاء الحاجات هما : البساط المسحور والسهم النارى والأول نقول له : إذهب بى إلى قرية كفر الحِلّة مركز الدّر مديرية أسوان عند ساقية جاسر فيطير بين السحب وتصوّب السهام النارية إلى بيت عدوك فترديه فوراً ولا يستطيع منك أى سلطة دولية ولا أى قوة على الارض أن تمنعك ولا ان ينتقم منك .

ويمتد أصبع فى أعماقك بسؤال مهذّب : سيدى ، شكراً لك على هديتك ، فلو أن نوبيا خطف حبيبتى وسافر بها إلى قريته النائية ، فطالما أنى أعرف قريته فإننى فى مثل لمح البصر اكون منتظرا هناك ، وبمجرد وصوله أصعقه بالسهم النارى . ولكن ماذا أفعل او لم أكن أعرف مكان قريته ؟ هل ألقى سهامى على العالم كله وأهلكه ؟

. . . يصح أنى سأراه وهو فى طريقه لأن الارض كلها تكشف امامى ، ولكن ماذا افعل ! انه اخفاها فى صندوق ؟

وهذا السؤال المهذب إما أن يُطوّر القوة الخفية ويضيف إليها إمكانية جديدة ، وإما أن يخلق أداة جديدة . أى أن هذا السؤال الذى قدمناه إما أن يطور قوة البساط السحرى فيصبح قادرا على تنفيذ طلبك (إذهب بى إلى عشيقتى حيث كانت) من غير أن تذكر مكانها

ولكن الرواة يشعرون أن هذه القدرة لها جمالها وطرافتها فى القصص المروية ، فهم لذلك يلجأون إلى وسيلة جديدة أعرف بها مكان حبيبتى ، وماذا تفعل أو ماذا يفعلون بها ، وتنتهى مهمة هذه الأداة عند المعرفة ثم يعود العاشق إلى أداتيه السابقتين : بساط الريح والسهم النارى .

وليست هذه أفكار العامة التى ينكرها العلماء فقد التقيت بكثير من العامة لا يقفون عند إنكار هذه الاشياء وحدها بل ينكرون بعض المعجزات التى ظهرت فى صلب الديانات ، أما العلماء التجريبيّون فقد قرأت لبعضهم والتقيت بكثيرين يؤمنون إيمانا مطلقاً بقوى الغيب من أمثال الدكتور غلوش رئيس جماعة منع المسكرات ذى الثقافة الأوربية العالية ، قد حدثنا فى جمعية العشيرة المهدية — من مراكز الصوفية فى مصر — عن تجارب شخصية له مع أشياخه وأعمالهم الخارقة للعادة المألوفة .

وفى أحشاء هذا الواقع الحزين تكونت أدوات كثيرة منها البساط المسحور ، والعصا السحرية ، وطاقية الاخفاء ، ومصباح علاء الدين وخاتم سليمان ، والحصان الطائر ، والكتاب المسحور ، وكلمة السر التى تفتح باب الكنز . وكانت كل هذه الأدوات وغيرها تهدف

إلى غرض واحد لا تحيد عنه هو الخروج من نطاق جاذبية الواقع الحى الذى يكبل بالأغلال ويعوق الخطأ ويسحق ويذل ويهدر .

وطالما أن الواقع الحى لا يمكن مواجهته أو احتماله أو التمرد عليه أو الأمل فى أن يتغير ، فان البشرية بحثت عن منفذ أو منطقة ضعيفة يمكن الهجوم منها على هذا الواقع . واكتشفت البشرية فى مرحلة مبكرة أنّ الواقع الحى تحكمه قوانين .

عرف الإنسان من تجاربه وصراعه أن القوى المضادة الرهيبة لها مدى لا يمكن لها أن تتعداه ولا أن تنطلق خطوة خلفه : الأسد رهيب يستطيع أن ينتصر على قبيلة بأكملها ويبيدها ولكن صبيا فى العاشر من عمره – يجيد السباحة – يستطيع أن ينجو من الأسد بأن يقفز إلى الماء ، الصبى نفسه ينجو من الحوت إذا وصل الشاطىء . والسياط تكوى الجلد ولكنها لا تحطم الجدران الحجرية ، والفؤوس تقطع رؤوس الثعابين الفاتكة فتنجيك من سمومها ، ولكنها نفس الفؤوس – لا تنجيك من الموت اختناقا بدخان الموقد .

كانت أول خطوة من خطوات التمرد على الواقع الصامت الجامد أن يؤكد الإنسان البدائى الطيب فى سذاجة لا حد لها أن العالم ليس عقلا ، من هنا يبرر لنفسه التمرد على قوانينه . إن الواقع يمكن أن يكون مريراً حتى الموت لكنه فى نفس الوقت عادل ليس قاسياً . وهذا وحده يعطى القدرة على احتماله . وربما كان اهم أسباب احتمال الناس لعذابات السجون المنافى والعاهات اعتقادهم بعدالتها وبأنهم يستطيعون تبرير إصابتهم بها ، فهم يقولون : ما نحن فيه نتيجة منطقيةٌ لأشياء محددة نعلمها : فالساق المبتورة نتيجة لعدم مراعاتى

لقواعد المرور . . . والبطل الثورى الموضوع فى السرداب الرطب يعلم جيداً أنه من أعداء القيصر ولكن الحياة لا تسير دائماً بمنطق ولا سيما فى توزيع الطيبات فالإنسان البدائى لم يجد علاقة طردية بين الجهود والنتاج ، بين البذور والثمار ، وعرف الجراد والحمى والطوفان ولم يفهم لها تفسيراً ، فآمن بقوى الغيب كعنصر مكمل لواقعه ، وأداة لحل متناقضات المجتمع .

والحكاية النوبية (الفار بروكى) تواجه جدران الواقع الحى الرهيب ومعوقاته إذ أن الفار الضعيف العاجز الهارب فزعا من أقل الاصوات هو البطل ، وإذا القراصنة الأقوياء يتحولون إلى سخرية يلهوبها السامرون .

وبالرغم أنّ من عناصر حكاية الفأر توحى بأنها نوبية ١٠٠ ٪ فإن طبيعة الحكاية الخرافية وقدرتها على الانتشار على شكل مقاطع أوحودات تجعلنا نجد وحدات كاملة من هذه الحكاية فى أدب أوروبا الشعبية كما فى حكاية (توم الابهام) .

وهذه كائنات اكتسبت معانى رمزية إما للقوة القاتلة التى تجعل الإنسان يفكر فى السيطرة عليها وكبح جماحها كالعقرب وإما أن ترتبط بانتصار لا شان لها به مثل علاقة الديك بطلوع الفجر فالإنسان البدائى يقلب النتيجة إلى سبب فالبومة شؤم لأنها سبب خراب البيوت فى الوقت الذى تسكن فيه البومة الخرائب بعد أن يحدث الدمار فتجد الهدوء بعيدا عن الناس وكذلك الديك يطلع فى الفجر فيصيح وليس صياحه الذى يخرج الفجر ، والثالث إنسان لا عمل له ولا فكر ومع ذلك يحميه المجتمع ومازال يذكره ويترصد أعداءه بالدمار ثم قدمت

عادة إلقاء للذنب أو المشكوك فى ذنبه خلف الجبل فإن كان مظلوما نجّاه الله ، والمشاهرة وسبب قائمة الممنوعات عند النوبيين ثم تحدثت عن سحر الرقم ٧ وقدمت حكايات خرافية من النوبة يلعب فيها الرقم ٧ دوراً سحريا .

١ ـ العقرب

العقرب كائن عنكبي نشط ليلا يكثر بالمناطق الدافئة والحارة ومن هنا يجد فى النوبة مرتعاً له ويبلغ طول بعض أنواعه ٢٠ سم ويتغذى على الحشرات والحيوانات الصغيرة له فى مقدم الجسم كلابتان قويتان وفى المؤخر دبر منتفخ محمول لأعلى وينتهى بمخلب قوى ينفذ منه السم عند الانغراس فى جسم الفريسة .

ولما كان العقرب كائناً مخيفاً ورهيباً فإن الإنسان البدائى لجأ إلى تملقه بالعبادة كما رسم صورته على جدار بيته للسيطرة عليه وكانت الإلهة سلكت من إلهات النوبة تتخذ رأس العقرب رمزاً إلهيا فى التاريخ القديم كما كان هناك ملك قبل عصر الاسرات يتخذ رمزه العقرب .

وفى السماء كوكبه فى البرج الثامن تشبه العقرب إلى حدّ ما وفيها نجم عملاق أحمر هو قلب العقرب . والعقرب من الرموز للقوى الخارقة وله مكانه عند النوبيين فى نقوشهم على الجدران وفى الخواتيم نجد نقش العقرب بطريقة زخرفية وعليه نص : من نظر إلى هذا الرسم كل صباح لم يصبه سوء .

(٣) الديك :

ومن أدق الرموز فى السيطرة على قوى المجهول الديك ، ومن اكثرها انتشارا فى بلاد النوبة على شكل نقوش ورسوم على الجدران وفى الحكايات والأساطير النوبية .

وفى الإنجيل نجد تنبؤ النبى عيسى لأحد حوارييه بأنه سيذكره قبل أن يصبح الديك مرتين . ورمز الفجر للديك نجده فى ألف ليله وليله . ولأبى الفرج الأصفهانى صاحب الأغانى : وكائن نفى التوم من عين فان : بديع الملاحه حلو المعانى بأجفان عينيه ياقوتتان : كأن وميضهما جمرتان [على راسه التاج مستشرفاً : كتاج ابن هرمز فى المهرجان] . وهو من أصل آسيوى وجده ديك بانكيفا الهندى ثم انتقل إلى فارس ومنها لبلاد الاغريق وعن طريق التجارة انتقل إلى صقاية وايطاليا ثم إلى بقية أوربا . أما بالنسبة للشرق فقد انتقل إلى جاوا ثم الصين والفلبين الخ . ولم يظهر الديك فى الآثار المصرية وظهر الفن البابلى فى العصر الفارسى المتأخر . ومن مميزاته أنه يصيح فى الفجر . وفى الحكايات الشعبية نجد الديك بطل الفجر وهو حصار « الفار بروكى » الذى يسرع به إلى الأماكن البعيدة . وفى الليل شياطنيه وعفاريته لذلك نجد الديك فى مركز المعلن عن الفجر ومع صياحه تهرب العفاريت .

وقد أكثر العشاق من لوم الديك لأنه لم يترك الليل لهم بمعانيه ورموزه (مِين اللى اَذَنَكْ تدنْ يَادِيكْ ؟؟ ؟ وانا اللى طولْ عمرى أنَاجِيكْ) . والعرب يقولون إن الديك عندما يشعر بوجود الجن يصدع ويحرك لسانه وهو يمجد الله الخالق عندئذ تهرب الأرواح الشريرة .

وعن أحد ملوك الفرس الأول ترجمة «شيا » طبع لندن ١٨٣٢ ــ أنه قال « لايمكن للعفريت أن يدخل بيتاً به ديك . والديك توتم أو تابو عند البرتان القدماء الذين كانوا رعايا لقيصر . وفى الهند محرم أكل الديك عند بعض الطوائف . وفى الصين كانوا يذبحون الديك ويقسمون على دمه كإجراء قانونى وعند الكلتيين أن الديك يتحد مع إلههم سيوسيلاس ممثل الخير والديك الأبيض كان يضحى به للإله فى شمال الهند . وفى الكتابات الهندوكية المقدسة نجد العلاقة بين الديك والشمس فكان يضحى بالديك لأجل الشمس وإله النار ، ويضحى به للقمر فى يومه الخامس عشر . واليونانيون يضحون بالديك الأبيض القمر وهم يعتبرونه طائراً شمسياً يحضرونه إلى الإلهين هليوس وابولو وعلى ذلك المثال فانوناتاس نقش ديكا على تمثال ادمينوس فى هليوس .

وبعض الهنود الحمر فى سير امادیرا المكسيكى يعتبرون الديك طائراً شمسياً ويقدمون كعكا يتخذ شكل الديك (وكذلك يصنع المصريون الكعك فى عيد الفطر على شكل ديك (وكان ديك الهنود الحمر يصنع من الذرة العويجة ويؤكل فى العيد الذى يقوم مع أول الصيف .

وفى المجتمعات البدائية ترتبط البطولة والعظمة والمقدرة بالذكورة ارتباطاً أكيداً ... والديك فى جماله وزهوه وعلو صوته وسيطرته على عشرات الزوجات ونشاطه أروع مثل للذكورة وبالتالى للقدرة التى لاحدود لها وهو فى نفس الوقت من الضعف والهوان بحيث يمكن للطفل أن يحمله وللمرأة أن تذبحه ! . وهو بهاتين الصفتين المتناقضتين : شبيه بالعفريت الذى ينقل الجبل ويسجن فى قمقم فى حجم الجرة

الصغيرة وهو الذى لاتحدُّ قوَّته حُدُودٌ ويستطيع مُرِيدٌ هزيل من كثرة الصوم والرياضة أن يسخره كيف يشاء إذا عرف السِّر .

وقد أدى انطباق صفات الديك بين الضعف والقوة إلى قولهم « إذا اكتحلت بعينه وقرأت بعض الأدعية رأيت الجن رأى العيان »

والتماثل بين الديك ورمز الذكورة وهو صاحب عشرات الزوجات مادفع للقول « إذا كتبت كتابات معيّنة بدم ديك أبيض ليس فيه إشارة فى كفك اليسرى ومسست من شئت من الرجال أو النساء ، أتاك طائعاً ولو كان مقيداً بالحديد فى حصن من حديد .

ويصف السحرة والكهان طرقاً كثيرة لطهى الدّجاج والبيض (أى من مشتقات الديك ونتاجه) يزيد فى الجماع ويقوّى الشهوة ويجعل المرأة لا تحب رجلاً غيره ، بل أن وصفة منها — يُقال — تجعل الرجل يطأ من يشاء من النساء .

وفى أساليب اليوجا عند المسلمين للسيطرة على الجن العاويين والسفليين مراحل يستعمل فيها البيض أيضاً .

وروى عن ابى زيد الأنصارى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنه الديك الأبيض صديقى يحرس بيت صاحبه وسبع دور حولها »

ومن الرموز واضحة الدلالة أن دماغ الديك إذا طُلى به لدغ الهوام أبرأها والاكتحال بدمه ينفع فى بياض العين ، وعُرفه إذا احرق وأذيب فى الماء يشفى من التّبول فى الفرش ، وعظامه تشفى من الحُمى وأجزاء منه تساعد المرأة العاقر على الحمل وتشفى المجنون من جنونه . كما أن روثه يفسد السموم .

وفى كتاب العرائس لابن الجوزى : « اتفق لبعض طلبة العلم أن

سافر وساح فى أرض الله ، فبينما هو فى برية واسعة بين جبال ، إذ اشتدت عليه الظهيرة فأخذه من العطش ما أخذه فصار يلتفتُ يميناً وشمالا أن يرى خُضرة أو طيراً فلم يجد شيئاً من ذلك فإذ هو برجل قد أقبل وسلّم عليه وقال له : لعلك ظمان ؟ فقال بلى ، فأجلسه تحت وهْدة من الجبل وغاب قليلا ثم أتى إليه بخبز ساخن كأنما خرج من تنّوره ، وقَثّا خُضراً رطبة كأنما قطعت لوقتها ولبناً بخيره وماء بارداً فأكل وشرب حتى رُدت روحه وذهب ما به من ألم العطش والجوع والتعب وحمد الله تعالى ثم قاما معاً حتى ظهرت لهم مدينة من بعد ، فقال له صاحبُه قد صار لى عليك حق وذماء وأنا رجل من الجان ولى إليك حاجة . فقال له ، وما هى حاجتك قال إذا أُتيت إلى مكان كذا من هذه المدينة فإنك تجد فيه دجاجاً بينه ديك أبيض فاسأل عن صاحبه واشتره منه واذبحه فهذه حاجتى فقلت : — ذاك الك ممّا الك علينا من حق ، وأنا أيضا أسألك حاجة فقال له ، ما هى ؟ قال له :— ما دواء الشيطان الذى لا تفيد معه العزائم ؟ ، قال يُؤخذ من وتر جلد حمار الوحش فيشد من دهن السداب البرى ويقطر فى أنفه الأيمن أربعا وفى الأيسر ثلاثا فإن السالك يموت بوقته ولا يعود له بعد ذلك ألم . قال فلما دخلت المدينة أتيت إلى ذلك المكان فوجدت الديك لامرأة عجوز فسألتها بيعه فأبت فرغبتها بالدراهم فاشتريته بأضعاف قيمته ، وقد كان الرجل أعطانى دراهم كثيرة ، فلما اشتريته وقبضته ظهر لى الرجل وأشار بذبح الديك فذبحته واختفى الرجل وخرج عند ذلك رجال ونساء كثيرة يضربونى ويقولون :— إنك ساحر ، فقلت لست بساحر . قالوا إنك قد ذبحت الديك فأصيبت شابة عندنا

بجنى وهى بنت رجل عظيم ذى شوكة فى البلد ومتى علم بهذا الأمر قتلك فقلت لهم ائتونى بقطعة من جلد اليحمور فأتونى بها فصنعت منها خواتم وطلبت منهم دهن السدب البرى فأتونى به أيضا ، فدخلت على الفتاة وألبستها الخواتم فعند ذلك صاح الجنى وقال : علمتك على نفسى ، ثم قطرت فى أنفسها اليمنى أربعا وفى الشمال ثلاثا فخرّ ميتاً وعفا الله عن تلك الشابة ولم يعاودها بعد ذلك ألم ! !

وفى حكاية « حبة الرمل المسحورة » النوبية التى قدمها الأستاذ عبد التواب يوسف فى مجلة سمير للأطفال فى مسلسلة مصورة عام ١٩٦٤ ، كما حصل الدكتور عز الدين إسماعيل على النصّ النوبى لها أثناء رحلة دراسية للاداب والفنون الشعبية هناك . والقصة تتحدث عن فتى حصل على ديك فأتى رجل وطلب شراء الديك بجنيه كامل ، ودفع الثمن فى الحال عندئذ أحس الفتى أن فى الأمر سراً فتبعه إلى بيته حيث علم أن بجوف الديك خاتم سليمان الذى يقضى جميع الحاجات .

وفى كتاب منتخب الكلام فى تفسير الأحلام لابن سيرين نجد توضيحاً لمعانى الديك الرمزية والسحرية فيقول :– من رأى فى المنام أنه أمسك ديكا فاحتوى عليه فإنه يحتوى على علو الهمة ، والديك يؤول برجل شجاع .

٣ – كلو

حوالى عام ١٨٨٠ ولد بقرية توشكا وبمجرد ولادته أرسل أبوه ورقة الطلاق لأمه وهو يقوم بالزراعة فى أرضه . ومن غيظ الأم ألقت

له طفله عند ساقيته . واستمر الأب يعمل بلا اهتمام بالطفل ، وبعد أن انتهى من عمله صعَد إلى بيته ولم يرق قلبه للطفل .

وقال الناس للأُم : عودى بابنك فقد تركه أبوه وذهب . وقالوا إن الولد أُصيب بلوثة لأنه ملاك ، وقلب الأُم ليس مثل قلب الأب ، لذلك عادت به أمه . وكبر كُلُّو فرفض لبس الثياب وكان يسير عارياً في الطرقات ويتحدث إلى الجميع ، وكان يعلم ما سيحدث فيقول (هِيلُو فلان بَاوِنَّدُنْ) بمعنى واحسرتا لقد وقع فلان ، ويصل خطاب بأن هذا الشخص قد مات فى القاهرة أو الاسكندرية ! ! . فإذا أعطى حجرًا لامرأة فمعناه أن يصلها خطاب به نقود .

وكان يمسك ذيل الحمار من توشكى إلى أبريم إلى أرمنا ويتبع الركاب من قرية لأُخرى فلا يتعب كما كان يستمتع بصوت الباب وأزيزه من الفتح والإغلاق فيظل يفتح ويغلق الباب فى سعادة فترة طويلة .

وذات يوم كان يقف على الشاطىء وقد وضع يده على كتف امرأة فظنّوا به السوء وجاء الشبان وأحكموا وثاقه وخصوه . وجميع هؤلاء الذين آذوا كُلُّو (قالوا) ماتوا ميتاتٍ رهيبة فمنهم من غرق ومنهم من أهلكته الحُمّى .

ومات الرجل الذى لم يحلق ولم يستحم فى حياته وكانت تكفيه لقمة . والذى فكّرت السلطة فى نفيه فأوثقوه واركبوه القطار فتوقف القطار عن الحركة (قالوا) فلما أنزلوه انطلق القطار .

وكان يقول إن ثوبى من الحرير . ومات سنة تعويضات خزان أسوان سنة ١٩٢٣ .

٤ ـ القاء الانسان خلف الجبل حيا للوحوش

من الملاحظ في الحكايات الشعبية النوبية أن نجد مثلا : والداً ماتت زوجته فتزوج امرأة لترعى الإبنة ، فإذا هذه المرأة تغريه على قتل ابنته بإلقائها خلف الجبل ، وهذا من أثر قصة الخليل إبراهيم عليه السلام فقد طلبت منه زوجته سارة أن يتزوج من هاجر ، فلما حبلت دبت الغيْرة في قلب سارة وطلبت من زوجها أن يلقى بها إلى المهالك فهي لا تطيق رؤيتها ، ولكن الله كان قد وضع في أحشائها نبياً هو إسماعيل الطيّع الوفي الذى قدم رأسه إلى أبيه مستسلما للسكين . وقد وجد الأستاذ شوقى عبد الحكيم دارس الأدب الشعبي في منطقة الفيوم نصاً دراميا شعبيا مجهول المؤلف يحكي قصة سارة وهاجر في رصانة ونضج أشبه بالنصوص الشعرية الأوبرالية (الليبرتو) أى يتضافر الكورس ، والمغنون الانفراديون على إنشاده وتقديمه في شكل غنائي وموسيقى وحوار مسرحي ، هذا نموذج منه :

يضربَ سماعين بكعبوعَ الأراضى ــ انبعت زمزم وصارت في كل وادى قدر ساعة أنبتت عشبةْ حداها ــ شربت هاجر ورويت من دماها العشبة كلت وهى طرية ــ العشبة كلت وهيّه تمنى ــ وتقوللها يامبروكة زمّى ــ سميت زمزم وانزال كل همّى ــ روّحت على البيت وهى مرتضية ــ روحت على البيت تحمد حى قادر . .

٥ ـ المشاهرة

في بلاد النوبة كثير من المحظورات ، مثل خروج المرأة الوالدة من بيتها أو أن يزورها من قتل عقرباً ، فالتى تلد لا تخرج من بيتها لمدة ٤٠ يوماً ، وممنوع أن تزورها إنسانة تلبس حلياً من الذهب (البندق

عيار ٢٤ قيراطا ! . وممنوع أن تزورها امرأة كانت فى عزاء ، وإذا كانت امرأة فى طريقها إلى صديقة لها أنجبت حديثا ثم رأت فى الطريق جنازة فعليها أن تعود فوراً وتكف عن زيارتها ، وإذا كان لابد من الزيارة كأن تكون الزائرة من أهل البيت فإن المرأة الوالدة تخرج من الشقة وتدخل الإنسانة الزائرة أولا .

والمشاهرة لا تتصل بالأهل والزائرين فقط بل إن الشحاذة التى تذهب إلى بيت به ميت وتحصل على صدقة لا يجب عليها أن تذهب لتستجدى إنسانة وَلَدَتْ حديثاً حتى لا ينقطع لبن الأم من أثر المشاهرة .

وفى الحكاية النوبية نجد آباء يحبون بناتهم فلا يراهن أحد حتى ابن العم أقرب الناس إليهن ، أو أن توضع فى حجرة داخلية ، كما أن طقوس الزواج المعقدة ، وصمْت الزوجة مع زوجها حتى «أجينْ بـانّيدْ» كما وضحنا عند ذكر الأعراس . هذه هى الممنوعات الكثيرة هى بقايا الديانة التُّوتمية ويرى العلامة دور كايم أن سبب التحريم يرجع إلى ما يوجبه النظام التَوتمى من تقديس لبعض الكائنات والأشياء التى يتمثل فيها أو يحل فيها شىء من عناصره وفقاً لنظام التابو أى ألا يمس أحد المعبود إلا بعد اتخاذ طقوس خاصة واحتياطات كافية .

وكانت تعتقد أن التُّوتَمْ متجسم (الطوطمية) أشهر الديانات البدائية للدكتور على عبد الواحد وافى ــ اقرأ دار المعارف ــ ١٩٤) فى كل فرد من أفرادها وحال فى عناصره الدموية على الأخص ولذلك كان دم كل فرد من أفرادها معتبراً من أهم الأشياء المقدسة وأعظمها حرمة وأحقها بالإجلال فكان لمسه محظوراً حَظْراً تاماً على جميع أفراد

العشيرة . . ولما كانت المرأة يخرج الدم من بعض أعضائها بنظام دورى فى مواقيت وينبعث فى دمها هذا مظاهر التوتم ، ولما كان قانون اللامساس يقتضىَ الابتعاد عن هذه المظاهر المقدسة وعدم قربان المواطن التى اعتادت أن تخرج منها ، ولما كان الزواج يقتضى الاتصال بالمرأة فى هذه المواطن نفسها لذلك فإن كثيراً من الشعوب البدائية تتخذ حيال البنت التى تظهر عليها علامات الطمث طائفةً من الاحتياطات حتى لا يقربها مخلوق وقد تحبس فى مكان قصى .

٦ ـ تناسخ الأرواح

إن تناسخ الأرواح جزء من حكايات النوبيين الشعبية التى وصلت للتأصل لدرجة المعتقد فالقطط والكلاب الضالة تنجو من الإيذاء لا باعتبار الإيذاء عملاً يتنافى مع الإنسانية ولكن لاحتمال أن يكون القط والكلب قد تجسدته روح إنسان . والتوائم هم أقرب الناس صلة بالتناسخ وربما كان بسبب التصور الثنائى للحياة كنتيجة لثنائية الميلاد .

وهذا التناسخ إلى الحيوانات وكذلك إلى الطير من حمام إلى بط وأوز والشاعر يقول لحبيبته : لا تطردى الحمامة التى ترفرف بجناحيها حولك وأنت تطعمين الدجاج فقد تكون روحى هى التى تحوم حولك يا سمرائى . (دِسيٍّ لِيمُونَا)

والتناسخ يحدث فى الكائن القريب من المكان أثناء تسلل روح الشخص عنه لنومه وقد تجد الروح بعوضة أو ذبابة فتمتطيها . ولما كان بأعماق النهر ناس مثلناهم (أَمَنْ نُتُّو) فإن أرواحهم لن تجد غير الأسماك لتمتطيها وربما كان هذا سبب عدم إقبال النوبيين على أكل السمك .

إن الخرافة والحكاية الشعبية والأسطورة وغيرها من وسائل التعبير ليست للتسلية و الإمتاع فحسب بل هى ذات أهمية حيوية تجعلها فى مستوى النخلة ، التى تظله وتطعمه ، وتهيء له سَمَره وتصنع له أدواته وتساهم في بناء بيته ، وهى بالإضافة إلى كل ذلك ، متفوقة على النخلة تحل من المشكلات مالا تستطيع إلا الدماء أن تحلّها ،

فإذا لم يكن في النوبة حوادث قتل . .

وإذا لم يعرف السلب والنهب ، والاعتداء .

فقد ساهم المعتقد الشعبي في تهيئة وجدانه ، للمعانى النبيلة ... وزرع الأمن فى ربوع النوبة .

وقد بقى الآن أن أختم هذا الفصل بنماذج من الحكايات النوبية باعتبارها بقايا الطقوس العبادية والأساطير القديمة من جانب . . ولأنها تحمل كل خرافات النوبة وأساليبهم الساذجة لتحقيق آمالهم ، ولتصوير أحاسيسهم وآلامهم وسعيهم الدائب نحو عالم أفضل . .

ولما كانت الأعراس والوفاة والميلاد تحمل بقايا الطقوس الأسطورية فقد ختمت هذا الفصل بنماذج من الأغانى والإيقاعات النوبية . . وكذلك النكت والأمثال والفوازير . . ونماذج لفنانين حقيقيين تحولوا إلى حكايات شعبية من خلال تعبيرهم الصادق عن الجماعة . . وأفعال السحرة والمشعوذين

الساقية المسحورة

كان لرجل ثلاث من البنات وقد قرر ألا يزوجهن وأن يرعى شئونهن بنفسه حتى لا يتعبهن أزواجهن وقد لا يعملون على راحتهن . وذهبت الصغرى إلى عرّافة تطلب منها وسيلة تجعلها تحصل على زواج يناسبها ويناسب أختيها . وقالت لها (كُوجُوشْ مُوجِي) العرافة . اذهبي عند الفجر إلى النهر ومعك وعاء (فَالاَ) مملوء بالثريد (مِيلِيدْ) واركبي (جيِّبي) « المعدية » طافية إلى وسط النهر فألقي [1] الثريد وقولي : ووُسَلِيهَاجُو وُمدِيهَجُو أبوُ جَايْ جِذْكِرِي مَجِيَرنْ « أي أيتها الصالحات المروحات : اجعلن أبي يزوجني . وواظبت البنت على هذا العمل وشغلت به ولاحظ أبوها انشغالها فترصد خطواتها وتسلل خلفها إلى النهر ورأى ما صنعته وبعد عودتها ظل مكانه فرأى ملائكة تتحرك حول الثريد كأنما تاكله . . فعاد الأب إلى بيته وهو يقول : لو كانت هذه الصغرى في شوق للزواج بهذه الدرجة فيكون الله في عون الأختين فهما أكبر منها سنا . وقرر تزويج بناته لأول قادم لكلٍ .

وجاء فتى فتزوج الكبرى وجاء آخر فتزوج الوسطى وفرحت كل من البنتين لأن كلا منهما كانت تريد أي زوج . أما الصغرى فإنها وجدت أن الذى تقدّم طالبا الزواج منها ليس على الصورة التى في خيالها ولكنها لم تعارض ولم تمتنع . وحاول زوجها الاقتراب منها ففوجىء بصوت غريب يهمس في قلبه « هذه ليست لك » وقوة تبعده عنها . وخرجت الزوجة الصغيرة من البيت وذهبت إلى سوق الرقيق

---

(١) هذا الاعتقاد النوبي في وجود نبات النهر يعشن في جوف النهر في مدن كاملة ولهذا تقدم لهن الطعام منذ مولد الطفل إلى (السبوع) بالصورة الموضحة في هذه الحكاية .

وطلبت من التاجر أن يبيعها واشترتها سيدة لها ابن مصاب بالصرع . وكان من عادة هذه السيدة أن تأتى إلى السوق فتشترى جارية لترعى ابنها فإذا لم تستطع أن ترعاه قتلتها بعد ثلاثة أيام .

وسارت البنت الصغيرة مع سيدتها ، وفى بيتها وجدت فتى يصرخ ويعوى ويقفز كأنما هو على موقد ملتهب لا ينام ليلهُ ولا يهدأ نهاره . وحاولت البنت تهدئته ولكنّ محاولاتها ذهبت أدراج الرياح . وتسللت بالليل وخرجت تتجول فوجدت ضوءًا سارت نحوه .. فوجدت السّحرة يشعلون نارًا ويقرعون التمائم والتعاويذ فسلمت عليهم ووجدت بين السحرة فتاة جميلة فسلمت عليها وقالت لها الفتاة الجميلة : من أين أتيت أيتها الصبية ؟ فقالت : لقد اشترتنى سيدة وأنا أرعى ابنها ، ثم وصفت البيت . قالت الفتاة الجميلة وكيف حال ابنها ؟ قالت : بخير لقد تركته نائماً فى هدوء . فقالت الفتاة الجميلةَ للسحرة وهى ترفس النار : لقد خدعتمونى وقلتم إن سحركم سيجعل الفتى لا ينام الليل . . وطردتْهم فقد كانت تعشق الفتى وعندما اتجه إلى غيرها جاءت تنتقم منه . وعادت الصبية فوجدت سيدها الذى كان يتلوّى وقد استراح ونام نوماً عميقاً فذهبت إلى سيدتها وأيقظتها وقالت لها : إن ابنك نائم . فلم تصدق السيدة وجاءت معها ورأت ابنها يتنفس تنفساً هادئاً على سريره ففرحت وقالت للصبية : ماذا تطلبين مكافاة لك على صنعك ؟ قالت الصبية : أطلب أن تعيدينى للتاجر حتى أبحث عن نصيبى فإنه ليس هنا . فحملتها سيدتها الهدايا والثياب والحلى وذهبت بها إلى التاجر الذى باعها إلى أسرة حزينَة ولا أحد يتكلم والجميع ينهرونها إذا سألت عن السبب .

وفي الليل بينما الجميع نائمون سمعت صوت أطفال « نريد طعاماً نريد طعاماً » والجارية العجوز تطعمهم . . وتكرر هذا المشهد ثلاثة أيام .

وذهبت الصبية إلى سيدتها تسألها عن سبب حزنها فنهرتها السيدة فقالت لها الصبية : هل ضاع لك طفل ؟ وهنا قالت السيدة وهى تبكى : إنه ليس طفلا بل هم ثلاثة فقالت الصبية : نامى معى هذه الليلة وسوف ترينهم ولكن لا تصرخى ولا تصنعى ما يدل على أنك رأيت شيئاً . وهكذا رأت السيدة أبناءها الثلاثة فقد كانت الجارية العجوز سعلاة تخطف أطفالها واحدًا بعد الآخر وتخفيهم فى المكان المسحور وتسمّنهم لتاكلهم . ورأت الأم أبناءها ثلاثة أيام متتالية وتأكدت من أنهم أبناؤها . فقالت لها الآن وقد تأكدت أنهم أبناؤك لابد من الحيلة للحصول عليهم لأننا لا نعرف كلمة السر لفتح الباب المسحور . والرأى عندى أن أصرخ ويغشى علىّ وتاتون جميعاً إلىّ فتخرج الجارية العجوز وتنسى أن تغلق الباب فتحصلون على الأبناء وتقتلونها . وحدث ذلك وحصلت السيدة على أولادها وعمّت الفرحة في البيت وقالوا لها : ماذا تطلبين جائزة لك : قالت أن تعيدونى للتاجر حتى أبحث عن نصيبى . . ففعلوا. وباعها التاجر للمرة الثانية لأسره عندها ولد مريض بداء فى بطنه وفى الليل رأت الصبية ثعباناً يخرج من فم الصبى ويتجول ويعود وفي اليوم التالى أحضرت بطيخة فتحتها وجوفتها . . وخرج الثعبان ليلا ثم عاد وخرج ثم عاد ثم خرج فاطمأن فاتجه إلى البطيخة وأدخل رأسه ثم جسمه باحثاً عن طعام فخرجت إليه الصبية ووضعت الجزء للنزوع مكانه فسدت باب

البطيخَة ثم حملتها وألقت بها وبما فِي داخلها فى البئر فعاد الصبي سليماً ؟ قالوا لها ماذا تطلبين جائزة لك قالت أن تعيدونى للتاجر فأعطوها الهدايا والمال والثياب والحلى وسلموها للتاجر الذى قال لها : وماذا تطلبين هذه المرة أيضا ؟ قالت : لقد جئت هذه المرة لاشترى جارية لا لأبحث عن مشتريّه لى . فقال لها البائع : ادخلى واختارى فاختارت واحدة ودفعت ثمنها وسارت بها زمناً حتّى تعبت من المسير فجلست معها فِي مكان خرب بجانب ساقية مهجورة وهنا غلبها النعاس فنامت واضعة راسها على فخذ جاريتها ونظرت الجارية إلى الساقية فلم تجدها مكانها فأحست بالذعر لما حدث وقالت فى نفسها هذا مكان مسكون بالجن فلأنج بنفسى ووضعت رأس سيدتها على الأرض ومضت تسير مبتعدة عن المكان حتى وصلت إلى أرض خضراء فسألت لمن هذه الأرض ؟

قالوا : إنه ملك يوسف المسحور . . وسارت فرأت قصرًا وسألت قصر من هذا ؟ قالوا إنه قصر يوسف المسحور . كان قد تحول إلى ساقية . قالت لقد نمت بجانبها ثم استيقظت فلم أجدها . وسمعها صاحب القصر فقام إليها قائلا :

إن عبورك ونومك قد فكا الرصد عنى فعدت لحالتى البشرية . أنا مدين ببشريتى لك فهل تتزوجينى : هل تقبلينى زوجا لك ؟ قالت بسعادة : نعم .

هذا ما كان من أمر الجارية أما الفتاة فقد استيقظت من نومها فلم تجد الجارية ولا الساقية . وسارت فوجدت أرضاً خضراء سألت عن صاحبها فقيل لها إنه يوسف المسحور . . ورأت قصرًا فقالوا لها

إنه قصر يوسف المسحور . . ووقع الاسم على قلبها موقعاً حسناً فهو الذى انتظرته كل هذا الزمان وبيعت المرة بعد الأخرى وتعذبت لتلقاه . ورأتها جاريتها وقد صارت سيدة القصر فأسرعت تلقاها ثم تحبسها في حجرة من حُجرات القصر حتى لا يراها زوجها وقد تكون هى التى فكت الرصد فيتزوجها . وذات يوم قالت السيدة السجينة لجاريتها صاحبة القصر — لقد كنت تتمنين أن تكون لك ثياب مثل التى عندى . . إننى أمنحك خير ثيابى إذا منحتنى ليلة مع يوسف. . وفى جشع وافقت الجارية . فسقت زوجها مخدراً ثم جرته من رجليه إلى حجرة الفتاة السجينة وتركته لها وأسرعت إلى الثياب ترتديها وتتباهى بها .

ووجدت الفتاه في يوسف صورة الفتى الذى كان يملأ أحلامها ويبدو لها منذ كانت تُلقى العجين فِى وسط النهر ، وظلت تنشد له باكية عن تضحياتها وعذابها وانتظارها الطويل .

وهو لا يسمع . . وقبل الفجر جاءت الزوجة فانتزعت يوسف من السجن وأعادته إلى سريره .

وفى اليوم التالى قالت السيدة السجينة لجاريتها . . لقد كنت تتمنين أن تكون لك حلى مثل ما عندى . . خذى أفضلها في مقابل ليلة معه . . ومضت تغنى ليوسف : سِبِّينّمْ أَيْجَاكُوجُو مُجْجِبِى

سُورَا تُودِ نْجُونْ وِلِيسَانْ إرجْبِى
دنُيَا مَلكُونٌ جريدَىْ جَربْ مِى
وَاسُوادِى مِنْجَاكِرْجُوْنْ دُومِّى

ومعناه : لقد تركت أهلي من أجلك وسرت خلف طيفك وتحملت العذاب ومضيت أُغَرْبِل العالم كله ثم ماذا جَنَيْتُ في النهاية ؟

واستمرت تكرر هذا النشيد طول الليل وهو لا يسمع

وكان الطاهي يسمع الغناء الباكي النائح الذى ينساب إلى حجرته في منتصف الليل وكله عذاب فلما كان الصباح ذهب يعد الأطعمة فإذا هو لذهوله وسهره منصتا للغناء الباكي الحزين لا يحسن الطهى وإذا صاحب القصر الذى تعّود منه أشهى الأطعمة يأمر بإحضاره ويحاول أن يعرف السبب ويطلب الطاهي الأمان ثم يقص على سيده ما سمع . . ويسأله : يا سيدى هل تشرب مادة مخدرة قبل نومك ؟ قال : لا ولكن زوجتى تقدم لى كوبا من محلول سكرى قبل النوم . قال الطاهي : إذا قدمته فلا تشرب . . ونفّذ صاحب القصر نصيحة الطاهي فتظاهر بأنه شرب ولكنه لم يشرب .

وفي منتصف الليل جذبته جاريته من رجليه فوجدته ثقيلا فقالت ربما لم يشرب المحلول أو شرب قليلا فلم تؤثر وأحضرت نارا وكوت بها رجله فاحتمل فاطمأنت وألقت به للجارية في حجرتها . . وسمع يوسف بنفسه البكاء الحزين وعرف قصة الفتاة منذ ميلادها وذهابها إلى النهر ودعاءها وصورة واسم يوسف الذى كان يملأ قلبها وبحثها عنه بيعت ثلاث مرات فلما فشلت في الحصول عليه قررت أن تقضى عمرها تبحث عنه فاشترت جارية لتؤنس عليها وحشة الطريق . وضاع كل جهدها في لحظة حين أصبحت جاريتها سيدة القصر .

وقبل الفجر جاءت الجارية وعادت بزوجها وتكرر هذا أياما كثيرة

وهى تكوى مواضع من رجله لتتأكد من أنه لا يحس ثم جذبته من قدميه إلى حجرة السجينه وأعطتها ظهرها لتنصرف فقام سريعاً وأمسك بها وقيدها لها :

لقد عرفت كل شيء وعرفت قسوتك وطمعك وأنت تكوين جسمي يوماً بعد يوم . . ثم رفع سيفه وهوى على رأسها فقطعها وتزوج الفتاة التى تحملت وتعذبت من أجل أن تلقاه .

وهذه الحكاية قدمها لى الشاعر النوبى طه أمين عن جدته المرحومة صفية يعقوب من قبيلة حمدون بقرية أبو حنظل (بجانب خدمات كثيرة فى هذا البحث) .

الصياد وعصفورة الكاوارتى [1]

نَبًا جَارْكِينْ كَاوَارْتِى

عاش أحد صيادى السمك مع زوجته حياة طيبة هنيّة فى ظل القناعة والرضا فهو يخرج إلى النهر بعد شروق الشمس خوفاً على شبكته من شريرى الماء وكثيراً ما كانت زوجته تنصحه الذهاب المبكر إلى النهر لأن الرزق يحِب خفيف الحركة فيقول لها : أنت مازلت صغيرة يا زوجتى . . إن جُبَاة الضرائب لا تطاق على أهل منابع النيل ، لذلك يلجأُ الشيوخ هناك إلى التعاويذ السحرية والخواتم والقراءات الكثيرة التى تجعلهم قادرين على الحياة بجوف الماء وهم يرفعون غطاء النهر وينزلون إلى الماء فلا يصابون بمكروه ويسيرون نحو الشمال فإذا وجدوا شبكة صياد ظنوا بداخلها شيئاً يفيدهم فمزقوا خيوطه ، وأنا لا أملك غير شبكتى ولا أريد لها أن تتمزق .

ولم تكن زوجته تصدق هذا الذى يقوله زوجها فهى ترى جيرانها الصيادين يعودون بصيد وفير بينما زوجها لا يعود إلا بالقليل ولكنها لا تستطيع أن تخالفه فهى تحبه وترى إيمانه وبساطة حياته خيراً طالما هو لا يفكر مثل باقى الصيادين فى الزواج من أخرى .

وزاد الأمر على ما يمكن للزوجة أن تحتمل فهنا قد مضت سبعة

---

(١) هذه حكاية العصفورة التى تخرج الذهب : ولم يقولوا التى تبيض كل يوم بيضة من الذهب .

أيام كاملة لم يحصل فيها الصياد على رزق ولذا قرر أن يكون هذا آخر عهده ، بصيد السمك وشد الشبكة وأخرجها من الماء فإذا هو يفاجأ — في مكان السمك — بطائر جميل عجيب الألوان ! إن خروج طائر من الماء معجزة ولكن المعجزات لا تأتى فرادى لذلك فإن هذا الطائر الجميل كان يخرج قطعا من الذهب .

وحمل الصياد عصفورة الكاوارتى إلى بيته حزيناً وقال لزوجته ماذا نفعل بهذا الطائر الصغير الذى لا يكفى لإطعام طفل ؟

ونظرت زوجته إلى الطائر الجميل في سعادة ودهشة وقالت : إن هذا العصفور لا نظير له في العالم . . . اذهب به إلى الحاكم تحصل على جائزة تسعدنا وتشبعنا . . . . لن يقف أحد في طريقك وانت تطلب مقابلة الحاكم وفي يدك هذا الطائر . . . أسرع .

وذهب الصياد إلى القصر الكبير فطرق أبوابه وخرج إليه الحراس ليطردوه فوجدوا معه عصفورة الكوارتى بألوانها العجيبة ، وسمعوا الصياد يطلب مقابلة الحاكم فتركوه يدخل وسار الصياد في ردهات القصر إلى أن وصل إلى حجرة واسعة بها مقاعد كثيرة ، وفي المواجهة مقعد كبير مزخرف تنسدل حوله ستائر ثمينه حيث يجلس الحاكم ، وقدم الصياد فروض الطاعة والولاء لسيده الحاكم ثم مد يده بالكاوارتى فنظر الحاكم في انبهار إلى الطائر وظل يتأمله ، ولم يلبث أن أخرج قطعة من الذهب على يد الحاكم ، فزاد سروره وتمت فرحته .

ولاطف الحاكم الصياد وتعطف بالحديث معه ثم نظر إلى وزيره في احتقار شديد وقال له : إننى أطعمك أيها الوزير الكسول لوجه الله ، وأنت عندى منذ سنين ولم تستطع أن تقدم إلى هدية مثل هذا

العصفور . . . إن هذا الصيادُ أولى منك بالوزارة وبالقصر الكبير الذى منحته لك .

فارتعش الوزير ، وقبل الأرض عند قدمى الحاكم ووعد بأن يفعل كل ما يستطيع من أجل إسعاد سيده ، ثم أطرى على الصياد وأبدى إعجابه بالهدية ، وهنا أمره الحاكم ان يقدم للصياد كيسا من الذهب فطلب الوزير من الصياد أن يتبعه ، وما أن خرج من الإيوان حتى نظر بحنق إلى الصياد وقال له : هل أنت أولى منى بالوزارة والقصر ؟

فقال الصياد : « يا سيدى إنما أراد الحاكم أن يلاطفنى ويبدى سعادته بالهدية .

وتعجب الصياد من أن الوزير لم يقدم إليه كيسا من الذهب بل طلب منه أن يعود إلى الحاكم ليستفسر منه عن حجم الكيس وكمية الذهب وسار الوزير إلى الحاكم والغيظ يأكل قلبه وقد قرر الانتقام من الصياد على ذنب لم يقترفه ، وما أن وصل إلى مكان سيده حتى ركع ثم مال فقبل قدميه ثم قال في صوت ذليل منكسر « لقد فكرت فى أمرى وأمر هذا الصياد وما رأيتموه من إهمالى وعدم إحضارى مثل هذا العصفور النادر الجميل .

ولكنى يا سيدى اقدم كل ما استطيع وهو قليل ، ولا اخفى جزءا منه كما فعل هذا الصياد . . . إنه أحضر عصفور الكاوارق وأخفى العصفورة عنده لأنها أعذب صوتا وأرق نغماً كما قرأت في الكتب القديمة ، وهو واثق أن هذا الطائر يذبل لبعده عن أليفه وعند ذلك نذهب إليه فنقبل قدميه وندفع له أضعاف ما سندفع اليوم ليحضر العصفورة .

وفكر الحاكم في الأمر فوجده منطقيا ، فغضب غضباً شديداً وصرخ في وزيره (لا تقدم إليه كيس الذهب الآن ، دعه يذهب لإحضار الأنثى) . . . ثم نظر إلى الصياد وقال له : لديك مهلة ثلاثة أيام تحضر فيها العصفورة من نوع عصفورة الكاوارتى ، وإلا فالموت لك .

وخرج الصياد وهو لا يصدق أنه نجا وقد اصفر وجهه ، فوجد زوجته تنتظره خلف القصر فهى لم تطق البقاء بكوخها ، وقد توقعت أن يحمل هدايا لا يمكن حملها وحده فجاءت تساعده ولكن الصياد قص عليها ما حدث وكيف حقد عليه الوزير فاقتنع سيده بأن العصفور لابد له من عصفورة .

وقال الصياد لزوجته : إن الأيام الثلاثة سوف تمر بسرعة ويأتى حراس الحاكم ليقبضوا على حيث أساق إلى حتفى ، والرأى عندى أن أنجو بحياتى فأفر من هذه البلاد . فقالت الزوجة : لقد عودتنى الإيمان التام لله والتسليم التام لله ، وقد مر عليك سبعة أيام لم تعد فيها بصيد ثم أراد الله بك خيراً فساق إليك عصفور الكاوارتى .

وقال الصياد : ليتنى لم أحصل على الكاوارتى فإنه لم يكن خيراً ، وما جاءت المصائب إلا من تحت رأس العصفور . لماذا جعلتنى أعرف طريق القصر ، وقد ورثت عن أجدادى خوفاً منه ومن ساكنيه ؟ إنه لا يأتى منه خَيْرٌ أبداً بل إن الخير عندهم أقسى من الشر .

فقالت الزوجة : لا تفقد إيمانك فهو أعظم ما لديك ، واذهب إلى نفس المكان الذى حصلت فيه على العصفور وادع الله بقلب نقى أن ينقذك . . .

واقتنع الصياد فحمل شبكته وذهب إلى النهر وألقى بالشبكة وانتظر ، وكانت المفاجأة السارة حين شدّ الشبكة فخرجت إليه عصفورة الكاوارتى ، أجمل عشرات المرات من العصفور ، فأسرع إلى الكوخ وأراها لزوجته ففرحت فرحاً غامرا ودعت له بالسلامة — وسار الصياد إلى القصر فطرق أبوابه ففتح الحراس فما أن وجدوا الصياد يدخل بخطوات ثابتة قوية حتى تهامسوا فى دهشة وعجب ، فقد أفهم الوزير الجميع أن الصيّاد لن يحضر العصفورة التى صورها بخياله وهو يعلم أنه لا أساس لها في الواقع .

ومضى الصياد إلى الحاكم فقدم إليه عصفورة الكاوارتى ، فكاد الحاكم يفقد اتزانه من فرط الدهشة والسرور ، وأتى بالطائرين ووضع كلا منهما على إحدى يديه فسمع تغريدهما ، وصرخ فى وزيره : أرأيت ما فعل صياد صغير فى دولتى ؟

وقال : انت الوزير الذى يحصل منا على أموال لا حصر لها ، ماذا قدمت لتستحق منصب الوزارة ؟ ! ! أسرع أيها الوزير الكسول واعط لهذا المواطن المخلص لحاكمه سبعة أكياس من الذهب . وقال الوزير للصياد ، هيا معى لأُعطيك هدية الملك . فلم يتحرك الصياد من مجلسه فهو يعلم أن ماحدث في المرة السابقة سوف يتكرر ، وسوف يعود به الوزير من غير أن يعطيه شيئا . . . وعاد الوزير يطلب منه أن ينهض معه فإذا الحاكم ينهر وزيره ويأمره بالذهاب وإحضار سبعة أكياس مملوءة بالذهب إلى حضرته ، فلم يجد الوزير بُداً من الذهاب ، وعاد وهو يحمل أكياس الذهب .

وكانت زوجة الصياد تنتظر فى نفس المكان الذى انتظرت فيه

فى المرة السابقة وقد ساورها القلق على زوجها بعد ما حدث له من مؤامرات الوزير ، وكم سعدت حين وجدته مقبلا وقد حمل سبعة أكياس من الذهب، وسارا إلى كوخهما ضاحكين فصلّيا شكرا لله ، وذبحا على الباب بقرة وزعا لحمها كله على الفقراء . ثم قررا أن يناما مبكرين حتى يستيقظا مبكرين لتقديم العون للفقراء والمساكين .

وبينما هما مستغرقان فى نوم تتخلله الأحلام السعيدة، سمعا طرقا عنيفا بالباب فأسرعا يفتحان فإذا جنود الحاكم يقفون بقاماتهم المديدة الفارعة ويطلبون من الزوج الصياد أن يسير معهم إلى بيت الحاكم ، وكانت الصرامة التى على وجوههم تؤكد للزوجة أن شرًا ينتظر زوجها ثم سقطت منهارة بينما الجنود يسوقون زوجها إلى بيت الحاكم . وهناك وجد الصياد الوزير ينظر إليه في شماته والجنود يسوقونه إلى إيوان الحاكم .

وما أن مثل الصياد أمام الحاكم حتى ركع أمامه وقبل الأرض عند قدميه معلناله ولاءه وإخلاصه والحق أن الصياد لم يكن يتظاهر بالحب أو بالولاء بل كان مخلصا إخلاصا حقيقيا وكان واثقا من أن نظام الكون يحتاج لإنسان في القمة يرعى شئون العباد ، وأن الإنسان ليس شذوذًا فريدًا في ذلك بل هو نمط متكرر لإرادة علوية قدرية واحدة فالغابة بها حيوانات مختلفة الأحجام والميول وفي السهول والجبال حيوانات أخرى وفى الصحارى مع كل قطرة ماء حيوان يدب في الأرض وسيد الحيوانات الأسد . . . . وفي الجو طيور لا حصر لها سيدها جميعا واحد هو النسر ، وفي البحار الحوت ، وفي المعادن الذهب ، وهكذا وهكذا . . . .

والصياد قد سمع من علماء عصره أن ملكا كان اسمه « جِرْجُورْ » وكان ملكا جائرًا ظالما ، خرج ليرى أحوال رعيته سرا وقد تنكر في ثياب أحد التجار ، فما وجد إنسانا إلا وهو يلعنه فعاد إلى قصره وأحصى ماله وولى إنسانا يحبه الناس وهرب من البلاد . . . ونام الحاكم الجديد على سرير « جِرْجُورْ » وفي منتصف الليل سمع هاتفا ينادى « لأَبُدّ لِجِرْجُورْ أَنْ يَجُورْ » وهكذا كان ظلم الحاكم لرعيته قَدَرًا مكتوباً على الحاكم وعلى المحكوم — ويعلم الصياد باقى القصة ، وكيف بحث الناس عن حاكمهم في كل مكان وأتوا به ليجور في حكمه بينهم . . . . (التى حكت لى حكاية جرجور لا تعرف كلمة باللغة العربية .ومع ذلك فكانت تردد النص « جُورْيَا جِورْ باللغة العربية) .

وقف الصياد أمام الحاكم الذى قال له : لقد شرح لى وزيرى موضوعا وجدته وجيها مقبولا ومقنعا جدًا . . . . لقد سبق لك أن خدعتنى فزعمت أن لديك طائرًا واحدًا فلما ضيقت عليك الخناق أتيت بعصفورة الكاوارتى . . . . وهكذا حصلنا منك على طائرين نادرين . . . . ووزيرى قال لى : إن هذين العصفورين لابد لهما من قفص نادر لا مثيل له ، وأنت لا شك تخفى هذا القفص وأنا أمنحك ثلاثة أيام مهلة فإذا لم تحضر القفص قتلتك . . . .

ودارت الدنيا واسودت فى عينى الصياد وخرج وهو لا يدرى ماذا يفعل ، وفى البيت قال لزوجته : ليتنا شوينا العصفور وقنعنا به ولم نطرق باب القصر . . . فإن طمعنا فى الجائزة هو سبب كل النكبات ثم قص عليها كيف طلب منه الحاكم قفصا لم تقع عليه عين بشر وهنا

أحست الزوجة بندم هائل ومضت تمزق ثيابها ووجهها بأظافرها وتبكى وتلطم خديها وتأكدا أن أوامر الحاكم عقوبة لهما على طمعهما .

وقالت الزوجة لقد قضينا عمرينا قانعين بما يمنح الله ، صابرين على الجوع والعطش ، ولكننا لأول مرة توقعنا الخير من غير الله ، فهو لذلك يعاقبنا . أنا المذنبة ، قلت لك اذهب إلى الحاكم وهو يعطيك ، وها هو الحاكم يطلب المستحيل .

واستمر الزوجان يبكيان ثلاثة أيام بلياليها حتى تورمت عيونهما وفجأة سمعا صوتا هائلا وخيل إليهما أن كوخهما قد سقط عليه جبل هائل وظهر عفريت قال لهما : ما هذا الذى أسمع ، لقد عشت منذ عهد النبي سليمان في هذا المكان فلم أسمع نواحاً صادرًا من القلب كما سمعت فى هذه الأيام الثلاثة . . ماذا تطلبان ؟ ما سبب هذا الحزن ؟ ليتنى أستطيع أن أفعل شيئا من أجلكما . . .

ومضى الصياد يحكى له حكايته مع الحاكم ووزيره ، أما الزوجة فقد غطت وجهها بوشاحها من الخجل ونكست رأسها وقالت للصياد : سوف أجعلك تركب على ظهرى وأطير بك لحظة تكون بعدها عند أبعد الجبال . . . . وهناك سترى حديقة فيها أشياء رائعة تخطف الأبصار ، بحيث يظهر قفص العصفورين بجانب تلك الأشياء تافهاً لا يُغرى بالتقاطه وسوف أدليك بحَبْل فلا تأْخذ إلا القفص فإذا دفعك الطمع إلى أن تأْخذ شيئاً آخر فأنت المسئول عما يحدث لك .

وأخرج العملاق من جيبه حبلاً غليظا لفّه حول خصر الصياد وركب الصياد بين كتفى العملاق وأغمض عينيه ، وبعد لحظة وجد نفسه معلقا في الجو ونظر إلى الأرض وهى تقترب منه ، فإذا هو فى

حديقة مملوءة بأشياء رائعة وأقفاص لا نظير لحسنها . . . وكاد أن يطيع رغباته فيلتقط أجمل الأقفاص ولكنه تذكر فجأة فمد يده إلى قفص وضيع فأخذه وشده العملاق بسرعة ووضعه فوق كتفه ، وبعد لحظة كان الصياد بين أهله ونظرت الزوجة إلى القفص فبهرها جماله وروعة نسجه فلما أخبرها زوجها بما رأى وأن هذا القفص هو أسوأ ما في تلك الحديقة سبحت لعظمة الله . . . . ثم أمرته بأن يذهب بالقفص إلى الحاكم .

وحين قدم الصياد القفص البديع للحاكم أحس الوزير بالغيظ والحقد وهو يرى السعادة في عيني الملك الذى قام بنفسه وأحضر الهدايا والمال للصياد وشكره — وعاد الصياد إلى زوجته سعيدا مبتهجا وفرحت هي بسلامته أكثر من فرحها بما معه من المال والهدايا .

وكان العملاق قد اعطى الصياد ثلاث شعرات من ذقنه وقال له «تستطيع أن تحرق شعرة إذا أردت وجودى أمامك .. .. ولكن السنين مرت ولم يطلب الحاكم شيئا وكاد الصياد أن ينسى العلبة التى حفظ بها الشعرات الثلاث وذات يوم طرق الجنود باب الصياد . .. فالوزير لم ينس الصياد وظل يفكر فى حيلة تقضى عليه لأن الحاكم واظب على إرسال الهدايا كلما أحس بالطرب من عصفورى الكاوارتى — وها هو قد أقنع الحاكم بأن من يستطيع إحضار الجمل « كَامْ كَامُودَا » هو الصياد . . . . .

وأعطى الحاكم مهلة ثلاثة أيام للصياد ليحضر الجمل « كَامُودَا » العجيب القوى ، وظل الصياد يبكى هو وزوجته ثلاثة أيام ثم تذكر فى آخر لحظة الشعرات الثلاثة وبحث عن العلبة فوجدها وأحرق شعره

فجاء العملاق فطلب منه الصياد أن يحضر له الجمل « كامودا » ذو الرقبة الطويلة والشفاة الغليظة والأنف الأفطس . . . . وبعد لحظة كان الصياد يقود الجمل (كامودا) ويسير به إلى الحاكم . . . وفرح الحاكم بالجمل وكان يركبه فى الحفلات والمهرجانات . . كلما رأى الحاكم نظرات الإعجاب فى عيون الناس من موكبه وهو على ظهر الجمل زاد إكرامه للصياد وبالتالى زاد غيظ الوزير .

وكان عند الحاكم خزانة ورثها عن أجداده ولم يفتحها ، ومازال وزيره يغريه بفتحها حتى لان له وفتح الخزانة ووجد كتابا قديما به أخبار الأمم من الإنس والجن ، وبالكتاب فصول عن جمال ابنه ملك الجن والعفاريت . .. . وانه مكتوب فى لوح مقدرها أنها ستتزوج إنسياً .

وقال الوزير : لماذا لايكون هذا الإنسي هو ابن مولاى ؟ لن يحضرها لابن مولاى إلا الصياد .

وأمر الحاكم باحضار الصياد وأعطاه مهلة ٣ أيام ليحضر العروس وإلا قتله . . . وعاد الصياد باكياً إلى بيته ولكن زوجته ذكرته بالعلبة فأحرق الشعرة الثانية فجاءه الجنى على عجل يسأله عن حاجته فلما أخبره الصياد بالقصة وبأن الحاكم يطلب ابنة ملك الجن زوجةً لابنه ظل الجنى يبكى ويعفّر رأسه بالتراب ويقول : هذا أعظم من طاقتى فما أنا إلا جنى لايساوى فى قوته جنود ملك الجن وهنا ودع الصياد زوجته وخرج مع الجنى . . . . . وفى الطريق شاهد عملاقا واقفا على باب فرن وهو يأكل الطعام الذى يخرج من الفرن فسأله الصياد ماذا يصنع هنا ؟ قال العملاق : إنما فى انتظار الصياد الذى استطاع أن

يحضر للحاكم الجمل « كَامُودَا » لأصبح له خادما مطيعا ... قال الرجل أنا ذلك الصياد . . . فنظر إليه العملاق باحثا عن علامات يعرفها فلما وجدها سار خلفه فى ذلة .

وسار الثلاثة الصياد والعملاق الجائع ، فوجدوا عملاقا يقطع من الجبل قطعاً هائلة من الحجارة فيلقى بها ناحية السماء فلا تعود عرف أن هذا هو الذى أحضر الجمل « كامودا » سار معهم .

وسار الأربعة فوجدوا عملاقا مقيدا بالسلاسل إلى طاحونة وهو يقفز إلى السماء ويعود ثم يقفز من جديد ، فلما علم أن هذا الصياد تبعه — وساروا لخمسة فوجدوا عملاقا يخرج من جيبه قمحاً فتجتمع النمل بالآلاف ويجمع القمح فى لحظة ، ثم يخرج من جيب شعيرا فيخرج نوع آخر من النمل ليلتقط الشعير فى لحظة .

وسار الستة ، فوجدوا عملاقا يحمل وعاء به طعام وهو يمتلىء من جديد . . . . . . فلما علم أن هذا الصياد الذى أحضر الجمل كامودا توسل إليهم أن يجعلوه سابعهم . . . . . وسار السبعة إلى موطن الجن فبحثوا عن مكان خرب دخلوه واستغرقوا فى نوم عميق — وفى الصباح ذهب إلى ملك الجن طالبا ابنته فقال له الملك : إن ابنتى تسأل ثلاثة من الأسئلة والذى لايستطيع الإجابة يموت والذى يجيب رغبات الأميرة يتزوجها . .

واجتمع مجلس القضاة وظهرت الأميرة فقالت : إن طلبى الأول هو أن تحضروا رجلا من عندك وأحضر رجلا من عندى وتعد له طعاماً وإذا أكل رجلك أكثر ممن اخترته أنا تكون قد نفذت — أحد الشروط الثلاثة .

وأحضر طعاما يكفى أمةً كاملة ثم أحضرت أحد أعوانها وأحضر الصياد صديقه العملاق الذى كان واقفا بجانب الموقد . . . وبدءا يأكلان ويأكلان . . . ومات عملاق الأميرة من الشبع واعتبرت المباراة منتهية ، ولكن عملاق الصياد استمر يطلب المزيد ، فلما لم يسعفوه بالطعام أكل المائدة بما فيها من أوان وأطباق .

وكان المطلب الثانى . . . . مخزن غلال كبير به خليط من القمح والشعير — وطلبت الأميرة أن يكون القمح وحده والشعير فى جانب وأحضر الصياد صديقه العملاق الذى يخرج الحبوب من جيبه وفى لحظة ظهر عدد لا يحصى من النمل فأخذ القمح فلم يترك حبة واحدة وكومة بعيداً فصار الشعير وحده فى لحظة .

ومضت الأميرة تختبر الكومتين فما وجدت حبة قمح بين الشعير ولاحبة شعير بين القمح وكان الشرط الثالث أن تحضر هى من يأتى بعطر (الأددى) من الهند وكذلك فعل الصياد . . .. . فأرسلت عصفورا أما هو فأرسل العملاق الذى كان مربوطا بالسلاسل إلى الطاحون ، فاندفع إلى الهند فى لحظة عاد ومعه العطر وفى طريق عودته وجد العصفور مازال يطير فى طريقه إلى الهند فقتله وعاد . . . . . وهنا وافق ملك الجن على تسليم ابنته للصياد — فأخذها وسار إلى بلاده وودع العمالقة وأبقى العملاق الذى كان يلقى بالحجارة إلى عنان السماء فلا تعود . . . وذهب إلى الحاكم وزوج ابنة ملك الجن من ابن الحاكم . . . . . وهكذا فرح الحاكم فقال له العملاق . . . إن وزيرك كان يريد القضاء على سيدى الصياد لأن قلبه مملوء بالحقد . . . .

وهديتك أن تسلمه لى ... ومد يده فأمسك بالوزير وقذفه فى الجو فلم يعد . . . وسكن الصياد وزوجته وأسرته فى بيت الوزير وصار وزيراً للحاكم ، فعدل فى حكمه واسعد الناس بالعطف والاخلاص .. وماكان لنا دام واتصل ماكان للأعداء مات وانتهى

الولد قويا مع خاله

قويا مع خاله

على شاطىء النهر كان رجل يقيم مع زوجته وبناته السبع وعلى الضفة المقابلة كانت أخته تقوم مع أولادها السبعة . وبقدر ما كانت الأخت سعيدة بأبنائها رضية النفس تحميهم ويحمونها كان أخوهم يضم بين جنبيه قلباً يحرقه الحسد والغيظ. وكثيراً ما كانت زوجتاه تهمسان فى أذنيه : إن أختك تتكبر علينا . . مَن منا تستطيع أن ترفع صوتها أمامها أو تفرض عليها رأياً ؟

وأنت أخوها الكبير لا تستطيع أن تحقق وجودك أمامها يا أبا البنات ! !

والهمس الكثير يفسد القلوب ، لذلك قرر الرجل أمراً وركب سفينة انتقل بها إلى الشاطىء المقابل وطرق الباب على أخته ثم جلس وحدثها عن متاعب العمل فى المزرعة فهو رجل لا يساعده أحد بينما هو مسئول عن إطعام بناته اللائى ينتظرن فى البيت ولا يستطعن القيام بأى عمل مفيد . واختتم حديثة بأن طلب أكبر أبنائها ليعاونه فى الزراعة والرعى وواقفت الأخت وودعت ابنها وقالت له : اذهب مع خالك وكن طيّعا كأحد عبيده ولا تخالف أوامره مهما كانت غريبة أو غير معقولة ووعدها ابنها خيراً وقبلها ومضى منكس الرأس حياء وتقديساً لخاله إلى أرضه .. وبعد لحظات كان مستلقياً فى سرير خشبي قديم مصنوع من سعف النخيل. وفى الصباح استيقظ على نداء خاله : يا بنى إننى

سعيد أن أتيت لتساعدني لقد أصبحت ضعيفاً محتاجاً إلى معونة من قوى مثلك . إن عليك أن تأخذ الأغنام إلى الرعى وتهتم بها وتعنى بطعامها وشربها . ولك منى كل يوم رغيف واحد . ومن حقك أن تأكل وتشرب وتعود بالرغيف كاملا . وذهب الفتى إلى الرعى يوما ويومين وذبل ومات . وفى اليوم التالى ذهب الرجل إلى أخته يخبرها بأمر الله ويطلب ابنا ثانياً . . ومات الثاني والخامس والسادس .

ولم يبق إلا ابنها « جوبا القبيح الأقرع . . إن أخاها لن يطلب هذا الصبيّ الضعيف الذى لا يفيد فى زراعة ولا رعى . وشكرت الأم ربها أن جعل ابنها هكذا قبيحاً ضعيفا حتى لا يطمع فيه أخوها . ولكن السفينة رست على الشاطىء وسمعن طرق الباب وحين فتحت وجدت أخاها يطالبها بآخر أبنائها . وهنا ثارت فى وجهه لأول مرة وتحولت إلى لبؤة هائجة تحمى ابنها جوبا الذى استحال فى نظرها إلى أجمل وأغلى كائن فى الوجود لا تمكن التفريط فيه . هكذا صور لها قلب الأم . وألحّ أخوها وهددها وهى فى عنادها مثل الصخرة تقول : كم مرة جئت تقول : أمر الله ، أمر الله ، وقتلت أولادى . . واستمر الأخ فى محاولاته .

وفجأة قفز جوبا الأقرع إلى الحجرة ووقف بين أمه وخاله وقال : ماذا تقولين يا أمى ؟

هل تخالفين كلام خالى ؟ إن رجاءه أمر . . ثم من أنا حتى تصرّى على الاحتفاظ بي ؟ إننى أقرع . . ولن أنفعك وأنا ضعيف وقبيح وأقرع » قالت الأم : ولكنك ابنى وهذا الرجل سيقتلك . فغضب الصبي وقال : أتقولين عن خالى فى احتقار هذا الرجل . . إنه خالى

العظيم . . أبي بعد موت أبي وأخوك الأكبر . . لابد أن أذهب معه فإذا لم توافقي قتلت نفسي » فقالت الأم باكية : اذهب يا بني تصحبك السلامة .

وعلى الضفة الأخرى كانت الشمس تنشر أشعتها على الكون والصبي الأقرع يسوق العنزات أمامه وينصت لنصائح خاله تلك وهي : كُلْ (كُلَّ يوم رغيفاً ، واشرب وأعد الرغيف إلى الصومعة دون أن تُنقص منه شيئاً) فابتسم الصبي وقال لخاله : شكرا لك على كرمك . . قبلت شرطك ولكني أنا أيضا لى شرط . فتساءل خاله دهشاً : وما هو ؟ قال الصبي : أن تعطيني كل يوم رغيفاً طازجاً . فسأله خاله : لتأكله ؟ فقال الصبي : سآكل وأشرب وأعيده كما هو حسب الشرط ، ولكن اليوم التالى يكون هذا الرغيف قد أنهى وظيفته فلابد أن تقدم إلى رغيفاً جديداً . . فقال الخال وهو يبتسم لسذاجة الصبي : قبلت شرطك .

وبينما الصبي ينتقل بين المراعى وجد كوزاً صدئا فأخذه وغسله من النهر وأخفاه فى مكان أمين . ومضى يعدو وخلفه العنزات وينتقل بين المراعى الطيّبة ويحلب لبنها فى الكوز ويشرب . وأتى بالرغيف فشقَّه شقاً صغيراً محكماً وأخرج لبابه ثم حشا الرغيف بروث الدواب فعاد كما كان فى استدارته وامتلائه ووضع الصبي لُبابَ الخُبز مع اللَّبَن وأكل وشرب كما لم يأكل ولم يشرب فى بيته مع أمه البائسة التى تقضى أغلب نهارها وليلها باكية على زوجها الراحل . ومر يوم ويومان وأسبوع وهمس الرجل فى أذن زوجته عجيب . . إن الصبي لم يمت فلطمت

زوجتاه وجهيهما وقالتا : يموت ؟ نحن الذين سنموت جوعا فالصبي يشرب لبن عنزاتنا ولانجد الحليب .

وعند الغروب عاد الصبي كعادته فأرى الرغيف لخاله من بعيد وطمأنه على سلامته وألقى به فى الصومعة فناداه ، خاله وقال له : كيف تحلب الدواب على غير ما اتفقنا فى عهدنا ؟ فقال الصبى ؛ إن زوجتيك ياخالى العظيم يريدانك أن تكرهنى . أنا لم أشرب لبن العنزات منذ ولدتنى أمى ولذا لن أعود إليك إلا ومعى كل أهل الحى ليشهدوا بيننا ويروا بأعينهم ويحكموا . . لاتضربنى حتى تسمع رأى الناس فلا بارك الله فى امرىء تسيِّره النِّساء .

وفى اليوم التالى ذهب الصبي بعنزاته إلى المزرعة وقرر ألايشرب لأن الناس سيحكمون . وبعد ساعتين قرر أن يشرب قليلا من اللبن وبعد ساعة أخرى قرّر أن يشرب قليلا ويأكل لباب العيش ثم دفعه جوعه إلى أن يصنع ماكان يصنعه كل يوم . . وبعد أن شرب ، وضع فمه على أثداء العنزات ونفخ الحلمات ، كما تنفخ «البالونه » ، وعاد بها ونادى الجيران الذين حكموا جميعا بأن جوبالم يشرب اللبن وأنه يرعى العنزات فى مراع خصبة وجيدة ويعتنى بها ، فذهب الخال إلى زوجتيه يلومها على سوء ظنهما فى الصبي واعتذر لجوبا الأقرع وقد ثبتت براءته على ماناله من إهانات .

وفى الصباح لم تقدم الزوجتان اللبن لزوجهما سأل عن السبب قالتا له إن ابن أختك اللعين قد نفخ أثداء العنزات بعد أن شرب لبنها وهنا أمسك الخال بجوبا الصغير وشد وثاقه وانهال عليه ضرباً حتى بال على ثيابه وتبرّز من كثرة الألم . وبعد أن انصرف الخال ، جمع

الصبي فضلاته القذرة في سلة وحمل السلة فوق رأسه ومضى يتجول في الطرقات وهو يخفى بين ثيابه قطعة من حلى الذهب سرقها من إحدى بنات خاله .

ونظر الأقرع فرأى عُرساً فاتجه نحوه يشاهد الرقصات وينصت إلى الأغنيات وقالت له امرأة عجوز : يابنى ، ضع السلة على الأرض فإن هذا يتُعب جسمك الصغير النحيل . فأجابها معتذرا : لا ياجدتى الطيبة . إن في السلة أمانات لاأريد أن أغفل عنها لحظة فدعيني أحملها فهذا آمن : وبعد لحظات عادت العجوز من جولتها في العرس فوجدته مكانه فقالت كأنها تشبع رغبتها فيالثرثرة وتستعرض حنانها : يابنى ضعالسلة على الأرض. استرح يابنى. ولكنه قال لها : لقد قلت لك أيتها الجدة الطيبة إن فىالسلة أمانات . إن أبى تاجر مجوهرات وهذه الجواهر أمر أن أسلمها لأصحابها . وهنا فهمت العجوز ومضت تفكر في طريقة تريح بها الصبي من ثقل السلة وفي نفس الوقت تحافظ على حلى أبيه وأماناته .

ونظر الصبي إلى الأصابع الغائصة بين بذور صفراء والسجاير المحشوة بالخدر ثم الأنفاس التي تملأ الجو وشعلة ترسل نورها المتراقص على الوجوه المعروقة التي تصيّبَ العرق منها . ورؤوساً تتقارب متهامسة تلقى إلى الخلف فى ضحكة عالية أو تُلقى إلى الأمام فى استغراقة حالمة . ورأى أصابع تنقر على دف كبير إيقاعات النقرشاد ، والجميع مشغولون عن إيقاعاته بالحديث والسمر والذهول والضحك الذى لا معنى له. ثم لم تلبث الدقات أن شدّت انتباهم رويدًا فخفت الضحكات وعمّ السكون واتجهت العيون إلى أرخم الجالسين صوتاً وأقدرهم على

رواية مقاطع الأغنيات القديمة واعتدل الفتى الرخيم الصوت فى جلسته وأخذ نفساً عميقاً من سيجارته المحشوة بالخدر ومد عنقه كأنما هو ديك يتهيأ للصياح وأنشد :

« إن الفتاة المشرقة الوجه . . المجلوة كالمرآة الصافية . . لا يمكن أن تترك خيالى . . ولن أنسى تلك اللحظة الخالدة التى قدمت لى فيها كوب الشاى وهى تتأوه مثل عود الخيزران . . وعلى صدرها يمامة تهمس فى أذن حمامة بسر لا يفهمه إلا الراسخون فى العشق » . وصمت المنشد واستمرت الأصابع النحيلة تنقر على الدف فى إيقاع ساحر . . وخلف الجدار الذى يسند المغنى ظهره إليه كانت الأيدى الأنثوية الناعمة الرخصة تصب السكر فى أوعية كبيرة مملوءة بالماء إلى المنتصف وعصارات الفواكه المركزة تنطلق من فوهات الزجاجات إلى الأوعية الكبيرة وأكواب تملأ بالسائل العذب الشذى الملون . وشفاه تتقارب فى قبلات معبرة عن التهنئة وتنطلق مع القبلات طرقعات عالية . وكان الصبى مصراً على إبقاء السلة فوق رأسه ، والعجوز تمر عليه من وقت لآخر وتلح عليه أن يريح رأسه وهو يعيد شرح السبب الذى يدفعه إلى بذل هذه الجهود ، فلو أنه كان يملك ما بالسلة لما اهتم ولكن أباه سيقرقض عظامه ويمزق جلده إذا أنقص شيئاً مما فى السلة .

وسار الصبى إلى ركن آخر من أركان العرس ليرى صفوفاً من الراقصين وأمامهم صفوف لا حصر لها من الراقصات والجميع يتحركون على إيقاعات الدفوف التى تشق أجواز الفضاء . ومن وقت لآخر تتقدم سيدة من المنشدين وتدفع ، فيذكر كبير المنشدين أسماء من تحب أن يذكرهم ويعلن عن إعجابه بكرم أسرتها وعلو نسبها

ويجيب المنشدون فى صوت كالهتاف دائماً . . . دائماً . . صلاة الله دائماً . . . . ومع أضواء المشاعل كان الصبي يرى على صدور الفتيات والنساء صفوفاً لا حصر لها من الذهب .

وسار الصبي إلى تلك الحجرة التى أقيم كل هذا المهرجان ليكون إطاراً لما يحدث فيه ورأى الفتيان يتخيرون أماكنهم بحيث تتاح لهم فرصة مشاهدة ما يحدث لينقلوا لمن حولهم ما يرون من أسرار . . ها هو يقبّلها.. إنها ترفض أن ترد عليه..يربت على ظهرها ..... إلخ

ومرت العجوز بجانبه فرأته يحمل السلة فوق رأسه فمضت تلح عليه وتتوسل أن يريح بدنه فإن قلبها ينفتت حسرة عليه . فأسرعَ يرفض رجاءها وعيونه تكاد تخرج من محاجرها وهو يتابع فتاة ترقص رقصة السمك الرعاش [1] ونهودها تتطاير مع حركاتها الساخنة الملتهبة ووشاح السردحان الحريرى يزيد من بهاء الرقصة وجلالها والفتاة تحرك قدميها ويديها وتتحرك إلى الأمام والخلف متخلعة وتدور حول نفسها ثم تتقدم فتاة أخرى أجمل من الأولى فتعدو خلفها فى رقصة لا يستقر فيها جزء من الجسد فى مكانه والحلى الذهبية تحدث مع الحركات السريعة موسيقى راقصة .

واهتدت العجوز إلى فكرة ظلت تعيدها فى رأسها وهى توزع المشروبات والطعام على المدعوين حتى إذا التقت بالصبي قالت له : انظر ، هناك حظيرة الدواب . إذهب وضع السلة بداخلها وقف على الباب وشاهد الرقص واستمتع بليلتك وخذ هذا الطعام ، إجعل من

---

(١) هذه رقصة الفرى على إسم السمك البولطى .

تسليتك فى مكانك القصىّ على باب الحظيرة وعند انصرافك خذ سلتك من الدواب وامض إلى حال سبيلك . . وضحكت العجوز معجبة بمهارتها وحكمتها وقالت : إن الأفكار السديدة تسرع إلى رؤوسنا لأننا – يابنى – قد جربنا كثيرا . وقالت مازحة : أم تخاف أن تسرق الأبقار حلى أبيك وتتزين بها ؟ .

واستجاب الصبى لنصائحها وأدخل السلة فى الحظيرة ووقف على الباب يشاهد الأبقار وهى تلعق السلة فى شراهة عجيبة ولا تبقى فيها شيئا . وهنا نثر التراب بداخل السلة حتى جفت وأصبحت نظيفة ووضع قطعة الحلى التى سرقها من بيت خاله فى يده وصرخ بأعلى صوته : أمانات الناس . . أمانات الناس . . وامصيبتى . . ياسوء حالى وأسرع الناس إليه يستجلون الخبر وبينهن أتت العجوز التى نصحته بأن يضع السلة فى الحظيرة فما إن رآها الصبى حتى صرخ فيها : خربت بيتى . . أنت السبب . . لقد دخلت فوجدت الأبقار تأكل الحلى وقد انتزعت آخر قطعة من فم إحداها . . ونظرت النساء إلى الأبقار فوجدتها جميعا تجتر واعترفت العجوز بأن الصبى أصر على عدم سماع نصائحها وأنها ألحت عليه كثيراً .

ومضت العجوز تربت على ظهره وتهدئه وتسقيه وتحكى للناس أنها أضرت بالطفل المسكين بآرائها ، فلو أنها تركته يحمل سلته لما أكلت الأبقار الحلى . ورأى الجميع الحلى فى يد الصبى فصدقن قوله ثم تصدقن ببعض حليهن للصبى فجمع قوبا الصغير الحلى فى سلته وسار إلى أين ؟ كم ستسعد أمه لو عاد إليها بما يحمل من الذهب والحلي ولكن

لا ، يجب أن يعود إلى خاله فليس سهلا أن يفقد المرء ستة من الإخوة.. قتلهم هذا الرجل القاسى ولم يرحم دموع أخته .

وعاد الصبي إلى خاله وهو يحمل السلة والذهب ، فسأله خاله : من أين أنت آت . . ؟ فقال الصبي : قبل أن أقص عليك ، أريد منك خدمة ، أتوسل إليك ألا تبخل على بها ، أقبل يديك حققها لى فلن تكلفك شيئاً. عليك أن تضربنى كل يوم علقة مثل مافعلت معى اليوم فإن فى القرية المجاورة من يشترون الفضلات القذرة بالذهب ، ولأن فضلاتي كانت قليلة فإننى لم آت إلا بهذه الكمية .

ونظر الخال إلى الذهب الذى أمامه فى السلة وقرر أمراً . قال للصبي : خذ هذه العصى واضربنى حتى ألطخ ثيابي بالقذارة . . اضرب اضرب . . انتظر قليلا . . لابد أن تقيدنى بالحبال وقام جوبا بتقييد خاله وانهال ضربا حتى أدمى جلده : أنت تعرف خالك طماع . . اضرب . . وهكذا ، نال الخال عقابا قاسياً قرره بنفسه ، وحمل السلة القذرة على رأسه وذهب إلى القرية التى أقامت فى يومها السابق عُرساً فمضى ينادى : من يأخذ فضلاتي ويقدم الذهب ؟ ؟ ! وظنه الناس مازحا فلما سمعوه ينادى فى إلحاح رأوا فى ندائه سخرية منهم فأمسكوا به وضربوه وشجوا رأسه ومزقوا ثيابه وكسروا عظامه . فعاد إلى بيته وهو بين الموت والحياة فاعتنت زوجتاه به .

وفى اليوم التالى قال الرجل لزوجتيه : إن هذا الصبي لا سبيل إلى قتله بغير السم . ولما كانت النساء أقدر من الرجال على الإيذاء فقد ترك الرجل لزوجتيه الطريقة التى تقدمان بها السم . ثم نادى الخال بناته وأعطى كلا منهن حَشَفاً وقدم للصبي تَمْراً من النوع « الزيتونى »

الأسود البراق . ووضع الصبي البلح في جيبه وتساءل : ما الذى يدفع خالى الذى يكرهني ويتمنى لى الموت أن يقدم لى هذه الثمار الطيبة ويقدم لبناته المدللات ثمارا أقل جودة ؟ ؟ ! ! وبعيدا عن الخال أخرج الصبي جوبا من جيبه تمرة ظل يغازلها إحدى بنات خاله وهى ترجوه أن يعطيها فيشير إليها أن تنتظره خلف البيت ، وهكذا فعل مع أخواتها .

وبعد قليل كان يقف خلف البيت مع بنات خاله وقد أخذ الحشف منهن وأعطاهن التمر الزيتونى العظيم وتسابقن فى الالتهام . وفى لحظة كانت البنات السبع جُثَثاً هامدة عند قدمى جوبا وأسرع الأقرع يركب السفينة إلى الضفة الأخرى ليلتقى بأمه .

وقال جوبا لأمه : إن خالى قرر أن يزوج بناته السبع فى هذه اللحظة فاسرعى معى لنحتفل ، فقالت أمه : وكيف لم يخبرنى فى وقت مبكر حتى أستحم وأتزين . فقال لها جوبا : هل أعود إليه واقول إن أمى تعتذر عن المجىء لأنك لم تخبرها مبكرًا . . أنا اقترح أن أقول له أيضا إن أمى غاضبة لأنك أنت أقمت الأعراس بدون أن تأخذ رأى أختك . فولولت أم الأقرع وقالت : لا يا بنى إننى سأذهب إليه سريعاً . . يا عيب الشوم ، كيف لا أذهب ؟ ثم مرت على جيرانها ودعتهم للعرس . وبعد لحظات كانت سبع سفن تنقل المدعوات إلى بيت الخال ليهنئنه .

وعلى الشاطىء كانت الهمهمات وكل امرأة تهيىء نفسها على قدر طاقتها لتبدو ، جميلة فى هذا العرس المفاجىء ، وما أسرع ما أَلِفْنَ المكان ، وجرأهن خلو الشاطىء من العابرين على المزاح والعبث .وبينما هن فى لهوهن كان الصبي قد أسرع إلى بيت خاله فرآه يحفر قبرًا

لبناته السبع والعرق يتصبب من جبينه ، فعاد إلى أمه يقول لها : «إن أمر الله الذى كان يلحق أولادك فرادى قد لحق بنات خالى دفعة واحدة وقد صعدت إليه فوجدته يحفر لهن قبراً .

وتأملت النساء واضطربن ، لاحزنا على الراحلات ، بل لأن من التقاليد ألا يذهبن للعزاء بحلى العرس ، فلابد لهن إذن من العودة إلى بيوتهن وترك الذهب ثم الرجوع والوقت متأخر ، فما العمل ؟ ؟ ؟ وكان على جوبا الصغير أن ينقذ النساء من ورطتهن وهن اللائى جئن يحملن أثقالاً من الذهب فى سبع سفن . قال الصبى : عليكن بوضع الحلى فى سلة ثم تغطى السلة بروث البهائم ونخفيها بين الأبقار فهى لا تسرق الحلى . وفعلت النساء مثلما أشار عليهن الفتى الأقرع وذهبن إلى خاله نائحات ماشيات وقام الصبى جوبا بإخفاء الذهب فى مكان أمين إلا قطعا قليلة علق منها عند مؤخرة كل بقرة . وقال للنساء عند عودتهن : إن الأبقار أكلت الذهب وبدأت تفرزه من مؤخراتها ورأين الذهب بعيونهن فمضين يندبن حول الأبقار ويبكين بكاء أشد مرارة من بكائهن على بنات خاله السبع .

وجاء الخال يستوضح ويعلم بقصة الحلى التى أكلتها أبقاره ويقول لقد أتيتن لمواساتى ، ماذنبكن ؟ لقد كنت أدخر بعض المال واشتريت حلياً لبناتى وهاهن قد واراهن التراب فخذن الذهب عوضاً عما فقدتن وأحضر السلة التى عاد بها يوما الصبى الأقرع من قرية مجاورة وأخذت كل امرأة قطعة لاتساوى عشر ما فقدت ، وعدن منكسات إلى السفن السبع وهن يلعن الخال وبناته وأبقاره واليوم الأسود الذى زرن فيه بيته .

وبعد ذهاب النساء قالت الزوجتان للخال مادامت دوابنا قد أكلت الحلي فلماذا لانذبحها ونجمع الذهب فنشترى ببعضه أبقاراً أضعاف أبقارنا ونشترى بالباقى ساقية . وماأسرع ما كانت دواب الخال مضرجة في دمائها وهو وزوجتاه يفتشون فى أمعاء الدواب عن الذهب ولا يجدون .

وقال الخال لزوجتيه النائحتين : لاسبيل إلاأن أقتل الصبي جوبا غرقاً ، سوف أضعه فى غرارة وأربطه بحجر ثقيل يغوص إلى أبعد أغوار النهر . وأحضر كيسا كبيراً وضع فيه الصبي وسار فى اتجاه النهر .. وبينما هو فى الطريق سمع صوت المؤذن ينادى لصلاة الجمعة فلم يبال به واستمر فى سيره ، ولكن جموع الفلاحين فى طريقهم إلى المسجد كانت تنظر إليه فى دهشة وتكاد عيونهم تسأله عن سبب تخلفه عن الصلاة ، وتحت لهيب نظراتهم ترك الخال الكيس بجانب نخلة على الشاطىء ومضى للصلاة على أن يلقى بالصبي إلى عمق النهر بعد أداء فريضة الصلاة .

ومر « جَمَّالٌ » يسوق عشرين جملا فرأى الكيس الكبير ومضى يتحسسه فصرخ الصبي من الداخل : من أنت . إنس أم جن؟ فقال الرجل : أنا إنسان أنا رجل أتاجر فى الجمال . . فقال الصبي من الداخل : ألاقاتل الله الجمال وسنينها فهى التى قصمت ظهرى . . . لذلك — أمرتهم أن يضعونى هنا حتى أمط ظهرى . . هذه طريقة بارعة تعلمتها من جدى . فقال الجمال : وأنا أيضا يؤلمنى ظهرى . اسمح لى أن أفك الكيس وأضع نفسى فيه وتكبسنى . . كم يستغرق العلاج ؟ فقال الصبي : بالطريقة الجافة يستغرق العلاج ساعتين ، ولكن

بالطريقة المائية يستغرق العلاج زمنا أطول . فقال الجمال : أنا أريد الطريقة الجافة . . هيا شد وثاق جيداً وأحكم إغلاق الكيس .

وعاد الخال من المسجد فوجد الكيس فى مكانه بعد أن مضى الصبي بالجمال . واقترب من الكيس ودفعه بنعله بقسوة فصرخ الرجُل من الداخل وهو يقول : خفف فى التكبيس لا تقسُ عليّ هكذا . . وحمل الخال الغرارة فوجدها ثقيلة فقال : عليك اللعنة ، وليفجر الله أمعاءك لقد سمنت من شرب اللبن من عنزاتى . « قالها بالنوبية » فصرخ الجمّالُ من الداخل « بالعربية » إلى أين تذهب بى . . فقال الخال : أيها الولد الملعون . متى تعلمت الحديث بالعربية . . هل تريد أن تخدعنى مرة أخرى ؟ فقال الجمّالُ : أيها الرجل أنا جمّال . فضحك الخال ضحكة مريرة وقال : وأصبحت جمّالا أيضا فى هذه اللحظات القليلة وألقى بـ « الزكيبة » إلى النهر بينما الجمال يصرخ وقد أحس بالبلل لا أريد الطريقة المائية فهى تستغرق زمنا أطول . . وهبط إلى قاع النهر وعاد الخال للبيت .

وعند الغروب نظر الخال إلى أقصى الطريق فرأى ابن أخته جوبا يسوق عشرين جملا ويتجه ناحيته . . فقال مذهولا : من أنت ؟ إنس أم جن فقال جوبا : أنا ابن أختك ياخالى . . فقال الخال : وكيف عدت ؟ فقال الصبى : ما أعظمك ياخالى ؛ انظر هذه الموجة العالية تحتها عالم البعير وكان من حظى أنك ألقيت بى هناك . وقد وجدت ملايين الجمال . ولكن أين أجد المرعى لها . لذلك اكتفيت بعشرين . انظر وهذه الموجة الصفراء هى عالم الذهب . . وهذه الموجة المتناثرة بالأنوار هى موطن الماس والياقوت . واستمر الصبى

يحكى عن عوالم عجيبة تحت النهر ويصف الطرقات والقصور والحاكمين الطيبين والكرم الذى لا حد له .

وأحضر خاله كيسا كبيراً ودخل فيه ، وقال لابن أخته : أنت تعرف أنى طماع اقذفنى فى منطقة الذهب . وهكذا تخلص جوبا من خاله وانتقم لإخوته .

إن أسلوب الولد جوبا فى الانتقام من الخال بأساليب الخداع التى يبررها منطق الحكاية ويحولها إلى قيم وأعمال طيبة تشبه حكاية نوبية أخرى يصل فيها الصراع إلى درجات أعنف لانه بين قوة بشرية وقوة غيبيّة ممثلة فى السعلاة . [الغولة] (ايركانى) فقد خرج سبعة من الأولاد ومعهم أختهم الصغيرة فضلوا الطريق فى الغابة وطرقوا باب بيت كان هو بيت الايركانى التى تملك سبعة من البنين .

وقد سعدت الإيركانى بالوافدين فهم طعامٌ وصل حتى باب دارها وأكرمتهم وأطعمتهم وانتظرت ان يناموا ولا فائدة ، وقالت للطفلة : نامى . فقالت الطفلة إننى لا أنام إلا إذا احْضرت لى أمى الماء فى الغربال فحملت الغولة الغربال ومضت للنهر تملأه ثم تعود فتجد الغربال قد جف فتعود مرة أخرى وهكذا ، وأثناء ذلك نقل الأطفال أولاد الغولة على سريرهم وهربوا وأخيرا اهتدت الغولة إلى حيلة فوضعت بعض الطمى (أرْكِى) عند قاع الغربال فلم يتسرّب الماء ، وعادت إلى بيتها فوجدت صمتا فاطمأنت أن الاطفال قد ناموا . فأحضرت السكين وذبحتهم الواحد (أولادها) بعد الآخر ، فلما وصلت لأصغر الأبناء قال والدم ينزف من رقبته : لماذا قتلتنى ياأمى ؟ وهنا ماتت الايركانى فوراً من صدمة المفاجأة المحزنة .

الأخت السابعة

وحكاية الأخت السابعة تقول إنه عاش فى الزمان القديم أخوان لأحدهما سبع من البنات وللثانى سبعة من البنين . . وكان والد البنين مزهواً بأبنائه وهم يدافعون عنه ويرفعون ذكره . . أما اخوه فكان فقيراً منكس الرأس ضعيفا لايذكر بناته فى مجلس ولكنه فى نفس الوقت كان حانيا عليهن يتعب طول يومه ويأتى لهن بالقوت ويحاول أن يسعدهن . . ومع مرور الزمن ضعفت قوته وبالتالى قل رزقه ولم تجد بناته وسيلة لمعاونته فقد كان ذلك الزمان لا يعطى فرصة حركة للبنات

وخرج البنون السبعة إلى البلاد البعيدة فى سفن عظيمة ومعهم التجارة وكان الواحد منهم يتنقل من بلد إلى بلد يبيع هنا ويشترى هناك ويمنى نفسه بالعودة بربح أعظم ولاحق الزمن الغدار الأبناء السبعة فغرقت سفينة احدهم وأسرف الثانى فأفلس وقتر الثالث ففسدت بضائعه وأغرم الرابع بغانية جردته من كل ما يملك وتاجر الخامس فى سلع تمنعها بعض البلاد فصادروا بضائعه وسرقت بضائع السادس وأهلك الحريق بضائع السابع ولم يجرؤ أحد الأبناء على العودة فى حال بائسة فبحث له عن عمل وصناعة فى بلده النائى حيث لا يعرف أحد من أهله بحاله — أما أبوهم فقد ظل ينتظرهم ويسخر من أخيه وبناته ويقول له : لو كانت لك أبناء مثلما لى لخرجوا للتجارة وعادوا إليك بالربح الوفير وكان أبو البنات يبكى ثم يتجلد فيحمد الله .

وذات يوم ذهبت البنت السابعة أصغر البنات إلى أبيها وظلت تحدثه وتسأله عن أحواله حتى اضطر أن يصارحها بأن أحواله تسير من سيء إلى أسوأ فقالت له : لماذا لاتعطينى فرصة واحدة لمساعدتك

وأقنعته بأنها ستخرج فى ثياب الرجال فتعمل فى التجارة فإما أن يبارك الله لها وإما أن تخسر تجارتها وفى هذه الحال لن تكون احوالهم أسوأ مما هى الآن ـ واقتنع أبوها فقدم لها ثياب الرجال وجهزها بالزاد المتواضع الذى استطاع أن يعده. وانتقلت البنت السابعة من بلد إلى بلد وبارك الله فى تجارتها .

وفى أحد البلاد وجدت أحد أولاد عمها يبيع العرقسوس فقالت له بعد أن شربت منه كوبا ودفعت له مبلغا لايناسب ثمن الكوب إننى أراك غريباً عن هذه البلاد كما أرى فى عزة نظراتك مايدل على مجد قديم ولم يتبين الفتى أنها ابنة عمه فقص عليها قصته منذ ترك إخوته السبعة البنين وكيف خسر تجارته وخجل فلم يعد إلى بلاده فقالت له لقد تأثرت لقصتك وقررت ان أمنحك مالا تعود به إلى أهلك وتنفقه بعد عودتك فيقال انك ربحت من تجارتك ولم يصدق الفتى ولكنها أعطته عنوان البيت الذى تقيم فيه فذهب إليها فاكرمته وقالت له : إن التجارة ربح وخسارة وقد أوصانا الله أن نكرم عزيز قوم ذل ، فشكرها الفتى وقال لها أنا مستعد فى مقابل ذلك أن أفعل ما تأمرين به قالت ان الشرط الوحيد هو أن أترك فى فخذك علامة بالمسمار المحمى بالنار فخاف الفتى من الألم ولكنه اذعن فى النهاية لما وجد إصرار الفتاة أو إصرار التاجر الغريب كما وقع فى وهم الفتى . . وأمرت الفتاة خدمها بإعداد النار وقاموا بكىّ فخذه ثم أمرت طبيبها فضمد جرحَه ثم منحته المال الذى وعدته به .

وكلما هبطت ببلدة وجدت فيه أحد أبناء عمها فى أسوأ حال . . فما أسرع ما تقدم عرضها الغريب فيقبل ابن العم ويعود لأهله وعلى

فخذه علامة . . وكان الرق منتشراً في ذلك الزمان وكان السادة يتركون علامة على جسم العبد ولكن كلا من الإخوة السبعة كان متأكدا أن هذا التاجر لن يلتقى به فى بلدة ولن يجروُ على الزعم أنه من عبيده .

وفى أحد البلاد التقت بفتى جميل جذاب الحديث فأسرها بجماله وذكائه ولكنها تمالكت نفسها وعرفت أن عليها واجبا لابد أن تنسى فى سبيله أنوثتها وعواطفها واكتفت بالحديث معه فى المسائل العامة ولم تكشف له عن حقيقتها . .

وسحر بها الفتى وحاول ان يعرف هل هى فتى حقا أم فتاة فى زى التجار . . وذهب إلى عجوز مدربة يسألها فقالت له : لاعب صديقك الشطرنج فإن غلبك فهو فتى وإن غلبته فهو فتاة لأن النساء لا جَلَد لهن على الشطرنج . . وفى اليوم التالى طلب الأمير منها أن تلاعبه فلاعبته وغلبته بدل المرة سبع مرات ولكن الشك ظل يؤرق الفتى . .

وذهب إلى العجوز فقالت له : إذا كانت فتاة ذكية تجيد لعب الشطرنج فإن معى طريقة لا تخيب لأنها ستكون نائمة فاقدة الحركة والتفكير . . فسألها عن الطريقة . . قالت له : احضر عودين من سعف النخيل وضع واحدا تحت مخدتك وواحدا ، تحت مخدتها وفى الصباح ستجد سعف النخيل الذى عندها قد جف عوده إذا كانت فتاة . . فظل الامير ساهرا إلى أن استغرقت فى نومها فوضع عودا تحت مخدتها وآخر تحت مخدته واستغرق فى نوم عميق . . وبعد لحظة استيقظت الفتاة على صوت خشن تحت مخدتها فمدت يدها وأخرجت عودا من سعف النخيل كاد يجف فنقلته تحت مخدة الفتى وأخذت العود الذى تحت مخدته فرشته بالماء ووضعته تحت مخدتها . . وفى الصباح وجد الفتى

أن السعف تحت مخدة الفتاة قد زاد ازدهارا وأينع بينما ما تحت مخدته قد جف . ولكنه لم يفقد الاعتقاد أنها فتاة . . ولكن كيف السبيل ؟

قالت العجوز : لم يبق إلا أن تطلب منها الاستحمام معك فى النهر وهنا ستهبط معها عاريا وينكشف لك الأمر كله فإذا رفضت فهى فتاة . .

وذهب الفتى إلى صديقه التاجر وطلب منه الاستحمام بالنهر صباح الغد فإذا الصديق يوافق على الفور . وخرج التاجر عند الفجر والأمير مستغرق فى نومه وذهب إلى النهر فرآه الفتيات المستحمات وهربن صارخات فخلع التاجر ثيابه واستحم وحده فى النهر ولبس ثيابه . . وبينما هو يستعد لركوب حصانه وجد الأمير مقبلا من بعيد والنساء يشكون إليه أن التاجر الغريب ترك النهر كله ولم يجد إلا المكان الذى يستحممن فيه وبالغن فى وصف رجولة التاجر حتى تأكد الفتى .

وبعد أيام قرر التاجر أن يترك المدينة فخرج صديقه الأمير يودعه باكيا فأعطته صندوقا وقالت له : لا تفتح هذا الصندوق ولا تر الهدية إلا بعد يوم من سفرى إن كنت حقا صديقا مخلصاً — وفى اليوم التالى فتح الأمير الصندوق فوجد هدايا ومجوهرات وخطابا يعترف له فيه أنها فتاة وأنها أحبته ولكنها من أجل واجب رعاية أسرتها كبتت عواطفها فعض الأخير أصبع الندم وتأكد أن عصفوره قد أفلت منه إلى الأبد فظل يبكى ومرض وجف عوده وعادت الفتاة ليلا إلى قريتها ونقلت أمتعتها إلى بيتها . وفى الصباح انتشر خبر

عودتها بالثراء العظيم ، فأسرع ابناء عمها يخطبونها من أبيها فقال لهم أبوها لابد أن آخذ رأى ابنتى . .

وذهب إليها أبوها ليسألها فقالت له : « إننى موافقة على الزواج من أحد أبناء عمى فهذه تقاليد بلادنا ان ابن العم أولى من غيره . . . ولكن على شرط أن يكون حراً . . . . . فقال لها أبوها : إنهم أحرار يا ابنتى . . . . قالت له : يا أبى ألم تسألنى عن رأيى ؟ اننى أقول أن اطلب من أبناء عمى أن يكشفوا لك عن أفخاذهم فإذا لم تجد علامة الكىْ تزوجت من تختاره وذهب أبوها فى دهشة إلى أخيه يخبره بما قالت ابنته ، فقال أخوه : . . اننى واثق أنهم أحرار ولا توجد علامة على فخذ أحد منهم . . وفى تحد خطير نادى ابناءه السبعة وقال لهم اكشفوا عن أرجلكم أمام أخى ليتأكد أنكم أحرار . . ولكن الجميع نكسوا رءوسهم ولم يجرءوا على رفع ثيابهم — وهنا أحس أبوهم بالخزى وظل يبكى . .

وأسرع والد السابعة إليها يسألها ويسمع الحكاية منها وكيف أنها أنقذتهم بأن اشترتهم وأعفتهم وانتشر خبر قصتها فى القرية والقرى المجاورة وتناقلها الشعراء فى جميع البلاد . . ووصل خبر الفتاة إلى الأمير المريض فعرف بلادها وذهب ومعه ٧ سفن مملوءة بالهدايا إلى أبيها وخطبها منه واستمر العرس ٤٠ يوما . . وما كان لنا دام واتصل وما لغيرها مات واندثر . .

لم تكن حمصة تقضى الوقت كله فى الغناء والنغم ، بل كانت تساعد أمها فى أعمال النهار وتحمل الطعام إلى اخوتها السبعة فى الحقل وعند عودتها كانت حمصة تغنى لأمها أغنية تهز أوتار القلوب .

إلى السبعة رجال ، هل تعرف النوم ؟ . . .

صاحبة السواقى السبع ، هل يغمض لها جفن ؟ . . .

وبعد أن تغنى حمصة ممجدة أمها واصفة يقظتها ودأبها ونشاطها وجمالها وقلبها النقى الكبير – تطرق الباب فتفتح لها أمها بعد أن ترد عليها بأغنية فيها الحب والحنان .

وفى بلادنا تعيش « الاركبى » مع الجن والعفاريت والمخلوقات الأسطورية ، وهى قديرة على التشكل فى قوالب مختلفة شبيهة بالغوريلا كريهة ، نهمة متعطشة للدماء ، قاسية . وهى انثى فى أغلب أحوالها .

وقد أرادت الاركبى أن تستأثر بفتاتنا حمصة لتغنى لأبنائها وتسليهم حين تخرج لعملها اليومى من خنق للأطفال إلى قتل للنساء . لذلك ذهبت تقلد صوت حمصة فى غنائها وتطرق الباب على عائشة . ولكن صوتها الأجش الكريه لم يكن ممكنا أن توقفه ليصبح عذبا مهما حاولت – لذلك سرت الرعشة فى قلب عائشة وهى تسمع عواء الأركبى وأحكمت إغلاق الأبواب .

وحزنت الاركبى ولكنها لم تيأس بل ذهبت إلى امرأة عجوز – والعجائز مشهورات بالسحر وقالت لها : إذا لم تجعلى صوتى ناعما رخيا مثل صوت حمصة فإننى سوف أقضى عليك ولا أبقى لك على الأرض اثرا . قالت هذا وقد رقصت العقارب فى شعرها وتراقصت

الثعابين من نار فحيحها المخيف فارتعدت العجوز وطلبت الأمان فأمنتها الاركبي .

وهنا قالت العجوز : عليك يا أم الغيلان أن تنتظرى إلى أن تصبح الشمس حامية ملتهبة عندئذ عليك أن تسجدى فى العراء بحيث يلتصق وجهك بالتراب وترتفع مؤخرتك فى استقبال أشعة الشمس وضعى نملة كبيرة « فرس الشمس » فى فمك وعندئذ ستتحرك النملة فى أحشائك وأمعائك باحثة عن النور إلى أن تخرج من مؤخرتك . وبهذا يصبح صوتك ناعماً مثل صوت حمصة بعد أن تمزق النملة فى طريقها كل الحواجز لصوتك .

وأسرعت الاركبي تنفذ مشورة العجوز وأصبح صوتها مثل صوت حمصة وقد انتهزت فرصة نزول الفتاة بالطعام إلى أخواتها فطرقت الباب وهى تغنى بصوت لا يمكن التمييز بينه وبين صوت حمصة . وفتحت لها عائشة ففوجئت بالأركبي أمامها وحاولت الصراخ ولكن الصرخة تجمدت فى حلقها وفى لحظات كانت الأم الحبيبة قد تحولت إلى عظام قليلة مبعثرة فى الحجرة ودم يلطخ وجه الاركبي .

وعادت حمصة وهى تغنى وقبل أن تطرق الباب سمعت فحيحا بالداخل واضطرابا وصوت عظام تتحطم فقد كانت الاركبي تأكل أمها مشغولة بوليمتها عن كل ما حولها وأسرعت حمصة إلى أخواتها وهى تعدو حتى تقطعت أنفاسها وأخبرتهم بما سمعت فأسرع السبعة يحملون الفئوس والمناجل وحاصروا الاركبي وقتلوها ورموا جثتها فى مكان قصى ، أما رأس الأركبي فقد ألقوابه خلف صوامع الغلال .

وإذا كانت مشاغل العمل قد خففت عن الأخوة حزنهم لفقد أمهم

فإن حمصة كانت تذكرها دائما وإذا كانت الرجولة ستارا أمام عواطف الذكور فإن الفتاة ما كانت تستطيع – وهى الأنثى الضعيفة أن تتوقف عن البكاء والعويل فقد فقدت أمها الحبيبة التى لم تكن تكلفها بعمل بل تعتبرها غير مبالية بنهديها الصارخين – طفلة محتاجة إلى عناية. كانت تعد لها الماء لتستحم وتسرح لها شعرها وتجلس بجانبها كل مساء تسليها بالأمثال والفوازير إلى أن تستغرق فى نومها أما اليوم فعائشة البطلة الحنون العظيمة التى تحب الناس جميعا قد انتهت ولابد لحمصة أن تواجه الحياة بطاقة مثل أمها . ولكن كيف ؟ . . إنها لا تدرى سوى شيء واحد هو أن الحياة قد أصبحت قاتمة وضيقة ولأنها الآن وحيدة لا يعاونها أحد ولا يسرى عنها أحد سوى قطتها « كديسا » هذه القطة التى أجلستها حمصة بجانبها وهى تبكى وظلت تحكى لها : اسمعى يا كديسا ، إنك لو وضعت يدك الصغيرة فى قلبى فلن تجدى إلا الرماد فقد احترق قلبى ألما لفراق أمى ، كم كانت عطوفة على الناس جميعا فقالت كديسا وعلينا معشر القطط. يا سيدتى ، لذلك أحببتها أكثر من حبى لأمى لا تحزنى يا سيدتى ولنكن صديقتين إنى لن افيدك كثيرا فانا غبية وأحتاج لشرح أشياء يعتبرها غيرى بديهيات بسيطة ولكن الأعمال بالنيات وأنا أحمل لك نية أصفى من اللبن فبدلا من ان يجتر كل منا احزانه وحده تعالىْ ضعى جرحك على جرحى يلتئم .

وبينما حمصة جالسة على عتبة بيتها تبكى وتبث القطة آلامها مرت ابنة الأركبى وقد غيرت معالمها فبدت فتاة صغيرة . وما خرجت ابنة الأركى ولا غيرت معالمها إلا لتهتدى إلى مكان أمها التى تغيبت عن البيت وأزعجت الابنة بغيابها . وهى تعلم جيدا ان الناس يكرهون

أمها فلن يساعدها أحد على الاهتداء إلى مكانها . لذلك لم يبق إلا أن تستغل ذكاءها وجودها وصبرها لتعرف مكانها دون أن يدلها أحد .

ونظرت إبنة الأركبي إلى حمصة الباكية ووقفت تفكر : ان بنات حواء عوالم مغلقة على الألغاز والأسرار وهن حين يبكين يفتحن صدورهن وتتناثر المخبئات التي يصنعن من سعادتهن أغطية لها . وربما أفادني حديثي مع هذه الباكية في أن أجد علامة في الطريق إلى أمي وإن كنت لا أتوقع أن أجد هنا أمي . وتحركت نحو الفتاة الحزينة ومضت تربت على ظهرها وتقول لها قومي يا عزيزتي إلى الداخل ودعيني أصفف لك شعرك وأخفف عنك حزنك . وقالت الضيفة لحمصة : أين المشط ؟ . . فقالت حمصة للقطة احضري المشط يا كديسا . فتساءلت القطة هل آتي به من خلف صوامع الغلال . . وهنا صرخت فيها حمصة وهي تدلها على مكان المشط . ثم نادت : احضري العطور . . فتساءلت القطة هل آتي بها من خلف صوامع الغلال فأسرعت حمصة تقول لا يا قطتي وتصف لها مكان العطور .

وهكذا ظلت القطة تتساءل كلما طلبت حمصة شيئا هل تأتي به من خلف صوامع الغلال وحمصة تصرخ غاضبة حتى أحست الضيفة أن خلف الصوامع شيئا لابد أن تراه فأبدت هذه الرغبة ثم أصرت على رغبتها أمام رفض حمصة وإصرارها هي الأخرى على عدم وجود شيء هناك وجحظت عيون ابنة الأركبي وهي ترى رأس أمها فركعت تبكي وتقبل الرأس ، تقبل الدمامة والبشاعة وأصرت في أعماقها على الانتقام فانطلقت إلى المزرعة حيث كان الإخوة السبعة يعملون فشكت رأس كل منهم بابرة مسحورة فتحولوا إلى سبع أبقار .

وسارت إبنة الأركبي سعيدة بانتقامها هنا وهناك . . . وفى قرية مجاورة وجدت إعدادا عظيما لعرس كبير . فان حسن كاشف كبير الناحية سوف يتزوج وهو يريد أن يكون مثلا لا ينسى كما أنه سيدعو الناس من جميع القرى فهو بغير توسيع صلاته مع الناس لن ينجح فى تزويج أخواته السبع الجميلات .

واتجهت الأركبي الصغيرة إلى (حسن كاشف)وقالت له : إننى أهنئك على عرسك وأتمنى أن تقام الأعراس فى القريب من أجل أخواتك السبع الجميلات وقد سمعت أحاديث عبيدك عن الولائم التى سوف تقام وعن رغبتكم فى شراء أبقار لذبحها وإنى أعرف مكانا تجدون فيه أبقارا طيبة سمينة لا نظير لها وهى كذلك ترعى ولا صاحب لها. فتعجب الكاشف واهتم بها وهى تصف له مكان الأبقار .

وبعد لحظات كان أهل الكاشف قد عادوا يسوقون البقرات السبع وقام العبيد بتقديم العلف والماء لها وكانت حمصة تجلس فى أعلى نخلة تراقب أخواتها فى محنتهم بينما العبيد ينشدون :

فلترو الأبقار بطونها بهذا الماء

حتى تصبح سائغا للآكلين

فترد حمصة بصوتها الرخيم من فوق النخلة العالية :

لا كان هذا الماء ريا لبطونها

بطون أخوة حمصة السبع

وسمع العبيد غناءها فاعجبوا به وطربوا ولكنهم استاءوا أن تلعن في غنائها موائد سيدهم فأسرعوا للكاشف يقصون عليه ما فعلوا وسمعوا

فقال لهم : سوف آتى معكم لأشاهد كل شيء بنفسى . وتحت الشجرة غنى العبيد وأجابت حمصة من فوق النخلة . ونظر الكاشف فبهره جمالها وسحرته أنغامها فدعاها للنزول ولكنها رفضت فى خوف فأمنها على حياتها وعلى عرضها وأقسم لها على ذلك . وهنا نزلت حمصة وقصت حكايتها لحسن الكاشف فتألم لمأساة اخواتها الما شديدًا ، هؤلاء الذين تعرضوا للذبح لولا مصادفة حضوره لسماع صوت الفتاة الجميلة وكانت ابنة الأركبي قد اطمأنت على انتقامها وانصرفت إلى بيتها .

وفى طريق عودتها مرت ابنة الأركبي على بيت حمصة لتأخذ رأس أمها وبينما هى فى طريقها إلى الجبل كانت (فانا) وابنتها مختبئتين بين فروع شجرة فى انتظار عبور الأوركبي . . ومرت الأركبي وهى تحمل رأس أمها فانقضت عليها المتربصتان وأوقعتاها وشدتا وثاقها ، ولم تستطع الأركبي الصغيرة أن تجد الأمان إلا بعد أن تمتمت وهى تمسك بالصرة التى بها عظام عائشة حتى عادت المرأة بعد أن تجمعت عظامها وكساها الجلد . وقالت الأركبي الصغيرة ان من محاسن الصدف ان الاركبي لم تلق بعظمة الحوض بعيدا فبغير هذه العظمة يستحيل إعادة الحياة إلى الكائنات وحملت (فانا) أمها على ظهرها ومضت إلى بيتها فى أقصى القرية وظلت تحسن اطعامها والعناية بها حتى دبت الحياة الحقيقية فيها وعادت إليها نضارتها وقالت فانا لأمها بعد أن شرحت لها أسلوبها وأسلوب زوجها الراحل إنك بعد أن تعود إليك صحتك ستعودين فلا تقولى لأحد ما قمت به نحوك ولا تبحثى عني

بعد عودتك ولا تبخلي يا أمي على سائلة بصدقة فقد أكون أنا تلك السائلة .

وخرجت القرية تبحث عن الأركبي في كل مكان إلى ان وجدوها خلف الجبل فأتوا بها إلى قصر الكاشف . وهناك طلبوا منها أن تعيد الأبقار إلى حالتهم الأولى وإلا تعرضت للعذاب والهلاك . وهنا طلبت الأمان . فقال الكاشف اننا نقدر انك فعلت فعلتك لحرقتك وعذابك بموت أملك . والآن وقد تحقق انتقامك فيجب أن تعيديهم بشرا ولن نمسك بسوء . واخرجت الاركبي ابرتها المسحورة وشكت رؤوس الأبقار فعادوا كما كانوا فتيانا أقوياء كالأقمار في بهائهم ونضارتهم .

ونظرت القرية مشدوهة إلى إخوة حمصة . إن جمالهم فوق ما يتصور العقل وهذا القوام الممشوق والأصوات العميقة وهذا الدفء . . يا لله . وتزوج إخوة حمصة بأخوات حسن الكاشف واما أكبر أخواتها فتزوج من تلك التي كانت الإعدادات من أجل عرسها . أما حسن كاشف فقد تزوج حمصة وعاش الجميع في سعادة غامرة . . . .

فتاة الحصن

كان لسبعة من الإخوة الذكور أخت واحدة باهرة الحسن وقد خاف إخوتها من ان يغرى حسنها ولين طبيعتها من يعتدى على عرضها فبنوا لها بيتا عند أقصى حدود المدينة على مشارف الصحراء وجعلوا بالبيت سبع حجرات متتالية لابد أن تمر بها جميعا لتصل إلى الحجرة الداخلية حيث تقيم الفتاة الحسناء وقد وفروا لها كل ما تطلب وما تحتاج إليه من طيبات .

وانتشر خبر حسنها فى كل مكان وأصبح جمالها إلهاما للشعراء يدقون الدفوف على ذكرى محاسنها ويعددون أوصافها حتى وصل إلى سابعّ بلد . وتمنى كل شاب ان يحظى بنظرة منها ولكن كيف السبيل إليها وهى خلف سبع حجرات يحرسها سبعة من الرجال الاشداء ولا امل فى ان يحتاجوا لأحد فيطلبوا شيئا وينال الذى يعطيهم مايحتاجون إليه أشرف صداقتهم لأن الخير عند الفتاة واخوتها كثير فلديهم سبع من السواقى .

وجاء شاب ماجن كثير الحيل من بلاد بعيدة فظل يدور حول البيت دارسا لمنافذه وظروفه فعرف متى يخرج الإخوة ومتى تهدأ الحركة فى الطريق وترصد بالمكان فما وجد إلا أن يتبعه إلى الصحراء حيث يحمى جدار البيت الحجرة السابعة التى تؤوى الفتاة ، وظل يحفر الجدار أياما متوالية حتى استطاع أن يرى الفتاة الجميلة وظل يهمس لها بكلمات ناعمة ساحرة لم تتعودها حتى لانت له فحادثته وعبرت

له عن عواطفها نحوه . وفى سكرة من سكرات الهوى لم تقاوم خلد أنغامه فأسلمت له أغلى ما تملك وتركها ومضى مبتعدا وهى تتوقع عودته فى اليوم التالى كما عودها ولكنه لم يعد وأسلمها للحسرات .

وعلم اخوتها أنها حبلى وكانوا قد استقروا إلى خطة قديمة هى ألا يبرموا أمرا إلا باتفاق وإجماع لذلك تناقشوا حول ما حدث لأختهم ولكنهم لم يتفقوا على قرار قتلها ولا اجهاضها بل أن اكبر اخوتها عرض عليهم حلا هو ان يخرج فى جولة يعود بعدها بعشيقها وقد يتزوجها أو يعود من دونها .

وخرجت الفتاة تحمل طفلها مع أكبر اخوتها لتفتش فى أنحاء العالم الواسع الرحيب على شاب بلا معالم ولا صفات محدودة فكل ما ذكرته الأخت من أوصاف لا يحدد شكلا لانسان يمكن معرفته من بين الامواج البشرية التى تملأ آلاف السبل والطرقات . وكان أخوها يحمل دفا ويقف فى كل ميدان ويدق الدف بايقاعات حزينة ويغنى أغنية تقطع الاكباد :

يا أيها الذى مضى مبتعداً أمدد لبائس يداً — فإننا نحمله نصونه ، فهل ترىتعود أم تخونه . . وانت اين؟ «وكانت الأم الباكية حين يجتمع الذل والهوان فإذا كلّ بصرها من التفتيش همست فى أذن اخيها : إنه ليس بينهم فيمضى إلى مكان آخر وهى تتبعه وقد حملت طفلها الذى فر أبوه فى جبن . واستمّرتالأم الصغيرة تنتقل مع أخيها الصغير من مكان لآخر إلى أن وصلا إلى القرية السابعة وبينما هو مستغرق فى غنائه الحزين نظرت الفتاة من خلف الوشاح الذى يخفى وجهها لترى الناس ولا يرونها فرأت فتاها وهمست لأخيها بما عرفت وأشارت

إلى الفتى فرآه أخوها واستمر فى غنائه وعيناه لا تفارقان الفتى وبعد الغناء انفض الناس وتفرقوا فى كل اتجاه وتبعت الفتاة وأخو هاذلك الفتى إلى أن دخل بيته فعرفا داره وتفرقوا امرا .

وسارا فى طرقات المدينة إلى أن التقيا بسيدة عجوز تجلس على باب بيتها فاقتربا منها وتحدثا إليها وأطعماها مما معهما . وقد انصرف الناس عنها . ولأنها لم تكن تحدثت إلى انسان منذ عهد بعيد فقد مضت تثرثر بكل ما تعرف . وبينما هى منطلقة فى ثرثرتها مر الشاب الماجن من أمامها لبعض شئونه فأشارت الفتاة هامسة للعجوز ان تحدثها عنه .

وكأنما كانت العجوز ظامئة إلى من يستمع إليها فقالت : إن هذا الشاب هو أكبر سبعة من الإخوة وليس لهم إلا أخت واحدة ومن خوفهم عليها أسكنوها فى بيت مكون من سبع حجرات متداخلة وجعلوا مقامها فى الحجرة الأخيرة وتقوم على خدمتها جارية تدخل بالطعام والشراب فى كل موعد طعام أو شراب ومن عادتها الانتظار إلى الخلف . والذى يريد أن يصل إلى الفتاة بالرغم من كل هذه الاحتياطات يستطيع بسهولة .

وسألاها كيف يمكن ذلك ؟ فأجابت : على الشخص الذى يريد الدخول إلى الفتاة ان يسير خلف الجارية وكلما فتحت بابا افتح أنت بابا وكلما أغلقت بابا اغلق الباب التالى لها . فإذا ما دخلت حجرة الفتاة لتضع الطعام ادخل واختبىء خلف الباب عندئذ ستغلق الجارية الباب بعد خروجها ولا تراك ثم تستمر فى فتح وغلق الأبواب على التوالى إلى الباب الأول الذى بينه وبينه سبعة أبواب .

وفى اليوم التالى فعل الفتى مثلما علمته العجوز و فى هذه المرة لم يحمل اللف بل كان يحمل السيف . ووضع الفتى السيف بينه وبين

الفتاة وهددها إن صرخت بالقتل فأطاعته خائفة. ومر الليل بطوله ولم يغمض لها جفن ولا نام الفتى وظل السيف بينهما شاهدا .

وفى الصباح دخلت الجارية ومعها الطعام والشراب فوجدت ما أذهلها فصرخت وألقت بالمائدة وخرجت تجرى مذعورة إلى أن وصلت إلى إخوة الفتاة السبعة فقالت لهم لقد رأيت اليوم عجبا : راسين وأربع عيون وأربع من الأيدى .

فثار الإخوة على الجارية ومن غضبهم أطاحوا برأسها وحزوه بسيوفهم وكذلك فعلوا مع سبع من الجوارى بعدها وهنا اضطر والد الفتاة أن يذهب بنفسه ليرى ماهناك فوجد الفتى مستلقيا والسيف بينه وبين الفتاة . . وحذره الفتى من الاقتراب بنية الاعتداء . وأمره ان يحمله وهو على حاله ومعه السيف إلى خارج البيت . وفعل الشيخ مثلما أمره الفتى وحين خرج إلى الطريق اجتمع الناس من كل صوب ليعرفوا كيف دخل الفتى وماذا فعل وماذا يريد .

وتكلم الفتى فحكى حكاية أخته وماحدث من اعتداء عليها ووضح أن فرصة الانتقام بنذالة كانت متاحة له فقد بات ليلته مع أخت الإخوة السبعة فى حجرة مغلقة ولكنه فضل أن يكرم الشيخ والإخوة السبعة والقرية ويحمى على الفتاة عرضها .

وتعجب الناس وقالوا له : لقد كنت عظيماً ومثلا فى الأخلاق السامية فماذا تطلب ؟ قال الفتى : أطلب أن تزوجونى من هذه الفتاه ويتزوج فتاكم أختى ويرعى ابنه الذى تحمله .

وهنا أقره الجميع على رأيه وأعلنوا موافقتهم . وأتى الناس بالفتى الماجن فوبخوه حتى بكى واسترحم . ثم أقيمت الأعراس فى القريتين.

الغزال الخشبى (حكاية نوبية)

رأى أحد الفتيان بنت السلطان فهام بها حبا ، وكان السلطان يريد ابنته لأحد السلاطين أمثاله ، أما ابنته فقد رأت الفتى فعشقته من النظرة الأولى ، ولعلمها أن والدها لن يقبل إلا أحد السلاطين فقد حزنت البنت ولم يعد للطعام والشراب فى فمها طعم ، وصارت الحياة قاتمة فى عينيها ومضى جسمها اللدن الطرى يضمر ويهزل .

وكذلك الفتى عاد إلى بيته فرأى صورة بنت السلطان فى كل شىء حتى أوشك على الفناء وصار يخرج كل يوم ويحوم حول قصر السلطان عله يظفر بنظرة إلى التى سلبته لبه وحرمت على عينيه الغمض وعلى جنبه الرقاد .

وزارته عجوز ذكية ذات حيلة واسعة وخبرات لا حدود لها وسألته عن سبب مرضه الذى عجز الأطباء عن إيجاد الدواء له ، وسكت الفتى فمضت العجوز تطلق لسانه بشتى الطرق وتحكى له الأمثال والقصص عن مستحيلات تحققت حتى قال لها : إن كل شىء ممكن أن يحدث إلا أن معجزة واحدة لا سبيل لها للتحقيق ، تلك هى زواج فلاح من بنت السلطان .

وخرجت العجوز من حجرة الفتى المريض وبقيت فى البيت زمناً طويلا تتحدث مع أمه الطيبة التى تورمت عيناها من البكاء على حال ابنها وقالت لها : إن البكاء لن يفيد ابنك . . . يجب أن نجد وسيلة

لسعادته . . . قالت الأم : إننى أفدى هذا الفتى الحبيب بنور عينى لو كان فى هذا شقاؤه . . . فقالت العجوز : سلم الله لك نور عينيك إن المسألة أبسط من ذلك كل ما تحتاج إليه الكتمان والتضحية .

ونظرت العجوز إلى صندوق فى الحجرة وقالت للأم : لو وجدنا نجاراً بارعاً يكمل هذا الصندوق على صورة غزال لوجدنا الحل الذى يشفى ابنك مما به من آلام وعلل وقالت الأم : إن من أهلى نجاراً هو أعظم نجارى البلد ، وهو يمتاز بالصمت والكتمان الشديد فهو لن يفتح فمه بسر نأتمنه عليه – وبعد أن انصرفت العجوز الداهية ، أسرعت الأم إلى النجار وطلبت حضوره للبيت ، وأسرت إليه برغبتها فى تحويل الصندوق إلى تمثال لغزال وأن يظل هذا الأمر سراً بينهما ، فمضى النجار يعمل فى صمت حتى أكمل الصندوق على الهيئة المطلوبة وأخذ أجره وانصرف .

ودهشت العجوز حين رأت الصندوق كما تمنته جمالا ودقة وإتقاناً وحضر صانع الحلى فأعاد صياغة كثير من حلى الام إلى أجزاء تزين الغزال الخشبى حتى بدا فى أجمل زينة .

وفى اليوم التالى وضعت العجوز غزالها الثمين على ظهر حمار ومضت إلى قصر السلطان وطرقت الباب ففتح لها الحراس وعرفوها فكثيراً ما أتت إلى السلطان لتحل له مشكلاته أو لتصف العلاجات مما يصيبه من أمراض – وأدخلها الحراس إلى الملك فأكرمها واحتفى بمقدمها فلم تضع العجوز وقتاً بل أسرعت تقول للسلطان :

إننى سأذهب للحج إلى بيت الله الحرام ، وأريد أن أحفظ هذا

الغزال عندك إلى أن أعود ، فهو شيء ثمين ورثته وظللت صائنة له بحيث لم يره أحد قبل اليوم - ولن أجد بيتاً أكثر أمناً من قصرك ولا إنساناً أثق فيه مثلك - لذلك أرجو أن تحافظ على هذا الغزال إلى أن أعود .

فرحب السلطان بطلبها ووافق فى الحال ، هنا أضافت العجوز أنها تتمنى أن يكون الغزال فى حجرة بنت السلطان حتى لا يعبث به أحد ويكون فى رعايتها . . . فقال السلطان :

إننى أوافق على طلبك هذا ، لا سيما أن هذا الغزال الجميل قد يسليها ويمتعها ويسرع فى شفائها - فقالت العجوز . . . لقد نسيت أن أخبرك أنه غزال ساحر فعلا ، يملك القوى على إنقاذ الناس من أمراضهم وقد عاش جدى سنين لا حصر لها لأنه كان معتادًا أن يكون آخر ما تقع عليه عينه قبل أن ينام ، وأول ما تقع عليه عينه حين يستيقظ هو هذا الغزال . .. . وأبى (ألف رحمة عليه) - تعرف كم من السنين قد عاش . . . قال الملك : حقا أيتها الجدة لقد عاش سنين طويلة .. . قالت وهو أيضاً أخذ عن أبيه هذه العادة . . . فابتهج السلطان وسعد سعادة غامرة وأمر حراسه أن يحملوا الغزال إلى حجرة ابنته . . . وودعته العجوز وخرجت من عنده وعادت إلى الأم فطمأنتها أن ابنها الآن عند سرير بنت السلطان .

وفى الليل بعد أن نام كل من فى القصر ، وأغلقت الأبواب خرج الفتى من الصندوق وحيا الأميرة فى أدب واحترام ثم اعتذر لها بأنه لن يقوى على الكلام فقد أرهقه السهر .. . ورأته نحيلا ذابلا مرتعشا وهى التى رأته فتى قويا رائع الخطو وعرفت فيه الإخلاص لحبها

ورأته يبكي فسألته : لماذا تبكى أيها الضيف الكريم . . . فقال : لأنى أراك ذابلة نحيلة . . . قالت : وأنت أيضا قد صرت ضامر الجسم نحيلا – قال لها : هو السّهر والفكر والشوق الذى لا يقاوم .. إننى منذ رأيتك لم أعد أعرف للطعام أو الشراب أو النوم طعماً . . . وأنا أعرف أنه لا أمل فى أن يتزوج مثلى من بنت السلطان .

وأحضرت الأميرة طعاما فأكلا ،وسرى الدم فى عروقهما ،وعندما صاح الديك أدخلته إلى الصندوق ونامت ، فأتى الملك ووجد ابنته مبتسمة وكل يوم كان يجدها أفضل حالا من اليوم السابق إلى أن أتت العجوز تطلب الغزال

وعرض عليها الملك آلاف الجنيهات لتترك الغزال ولكنها رفضت فقال لها – أنت على حق فإن ابنتى قد صارت قوية الجسم متوردة الخد ناضرة بفضل الغزال العجيب ثم قال لها : لقد كدت أنسى وأنا اطلب منك أن تتركى الغزال أن أمنحك مكافأة عظيمة لأنك شفيت ابنتى . . أطلبى ما شئت فلو طلبت نصف ملكى لأعطيته لك . . . قالت العجوز . . هل تقسم لى أن تلبى طلبى .

قال السلطان : أقسم لك برأسى وبكل أجدادى أن أحقق لك أى رغبة إذا كان فى إمكانى مهما كان صعباً .

وهنا قالت العجوز : أطلب أن تزوج ابنتك من فلان ؟ إنه فتى كريم النفس يأكل من عمل يده – وفكر السلطان فى الأمر وقد تعود أن يفى بوعده إذاوعد فوافق فى الحال وسارت العجوز إلى بيت الفتى الفلاح وهى تحمله على ظهر حمارها بداخل الغزال الخشبى وما أن

أدخلت الصندوق إلى البيت وأغلقت الباب ومضت تحدث أمه حتى خرج الفتى وهو يرقص من الفرح — وكانت سعادة الام بصحة ابنها وما فيه وبزواجه فوق كل تصور — وأقيم عرس كبير اشترك فيه كل أهل البلد لإعجابهم بأخلاق الفتى وبنى الفتى لعروسه بيتا على شاطىء النيل رأت فيه زوجته أنه أعظم وأكثر هناء وراحة للبال من قصر السلطان .

انتقام الأب (حكاية نوبية)

وهذه حكاية « انتقام الأب » سمعتها من الشاعر النوبى طه أمين عن جلته المرحومة صفية يعقوب من قبيلة حملون من قرية «أبو حنظل».

كان لرجل ابن واحد يعمل معه فى المزرعة حيناً ولكنه فى أغلب الأحيان ينقل الناس من أحد ضفتى النيل إلى الضفة الأخرى على مركبته الصغيرة – وجاء الابن لأبيه يوما قائلا : لقد بلغت مبلغ الرجال وأريد أن أتزوج .

فقال له أبوه : خذ هذه البقرة واذهب إلى السوق وبعها وأحضر ثمن بيعها لأستعد به لتزويجك زيجة لائقة ودفع إليه بالبقرة وتمنى له الفوز والخير .

وفى الطريق قابل مجموعة من الرجال نادوه قائلين : إلى أين تتجه بهذه العنزة ؟

قال : هذه ليست عنزة – هذه بقرة أعطاها لى أبى لأبيعها وأتزوج من بعض ثمنها – فضحك الرجال من قوله هذا وأكدوا له أنها عنزة وأنه سيعرف هذا فى السوق – وتركهم ومضى – وبعد قليل قابل مجموعة أخرى من الرجال ، وسمع نداءهم له : إلى أين تتجه بهذه العنزة قال : هذه ليست عنزة ، هذه بقرة أعطاها لى أبى لأبيعها وأتزوج من بعض ثمنها – وهنا ضحك هؤلاء الرجال أيضا وأكدوا له أنها عنزة .

وكذلك التقى بمجموعات أخرى اكدت له أنها عنزة وليست بقرة فقال لنفسه : إذن فقد خدعنى أبى وسخر منى وأعطانى عنزة على أنها بقرة ـ واقترب من أحد التجار قائلا : هل تشترى هذه ؟ قال التاجر : هذه عنزة صغيرة وأنا اشتريها منك بنصف جنيه ـ ووافق الفتى وترك له البقرة وأخذ نصف الجنيه وعاد إلى أبيه غاضبا وقال له : لماذا صنعت معى هذا ؟ كيف تعطينى عنزة وتقول لى : اذهب وبع هذه البقرة ؟ فقال أبوه : هل قابلتك مجموعات من الناس وأكدت لك أنها عنزة ؟ قال الابن : نعم ـ فقال أبوه وهو يكتم غيظه : إذن ليبارك لنا الله فى الثمن اذهب لقاربك ودعنى أنتقم .

وكان الرجل حزينا على بقرته التى ضاعت منه ، ولكنه لم يضع وقته فى الحزن فقد كان يعرف بلد هؤلاء اللصوص الأربعين الذين خدعوا ابنه ، ورئيسهم الذى باع له الابن البقرة على أنها عنزة فأحضر حماره وجوعه ومنع عنه الماء حتى كاد يهلك ـ ثم أتى بسبعة جنيهات من الذهب لصقها فى حلق الحمار ، وسار به إلى بلد اللصوص وقد لبس ثياباً ممزقة تدل على البؤس والشقاء .

وهناك طرق بابا ، ففتح له فطلب ماء ليسقى حماره ، ودعاه أهل البيت للدخول فدخل ليستريح شاكرا وظل يتحدث معهم حديثا طليا ويعرفهم بنفسه وبمكان مزرعته بلا خداع ـ وأثناء ذلك وضعوا دلوا مملوءا بالماء أمام الحمار ، ولظمئه شرب الحمار بنهم شديد ، وأزال الماء الصمغ من حلق الحمار فوقعت الجنيهات فى الدلو ووجدها أصحاب الدار فتعجبوا من ذلك وأرادوا أن يعرفوا السر فذهبوا بالنقود إلى الرجل صاحب الحمار وسألوه : ما نوع هذا الحمار ؟

لقد شرب فانزل فى الدلو نقودًا ؟ قال لهم صاحب الحمار : خذوا هذه النقود فهى من نصيبكم ، إن من عادة حمارى أننى أجوعه ثلاثة أيام فيخرج لى جنيهات أنفقها ، وبالصدفة كان هذا موعد إخراج الذهب ؟ وقد حدث هذا فى بيتكم فهو من نصيبكم أما أنا فشاكر لكم حسن استقبالكم لى .

وهنا قالوا له : نريد أن نشترى هذا الحمار ـ قال : إننى لا أبيعه فهو مصدر رزق حياتى ، ثم إنكم لن تستطيعوا تقدير ثمن مناسب له ـ فظل أصحاب الدار يتوسلون ويرجون ويرفعون الثمن حتى وصلوا إلى خمس من مئات الجنيهات فباعه لهم وأخذ نقوده وعاد إلى بيته وأخفى النقود عن زوجته ، وقال لها : إنهم سيكشفون حيلتى ويأتون إلى فى مزرعتى فقد وصفتها لهم ، وسوف يمرون بالضرورة من أمام بيتنا فإذا رأيتهم مقبلين فانتظرى بعض الوقت ثم أعدى الشاى بعددهم وأحضريه إلى المزرعة ـ وفهمت الزوجة .

أما اللصوص فقد حبسوا الحمار ومنعوا عنه الطعام والشراب ، ثم فتحوا الحجرة التى حبسوه فيها فوجدوه قد مات ـ فحملوا عصيهم وسكاكينهم وساروا إلى البائع ليقتلوه ـ وذهبوا إليه فوجدوه يفلح أرضه وقد ربط بجانبه ثعلباً ! ! وما أن رأوه حتى هجموا عليه وصرخ فيه رئيسهم : لقد خدعتنا وقلت إن الحمار يخرج الذهب وظهر أنه ليس كذلك ومات الحمار .

قال لهم الفلاح : لقد كنت جوعته وعطشته ثلاثة أيام ورأيتم الذهب بأعينكم وكان من الواجب أن تطعموه حتى يسترد صحته ثم تمنعوا عنه الطعام والشراب لا أن يستمر جوعه وعطشه حتى الموت . .

لقد اخطأتم ـ ولكن لا تهتموا . . . سوف تعودون إلى بلادكم راضين
ثم نظر الرجل إلى الثعلب المقيد وقال له : اذهب إلى البيت وقل
لزوجتى تحضر أربعين كوبا من الشاى وأطلق الثعلب ، فقال له
الرجال : هل يمكن للثعلب أن يفهم قولك ؟ إنك تخدعنا ـ ولكنهم
فوجئوا بزوجة الفلاح تأتى ومعها أكواب الشاى ـ فشربوا فى
دهشة وقالوا له : نريد أن نشترى هذا الثعلب قال لهم : إننى أعجب
لكم ، كلما وجدتم شيئا تريدون شراءه ـ ثم سار بهم إلى بيته فوجدوا
الثعلب مربوطاً بركن من البيت ـ وهو ثعلب آخر ، فالثعلب الأول
قد انطلق إلى الجبل ـ وبعد مساومات اشتروا منه الثعلب بمبلغ كبير ـ
وقال لهم الفلاح ، لقد أخذتم أعز شيئين عندى وهما الحمار والثعلب
ولم يبق عندى إلا الناى السحرى (أَجِيْن فُوكِى فُوكِى) .

وذهب اللصوص إلى بلادهم ، وقبل الحى بقليل أطلقوا الثعلب
وقالوا له : اذهب إلى البيت وقل لهم يعدوا الطعام وانطلق الثعلب إلى
خلف الجبل ـ ووصل اللصوص إلى البيت وسألوا : أين الطعام ؟ ألم نرسل
الثعلب ليقول لكم إننا مقبلون ؟ وقالت النساء إن الثعالب لا تتكلم ـ
وتأكد اللصوص أن الرجل خدعهم للمرة الثانية .

وكان الفلاح يعلم أن اللصوص سوف يعودون إليه ، فهولذلك
أتى بقربة وملأها بدم حيوان وربطه على بطن زوجته تحت ثيابها وبعد
قليل بينما هو فى مزرعته وبيده الناى ينفخ فيه أتى اللصوص غاضبين
وقالوا له : إننا أطلقنا الثعلب ولكنه فر ولم يذهب إلى البيت . قال لهم
كان عليكم أن تذهبوا به إلى البيت فيعرفه ثم يأتى الأمر بعد ذلك لا أن
تطلقوه فى بلد لم يعرفها ـ لقد ضيعتم الثعلب علي وعليكم .

قالوا له : إنا لا نصدقك – لذلك قررنا قتلك – قال الرجل : قتلى آه . . . إن القتل يذكرنى بأهمية الناى إنك تنفخ فيه عند أذن أى إنسان مقتول فيعود إلى الحياة – ولم يصدق الرجال – وأثناء ذلك أتت الزوجة تحمل الشاى فهجم عليها زوجها وشق بطنها بسكين فسال الدم غزيراً – فمضى يزمر عند أذنها حتى بث فيها الحياة ، بين دهشة اللصوص .

وقالوا له : نشترى منك « أَجِينُ فوكى فوِكى » قال لا ، فلن يبق لى شىء إذن – ولكنهم ألحوا عليه فقبل البيع ، فأخذوا الناى وساروا مبتعدين – ونادى رئيسهم وهمس فى أذنه : لقد أخذت الناى ولم تسألنى كيف يستعمل : هل تريد أن تفسده كما صنعت فى الحمار والثعلب ؟؟ أنت تريد أن تسترد نقودك التى أخذتها منك أضعافا مضاعفة – أليس كذلك ؟ . . . . إذن اسمع جيداً . . اذهب إلى مولد من الموالد الكبيرة . . . وفى الزحام أقم حلقة ذكر وعندما يندمج رجالك فى الذكر أخرج سكينك واقتلهم جميعا . سيحدث اضطراب فى زحام المولد ويتجمع الناس – عندئذ انفخ فى الناى عند أذن كل من رجالك فتدب فيه الحياة .

وأعجب رئيس اللصوص بالفكرة وأسرها فى نفسه ، ثم كان يوم المولد فأقام حلقة ذكر ، وأخرج سكينه وقتل جميع اللصوص الأربعين واجتمع عليه الناس – فأخرج نايه وظل ينفخ وينفخ ولكن الموتى لا يعودون للحياة على أرضنا . . . .وتكاثر الناس عليه وأوثقوه بالحبال وساقوه إلى مخفر الشرطة حيث حوكم وشنق – وفى قرية بعيدة كان الفلاح يستعد لزواج ابنه من فتاة اختارها له .

الحمامتان (حكاية نوبية)

عاش رجل فى بيت واحد مع زوجته وأخته الصغيرة – وكان يوزع حبه بينهما – ولكنه عن غير قصد منه كان يزيد من اهتمامه بأخته مما بعث الغيرة فى قلب الزوجة ومضت فى حسدها تفكر فى التخلص من الاخت التى انتزعت زوجها – وبدأت أخته تنضج وتنتقل من مرحلة الطفولة إلى الصبا إلى بشائر الشباب – وهنا بدأ الرجل يحضر لها الثياب ويهتم بزينتها وحليها حتى يهيىء لها قدوم الخطاب يطلبون الزواج منها وبعدها يفرغ لزوجته .

وزاد اهتمامه بأخته من نار الغيرة فى قلب زوجته منها ، وأكلت النار قلبها وفكرت فى الخلاص سريعا من أخت زوجها – وفى قرانا نَعرف أنواعا مختلفة من الخبز الكابدو والنانرى والأبلزيه ولكن كل هذه الأنواع لا تضارع (الألبود) هذا الخبز الشهى الشذى – فرغيف الألبود يحتمل كل الإضافات الغذائية لذلك وضعت الزوجة بيضتين من بيض الحمام بداخل رغيف الألبود ، وقدمت الرغيف إلى الفتاة بعد أن جوعتها وشغلتها عن الطعام بأعمال البيت .. . وما أسرع ما أكلت الفتاة الرغيف دون أن تهتم كثيرا بمضغ اللقم .

ومرت الأيام والبيضتان مستقرتان فى أحشاء الفتاة ، ثم لم تلبث أن أفرخت حمامتين ترفرفان – بأجنحتهما فى بطن الفتاة وهى لاتعلم سببا لما أصابها ، أما الزوجة فمضت تسرّ إلى زوجها أن أحوال أخته تدهشها فهى كسول تحب النوم كأنها حبلى .

ومضى الرجل إلى أخته يطلب منها أن تمرر يديها على رأسه وتدغدغ شعره كما تفعل الجدات مع الأحفاد الصغار فهو بهذه الوسيلة يستطيع أن يضع رأسه على بطنها من غير أن يتهمها أطول مدة ممكنة ويحس بحركة الجنين إذا كانت كما لايتمنى لها أن تكون . وجلست الفتاة ووضعت رأس أخيها بعيداً قائلة له إن الجو جميل لو قمت بنا نجلس تحت أشعة الشمس الهادئة وابتسم أخوها ووافقها على رأيها فانتقلا إلى حيث اختارت ، وبعد لحظة أحست بانتفاضة فطلبت من أخيها الانتقال إلى الظل زاعمة أن الحر أقسى مما توقعت ظل الأخوان ينتقلان من مكان إلى آخر إلى أن أحست الفتاة بالتعب وسال العرق من وجهها ولم تقدر على الحركة فوضع أخوها رأسه على بطنها وأحس الحركة والانتفاضات وهنا جحظت عيناه وصرخ فيها وظل يضربها والدم يسيل منها وهو يصرخ فيها يا (فاجرة) ثم صعد بها إلى الجبل حيث ألقى بها خلفه وقيد الأخت بالحبال وتركها طعاما للضباع وعاد إلى المزرعة .

ومرت الأيام وكلما سأل الناس الزوج عن أخته أجابهم بأنه لا يدرى (ربما خرجت لتسبح فأكلها تمساح) وكان يبكى بحرقة ولوعة لا حزنا بل أسفا على حظه العاثر .

وظلت الفتاة تبكى فى قيودها وتدعو الله أن ينقذها فأتى فأر ومزق الحبال التى تقيدها ، وعاشت الفتاة على الفاكهة وأنجبت حمامتين فقامت تعتنى بهما إلى أن كبرتا ثم خرجتا تبحثان عن أبيهما وكان يعمل فى المزرعة .

وبينما كان أخوها فى مزرعته يضرب الأرض بفأسه بقوة والعرق يتصبب منه أتت إحدى الحمامتين ورفرفت بأجنحتها أمام عينيه

فانتصب واقفاً ، فإذا الحمامة الأخرى تخطف عمامته وتطير وهو يتتبعها فى اتجاه طيرانها – وكانت الحمامة تطير ببطء حى تعطيه فرصة المتابعة فلا ييأس منها ، ووصلت إلى أمها وألقت العمامة على رأسها .

وتعجب الفتى حين رأى أخته فى نضارة وصحة والخير يجرى من تحت قدميها – وتأكد من براءتها وعرف منها كيف أكلت رغيف الألبود – وأسرع إلى زوجته الشريرة وتأكد من غدرها وخيانتها . . واستمع إلى توسلاتها ولكنه لم يتأثر ببكائها ولم تخدعه استجداءاتها وطعنها طعنة نجلاء قاتلة .

حبة الرمل المسحورة (حكاية نوبية)

(لتوضيح أن القوى الغَيبيَّة المنظورة تقف فى خدمة من يملكها سواء أكان مالك القوة الغيبيّة صالحا أو شرّيراً) .

خرج فتى والناس نيام ليتوضأ من النهر ، وفى طريقه رأى فوق شجرة ، ديكا أبيض كأنما هو موجة من نور . وأنصت إلى صياح هذا الديك فأحس بأنغام أذانه كأنما هى موسيقى علوية ساحرة ، واختفى الديك بعد أن أذن للصلاة . ونظر الفتى حوله فى دهشة ولكنه لم يضع وقته ومضى للنهر حيث توضأ وصلى الفجر وكتم سر الديك فى قلبه . وكذلك رأى الفتى هذا الديك فى الأيام التالية وأنصت إلى صياحه . وذات يوم انتظر الفتى تحت الشجرة حتى إذا ما ظهر الديك تسلق الفتى الشجرة وانقض عليه وسار به إلى النهر ليتوضأ ويصلى ثم يعود إلى البيت حيث ينال غذاء طيباً

وفى طريقه إلى النهر قابل الفتى رجلا يهودياً اشترى منه الديك بجنيه من الذهب . وسار الفتى إلى النهر بعد أن علق الجنيه برباط سراويله وتوضأ وصلى .

ولما كان الفتى عاطلا لا عمل له فقد جعل تسليته أن يتتبع اليهودى فرآه يدخل بيته ويقول لزوجته : سأرسل إليك أحد خدمى من متجرى ومعه إشارة نتفق عليها الآن فأعطه الديك مشوياً ، وحذار أن تلقى بأمعاء الديك فمن أجل تلك الأمعاء دفعت فى هذا الطائر ثمن حظيرة كاملة للدواجن .

ومضى الفتى يسائل نفسه : لماذا خرج اليهودى فى هذا الوقت ؟ هل كان هو الآخر يتربص بالديك لاصطياده ؟ ولماذا ألح على الشراء ؟ إن أعظم ديك فى حجم العنزة لا يزيد ثمنه عن مجيدى واحد فلماذا دفع اليهودى جنيها كاملا ؟ وأنصت الفتى إلى حديث اليهودى مع زوجته فرآه يطلب منها أن تحتفظ « بالقناصة » . . . ثم يهمس فى أذنها بكلمة السر . وكرر عليها الكلمة هامسا ، ومضى . أما زوجته فخافت أن تنسى الكلمة فظلت تروح وتجىء وهى تتمتم بكلمة السر حتى حفظها الفتى من تكرارها .

وبعد قليل شم الفتى رائحة الديك المشوى فمضى يطرق الباب ويقول كلمة السر ويحمل الديك إلى بيته . وهناك أكل حتى شبع . وبينما هو يعبث بأمعاء الديك سمع صوتا ينبع من أحشاء الديك : أنا عبدك وطوع أمرك . . . فطلب الفتى قصراً وخدماً . وأن يتزوج أجمل فتيات البلد .

وقال اليهودى لزوجته وهو يكاد ينفجر غيظاً : لقد سُرق الديك ولكنى سأعرف من الذى سرقه لأن النعمة ستناله وتفوح روائح ثروته وقد صدقت نبوءة اليهودى فها هو القصر قد ارتفع فى جانب من القرية والحرير والذهب والفاكهة تملأ أرجاءه .

وسار اليهودى تحت القصر مناديا : تخلصوا من ثيابكم القديمة أنا أشتريها بثمن طيب . فأرسلت الفتاة الجميلة جارية من جواريها ومعها الثياب القديمة التى كانت لزوجها قبل أن تقيم معه فى القصر . وبعد قليل عادت الجارية بقطع من الذهب - وبعد لحظات أخرى كانت الفتاة الجميلة عند أهلها ، والقصر والحديقة والخدم قد

تلاشوا وعادت الأرض كما كانت فقد استولى اليهودى على حبة الرمل المسحورة .

وعاد الفتى لم يجد القصر فجلس يندب سوء حظه – وبينما هو فى بكائه ونواحه مر عليه كلب جائع ففك الفتى الصرة التى معه وأخرج لقمة قدمها للكلب قائلا فى ترحاب ، أهلا بشيخ الكلاب . وأكل الكلب وظل واقفاً بجانبه . ومر قط فأعطاه قطعة من الخبز وهو يقول أهلا بشيخ القطط . وكذلك قدم لفأر لقمة وهو يقول : مرحبا بشيخ الفئران .

وأكل الثلاثة ما قدمه الرجل إليهم وأعجبوا بكرمه واحترامه لهم ورثوا لحاله كما رثى هو لحالهم . وقالوا : طالما أن كرم هذا الفتى هو الذى جمعنا كما لم يحدث فى التاريخ كله فهذا دليل على أننا نستقبل يوماً طيباً ، ولابد من أن نصنع شيئا من أجله ونعيد إليه حبة الرمل المسحورة .

وذهب الثلاثة إلى بيت اليهودى وتجولوا فى كل مكان . أما الكلب ففتش فى الحديقة والقطة بحثت فى المطابخ وتحت الأسرة وخلف الدواليب ، والفأر بحث فى الشقوق والجيوب ، لذلك عاد يقول لصاحبه : إن اليهودى يخفى حبة الرمل فى فمه حين ينام . فقال القط . أنا أبول على ذيلك وأنت تدخل الذيل فى أنف الرجل وهو مستغرق فى نومه . وحين يعطس اليهودى تقع حبة الرمل من فمه فتلتقطها ونعود بها سريعا .

وبعد لحظات كان القط والفأر يعودان إلى صديقهما بحبة الرمل ويمران فى اتجاه الفتى . وكان أمامهما نهر لا بد من عبوره فقال الكلب

أنا أحمل حبة الرمل فى فمى فقال القط : يا سيدى الكلب العظيم ، إن أسنانك متباعدة وأنت كثير النباح وأخاف أن تقع الحبة من فمك . وقال الفأر : دعونى أحمل حبة الرمل فقد عرفت مكانها وأتيت بها . . فزمجر القط وكاد يلتهمه بعد أن يفسخه قطعتين فسكت الفأر مرتعشا وكذلك نبح الكلب فى وجه القط وقال له : إذا لم أحمل حبة الرمل فلن أنقلكم إلى الشاطىء الآخر فلا أحد منكما يجيد السباحة مثلى .

وهكذا حمل الكلب حبة الرمل فى فمه وركب القط فوق ظهره وركب الفأر فوقهما . وفى منتصف الطريق رأى الكلب سمكة كبيرة فنبح ووقعت حبة الرمل فالتقطتها السمكة وخرج الثلاثة إلى الشاطىء والحزن يمزق قلبهم وجلسوا فى شرود وتأمل . ومر صياد فتعجب من اجتماع الفأر مع القط والكلب فى ألفة عجيبة ، وتساءل عن سبب حزنهم وقال لنفسه : لا شك أن الجوع هو الذى جمعهم وأحزنهم واستمر يحادث نفسه : طالما أن مخلوقات لا تلتقى أبدا قد التقت اليوم فهذا دليل على أنى أستقبل يوماً طيباً لذلك سوف أتبرع بأول سمكة تخرج لى لهؤلاء الأصدقاء الألداء .

وشد الشبكة فخرجت سمكة كبيرة ألقى بها إلى الثلاثة وعاد يلقى الشبكة من جديد أما الثلاثة فقد انقضوا على السمكة وفتشوا أحشاءها فوجدوا حبة الرمل المسحورة فأسرعوا بها إلى الفتى البائس وفى هذه المرة أصر الكلب على أن يحمل الحبة وقال : نحن الآن نسير على الأرض ، فإذا فرض جدلا أنها وقعت فسوف ألتقطها واستمر فى سيرى . . هيا بنا وبينما هم فى طريقهم عثرت رجل الكلب بشق

عميق فى الأرض من تلك الشقوق المنتشرة فى أرض بلادنا فغضب الكلب ونبح فوقعت الحبة فى الشق . وحاول الفأر أن يتسلل إليه ولكن الشق كان عميقا وضيقا فلم يستطع حتى الفأر ذلك . وفى لحظة خاطفة هبط طائر من السماء ومد عنقه فى الشق والتقط حبة الرمل بمنقاره الحاد وطار فى أفق السماء تاركاً الحزن والحسرة فى قلوب الثلاثة فقد أصبحت المسألة صعبة بل مستحيلة .

وقال القط : عندى فكرة . أختفى أنا والكلب . ويسجد الفأر ويرفع مؤخرته فى اتجاه الشمس ، وسيظن الطائر أن على الأرض قطعة من اللحم فينقض عليها وهنا نقتنصه . وفى لحظة كانت خطة القط تنفذ بدقة وبعد لحظة أخرى كان الطائر ممزقاً متناثراً وحبة الرمل المسحورة مع الأصدقاء الثلاثة الذين عادوا بها إلى الفتى وأعادوا بذلك قصره إليه وزوجته وسعادته وثراءه .

حكاية الفأر ابن الشيخ

كانت زوجة الشيخ صالح فى قلق دائم لأنها لا تنجب ، لذلك كانت تدعو الله ليلا ونهارا أن يمنحها ولدًا جميلا ، ولما لم تتحقق أمنيتها فى الولد الجميل ، تمنت أى ولد ، ولكن هذا أيضا لم يحدث ، فقالت يارب امنحنى بنتا ، فلما يئست قالت يارب أريد أى مولود ولو كان فأرا . . . وهنا استجاب الله – وأنجبت فأرًا فحزنت فقال لها زوجها أنت السبب . ولأنها أم أحست بالحنان نحو الفأر فأسكنته فى أحد شقوق البيت ومضت تطعمه وتسقيه .

وبعد أيام خرج الفأر من جحره بعد أن أصبح قادرًا على الحركة بفضل عناية أمه التى كانت تضع له الجبن الرومى فى الشق . وقال الفأر لأمه : أعدى طعام أبى فالأبناء يذهبون بالطعام إلى آبائهم ولابد أن أحمل طعام أبى حتى لا أكون ولدًا عاقا ، ودهشت (ساله) عند سماعها حديث الفأر وقالت : كيف تستطيع أن تحمل الطعام والشراب وأنت صغير هزيل مثل . . . . مثل ماذا . . . . . أنت فأر . . . فقال لها : ضعى لوحا من الخشب على ظهر حمارنا واجعلى الطعام فى جانب منه والماء فى الطرف الآخر وسوف أقود الحمار . . . هيا أسرعى . . . وأعدت الأم الطعام والشراب على ظهر الحمار وتسلق الفأر ساق الدابة وصعد على ظهرها ثم تسلق الرقبة واختفى فى احدى أذنى الحمار وأخرج رأسه من أذن الحمار ونادى أمه : انظرى سأجعل الحمار يتراجع . . . ويدخل إلى أذن الحمار . . . ولدهشتها رأت ساله الحمار

يتراجع ثم يسير إلى يمين وإلى يسار ويقف فقد كان ابنها الفأر يجلس في مقر القيادة فى الاذن ويدير حركات الدابة . فقالت الام : الحمد لله الذى وهبنى من يحمل الطعام إلى زوجى فى المزرعة . اذهب فى أمان الله .

وسار الحمار فى طريقه إلى مزرعة الزوج ، وكان سبعة من اللصوص يقطعون الطريق فرأوا الحمار وليس خلفه أو أمامهُ أو فوقه من يقوده أو يجره أو يمتطيه فانقضوا على الطعام والشراب وبعد أن انتهوا من وجبتهم ساقوا الحمار إلى مكمنهم يريدون سرقته وهنا وقف الفأر على أذن الحمار وصرخ طالبا النجدة وشهر اللصوص أسلحتهم ونظروا حولهم إلى مصدر الصوت فلم يروا انسانا يستنجد بل رأوا لدهشتهم جموعا تأتى من كل صوب وتحاصرهم فلاذوا بالفرار إلا أن أحدهم لم يستطع النجاة فانهالت الأيدى والنعال على قفاه وظهره حتى تقيأ دماً وساقوه إلى مخفر الشرطة .

واجتمع اللصوص الستة ليفكروا في طريقة للانتقام من صاحب الحمار الذى سبب لهم كل هذه المتاعب ولم يكن صعباً عليهم أن يعرفوا صاحب الحمار . . . إنه الرجل الساذج الذى سمعنا انه أنجب فأرا . . . . لابد أن نسرق بيته الليلة انتقاماً منه .

ولم يكن اللصوص يدرون وهم يتناقشون هامسين أن على بعد قريب منهُم الفأر ينصت من شق فى الجدار . وما أسرع ما عاد الفأر إلى أبويه وقص عليهما أن اللصوص سوف يهاجمون البيت . فقالا معاً فى ضعف وا ستجداء : وماذا نفعل ؟ وهنا وقف الفأر على قدميه الخلفيتين وحرك يديه فى عصبية وهو يقول : دعوهم لى وأنا كفيل

بهم .كل ما أطلبه منكما أن تذهبا إلى فراشكما وأن تتركا لى سبعة مسامير كبيرة وتتركا الموقد مشتعلا . . . ولما كان من عادة والديه أن يستجيبا إلى أوامره مهما كان فيها من شذوذ فقد ذهبا إلى سريرهما وناما ولكن الكرَى فر من عيونهما إلى الأبد .

وترك الفأر مساميره السبعة على النار وذهب إلى بيت اللصوص وسمع كل ما يقولون وسار خلفهم إلى بيته وسبقهم بأن وقف عند طرف السقف . وما ان صعد أول اللصوص حتى أمسك الفأر بمسمار محمى قد احمر وكاد ينصهر من اللهب ، ووضع المسمار على قفا اللص ورأى الدخان يتصاعد من قفا اللص وسمع صرخته المدوية ورآه يقع على الأرض ثم يعدو كالمجنون في ذعر وكذلك فعل اللص الثانى والرابع والخامس ، وصعد السادس فأمسك الفأر بالمسمارين الباقيين وألقاهما على ظهر اللص وسمع عواء الرجل وصراخه ورآه وهو يعدو مذعوراً لا يلوى على شيء من الألم .

واجتمع اللصوص الستة فى بيت رئيسهم صاحب العلامتين وتشاوروا فى وسيلة يؤذون بها الرجل الذى سبب لهم كل هذه المتاعب واتفقوا على ان يلفقوا له تهمة ، يتقدم أحدهم إلى القاضى ويشهد الخمسة الباقون .

وفى يوم الجلسة قال الفأر لابيه : لا تذهب يا أبى ، فأنا سأذهب نيابة عنك ، اكتب لى توكيلا . وكتب الرجل الطيب لابنه الفأر توكيلا عاماً يمنح الفأر كل الحق في أن يتكلم باسمه . وجاء الشرطى ليصحب الرجل للمحكمة فأسرع الفأر يريه التوكيل . وقال الشرطى : ولكن كيف يركب الفأر فوق حمارى ؟ إننى أخاف أن أدوس عليه

دون قصد فيموت . فقال الفأر للشرطى اذهب أنت إلى المحكمة وسألحق بك . وقبل أن يصل الشرطى كان الفأر قد وصل إلى المحكمة ممتطياً صهوة ديك نشيط .

وفى المحكمة مضى اللصوص يلقون اتهاماتهم الملفقة والفأر يجلس صامتا هادئا — وبعد أن سمع القاضى الاتهام وأقوال الشهود نادى على الفأر يسأله عن رأيه — وهنا وقف الفأر يقول : إن هؤلاء الستة رجال هم عبيدى وعبيد أبى . وسأله القاضى : وأين الدليل ؟ قال الفأر : انظر إلى قفا كل منهم ترعلامة أما كبيرهم فعلى ظهره علامتان .

ونظر القاضى إلى ظهر كبيرهم بعد أن خلع له ثيابه فرأى العلامتين فصدق قول الفأر ، وأمر الرجال الستة أن يطيعوا أمر سيدهم الفأر وهددهم قائلا : حذار أن تثيروا شغباً فإن من حق الفأر أن يلف الواحد منكم فى حصير ويشعل النار فيه وفى الحصير ولا يلومه أحد . وأنتم عبيده . . . . . أتفهمون ؟

وفى صباح اليوم التالى كان الرجل الطيب يجلس على فراء خروف فى مزرعته يشرف على العمل بينما ستة من الرجال الأقوياء يتصبب العرق من جباههم وهم يديرون الساقية ويحفرون الأرض ويحلبون الأبقار التى أتوا بها فقد صارت جميع أملاك العبيد أملاكا للفأر وميراثاً طيبا للرجل الطيب .

* * *

وعودة الفارس بعد الاعتقاد باستحالة ظهوره التى نراها فى حكاية الوردة الشائكة نجدها فى الحكاية النوبية « الأسد والفتى العاشق » حيث نجد « فانا » الجميلة وابن عمها البائس الفقير فى حب لا نظير

له وحين يذهب الفتى إلى عمه طالبا الزواج من ابنته يقول له عمه إنه لا يعتقد أن فى الوجود من هوأحق من ابن العم بابنته ولكنه كذلك يريد أن تعيش ابنته فى أمن ورغد ولا يريد أن يلقى بها إلى الفقر والحاجة الذليلة .

ويخرج ابن العم وهو مقتنع برأى عمه فى حزن ويأس وتتسلل فانا إليه وتعطيه حليها وتقول له عندما ياتى الأعراب من الصحراء ومعهم التجارة اركب جملا واذهب معهم وتاجر واربح وعد إلينا واطلبنى من أبى فذهب الفتى واشترى جملا واستعد فى انتظار وصول قوافل الأعراب .

وسار الفتى مع القافلة فلما جاء الليل نام ، وحين استيقظ لم يجد القافلة فقد تركته ومضت فى طريقها وهنا جلس الفتى يبكى حاله بكاء مراً . . . ومر عليه أسد فسمع بكاءه ومضى يدور حوله والفتى لا يحس به وهنا سأله الأسد عن سبب بكائه فقال الفتى انك لن تفهم ما بى فهو داء لا تعرفه الأسود فإذا أردت أن تخدمنى فافترسنى دفعة واحدة بدلا من أن تفترسنى الآلام والأحزان على دفعات قال له الأسد وما اسم هذا الداء قال الفتى اسمه « دولجيد » العشق ثم قص عليه ما حدث بينه وبين فانا وأثناء تقدم الأسد من الفتى كانت قافلة من قرية الفتى تمر من بعيد فرأى أحد أفرادها الأسد ينقض على الفتى وحين عاد للقرية أخبر أهلها بما رأى فعلم الجميع أن الفتى قد مات . وهنا أعجب به الأسد وقال له انك هزيل مريض وقد أحببتك فهل تصادقنى على الوفاء . . إن عندى طعاما كثيرا ومن أجلك لن أقتل إنسانا بل سأهاجم القوافل فيهرب الرجال فنأخذ أنا وأنت الجمال والحمير

والأبقار وكل ما يحملون وتقوم أنت بالطهى والزرع وأقوم أنا بالصيد والقنص .

وعاش الفتى مع الأسد زمناً طويلاً وصار يمتلك مئات الجمال والأغنام والحمير . وذات يوم اقتربت نهاية الأسد وأحس هو بدنو أجله فأشار للفتى عن طريق القرية وأغمض عينه ومات .

وأخذ الفتى الجمال والكنوز وسار إلى قريته فنصب خيمة ومضى يلاحظ أحوال القرية فوجد الزينات استعداداً لعرس كبير ووجد فتاة تقوم بالخدمة فى بيت فانا فناداها ومنحها نقوداً كثيرة ومضى يسألها عن أحوال البلدة وقالت له إن فانا أحبت ابن عمها وانتظرته ورفضت الزواج من غيره وجاء خبر يؤكد أنه مات وأكله الأسد فاضطرت لقبول من أتى يطلب يدها تحت إلحاح أهلها ولان أباها يظن بها السوء فأعطاها الفتى خاتم فانا الذى أهدته له ليذكرها أثناء غيبته وقال لها اذهبى واعطى هذا الخاتم لفانا وعودى وسوف أعطيك مالا كثيراً فأسرعت فقالت لأبيها ضاحكة وهى التى لم تبتسم منذ غاب ابن عمها عن القرية أريد أن أخرج مع صويحباتى للتنزه فوافق الوالد فى الحال وخرجت فانا مع صويحباتها وسارت ناحية الخيمة وخرج الفتى وانتزعها من بينهم فأقبل الرجال مسرعين ليدافعوا عن ابنتهم فانا ، هنا خرج ابن عمها وعرفهم بنفسه . . .ودفع لمن طلب الزواج من ابنة عمه مالا كثيراً تعويضاً عن حقه وتزوجت فانا من ابن عمها . .

الأصبع (حكاية نوبية)

تزوج رجل من امرأة وانجب منها بنتاً وولداً كأجمل مايكونان من جمال وكمال وعلم ابنه طريقة حياته ومهنته أما البنت فقد كانت تقوم بأعمال البيت الداخلية بينما الأم تقوم بملء الوعاء بالماء من النهر والذهاب إلى المراعى والمزارع وبذلك لم تخرج البنت من بيتها أبدًا وقرر الأب الذهاب للحج واصطحب ابنه معه وأمر ابنته بألا تخرج من البيت ومن أجل ألا تضطر للخروج موّن البيت بكل حاجاته من الطعام والثياب وقال لابنته : إذا هزك الشوق إلى وأحسست بالحزن والوحدة فعندى وسيلة تعيد إلى قلبك الفرحة والسعادة هذه الطريقة هى أن تلبسى خير ثيابك من نسيج الحرير وأن ترقصى فى البيت حتى تتعبى من الرقص وتغوص السعّادة إلى أعماقك . وبعد سفر الأب والأخ ظلت البنت تقوم بعمل البيت وكلما أحست بالحزن لبست الثياب الشفافة ومضت ترقص وفى لحظة من لحظات رقصها فى حجرة غير مسقفة كان ابن السلطان يقف بمكان مرتفع فرآها وحزن وذبل وعرفت عجوز سبب ذبوله فقالت له : سأجعلك تسعد بلقائها . قال : إنك لن تستطيعى . . قالت : (نُوُرجْ فِسْكِرْ) أى بعون الله أستطيع .

وذهبت العجوز إلى بيت الفتاة فطرقت الباب وقالت للبنت : أنا عمتك . . وقد أتيت من مكان بعيد ، افتحى لى حتى أستريح عندكم . . ورفضت الفتاة أن تفتح الباب وقالت العجوز هذا ما أخبرنى

به أبوك : قال : إنها لن تفتح لك فخاطبيها بالحسنى حتى تفتح الك
وظلت العجوز تلقى على مسامع الفتاة معسول الكلام والفتاة مصرّة على
رفضها ذاكرة نصائح أبيها - واستمرت العجوز فى محاولتها أياما
متتالية حتى فتحت لها الفتاة باب البيت وأكرمتها واستطاعت العجوز
أن تكسب عطف الفتاة ثم قالت لها ياابنة أخى تعالى معى إلى بيتى
فان لى إبنة فى مثل سنك فادخلا الحمام معاً . . . وأخذت الفتاة إلى
بيتها وهناك اكتشفت الفتاة أن ابنة عمتها المزعومة فتى يحاول الاعتداء
عليها فضربته بقطعة من الخشب ثم أسرعت إلى بيتها . ونشرت
العجوز الخبر فى القرية أن البنت التى سافر ابوها إلى الحجاز كسرت
البيت وذهبت للحمام . . وعاد أبوها من الحجاز وسمع الخبر فأصيب
بالعمى وأرسل ابنه مع ابنته ونصحه أن يذبحها . . . وقصّت
البنت على أخيها القصة فتأثر لحالها وقال لخادمه احضر صيداً نذبحه
وفى لحظة أتاه الخادم بطلبه وملأ بدمه وعاء واضطر إلى قطع أصبع
الفتاة وشوى مكان الاصبع حتى يوقف النزيف . . وعاد إلى أبيه الذى
تحسس الأصبع فعاد إليه بصره .

وحين انتشر فى القرية خبر موت الفتاة طارد أهل الفتى العجوز
التى كانت سبب ما أصاب ابنهم بضرب رأسها بقطعة كبيرة ثقيلة
من الخشب ومن خلال المعارك بين أهل الفتى وبن العجوز عرف الوالد
ببراءة ابنته وأنه شرع فى قتلها فحزن حزناً شديداً وندم على فعلته
ولما جاء ابنه وأخبره أن اخته لم تمت وأحضرها فعانقها أبوها وفرح
بعودتها .

فاطمة بنت الصقر

« فاتما سجرنس » (حكاية نوبية)

وجد الصقر طفلة ملقاة فى الطريق ، فحملها وصعد إلى أعلى شجرة ورباها وجعلها ابنة له وكان يذهب إليها بالطعام . وذات يوم نام شاب تحت الشجرة فرأى البنت وعشقها وطلب الزواج منها .

ذهب الفتى إلى بيته وسقط طريح الفراش مريضاً ، ولم يعرف الاطباء له علاجاً - وذهبت عجوز إليه وقالت إن مرضك مرض العشق وسأقدر عليه بالله وعونه ، وسارت العجوز إلى المكان الذي به الفتاة ابنة الصقر ، واستعدت لصنع طعام « إتَره » (انظر ص) وخبز الكابد (انظر ص) ووضعت أوراق الشجر بالصفيحة الرقيقة التى عليها العجين ، ووضعت العجين مكان الإدام ، فنادت فاطمة من أعلى الشجرة . . . ليس كذلك ، ثم هبطت من الشجرة وساعدتها . . هنا أمسكت العجوز بها فقالت لها فاطمة : «الآن استريني وحين يعود الي الصقر أطلبيني منه » وعادت فاطمة إلى مكانها .

وجاء الصقر فطلبت العجوز فاطمة منه لابنها فرحب الصقر وجهزها وأرسلها إلى زوجها (دِجُو تَنْجُو) ، فذهب بها العريس إلى امه وحزنت الام لمجيء فاطمة للبيت لانها نالت كل حب ابنها وحقدت عليها . . وذات يوم سافر الابن إلى بلاد بعيدة لبعض أعماله وأوصى أمه بها خيراً وطلبت فاطمة ماء فرفضت الام إعطاءها وزاد ظمأ البنت

وألحت فى طلب الماء فقالت الام أعطيك الماء مقابل إحدي عينيك فوافقت فاطمة فخلعت الام عين فاطمة وألقت بها فى حفرة وانقضت الصقور على الحفرة لتأكل العين ولكنهم عرفوا أنها عين ابنة شيخهم ذهبوا إلى الصقر وأعطوه عين فاطمة . . .

وحين طلبت فاطمة الماء فى اليوم التالى طلبت الام عينها الاخرى، وخلعتها وسقتها . . . . . ومر مناد ينادي ... من يعطيني عيناً ويأخذ طربوشاً من الذهب ؟ فنادته المرأة واخذت الذهب وتحلت الام بالذهب كأنها البنت وجاء الفتى فقالت له الساحرة الأم : إن أمك قد ماتت وشكلى قد تغير من الحزن عليها . . ولم يصدق الفتى ولكنه لم يعرف ماذا يصنع ولا ماهى الحقيقة وقال له الناس إنَ أمك هى التى فقأت عينى فاطمة وطردتها من البيت فاسرع إلى الشجرة باكياً فوجد الصقر قد أعاد عينى فاطمة إلى وجهها فعادت مبصرة بإذن الله وعقد مجلس تحت الشجرة لامة المسلمين والصقر يشاهد ما يحدث . . وحكم الناس بقتل الساحرة . . قالوا : أوقف جملا جائعاً وجملا ظامئاً واربط الساحرة بكل من الجملين من إحدي رجليها ، ووضع طعاما وماء فى مكان بعيد يجري الجمل الجائع إلى الطعام والظامىء إلى الماء فتموت الساحرة وتم العقاب . . . . وهبطت فاطمة إلى زوجها وعادا إلى بيتهما حيث لم يعكر صفو حياتهما أحد . . . .

وهناك حكاية نوبية تقول :

(إن بقرة وذئبا تصاحبا واشتركا فى مزرعة . وذات يوم أنجبت البقرة عجلا فقال الذئب أنا الذي حبلت وأنجبت العجل فلا حق للبقرة فيه ، واحتجت البقرة وطلبت المحاكمة وجاء القضاة من

جميع الحيوانات ولكن خوف القضاة من الذئب جعلهم حائرين يفكرون ولا يجدون الحل . ومن بعيد مر أبو الحصين الماكر وهو يمتطى صهوة ديك ويمضى مسرعا . . . . فنادته الحيوانات . . . يا أبا الحصين : حاول معنا أن تحل هذه المشكلة الصعبة. . . .(العجل ابن لمن ؟ الذئب أم البقرة ؟) . . .

فقال أبو الحصين من بعيد . . لا وقت عندي للتفكير فى مثل هذه القضية فان خالى يشكو آلام الوضع وقد جاءه المخاض وسوف أذهب لاستدعى « الاونوسكار » طبيبة الولادة لتساعده وتخفف عنه آلام الوضع .

وهكذا حل أبو الحصين المشكلة وعاد العجل إلى أمه البقرة .

● وهذه الحكاية شبيهة بحكاية مصرية قديمة ترجع إلى القرن الثانى عشر قبل الميلاد تقول [إن الصدق والكذب كانا أخوين تنازعا فيما بينهما وقد أقسم الكذب أمام محكمة الآلهة أنه يوجد سلاح رهيب مثل الجبل فى ضخامته له مقبض كالشجرة . وأنكر الصدق وجود هذا السلاح فحوكم وسملت عيناه ثم عمل الأخ الأعمى فيما بعد بواباً وأحبتهُ امرأة فولدت منه ولداً فاق أقرانه الذين يكبرونه ذكاء وقوة ثم علم الابن بقصة مولده فقرر الانتقام وأتى بثور غاية فى الروعة وأحضره إلى رعاة الأخ « الكذب » وجعله يرعى فى مراعى عمه . ورأى الكذب الثور فحرض رعاته على سرقته من الصبى وحق للصبى فى مقابل هذا أن يختار من بين قطيع عمه ثوراً آخر ولكن الصبى أخبر الراعى بانه ليس هناك ثور مثل ثوره فى ضخامته . فهو حينما يقف عند بحر آمون يصل ذنبه إلى أعلى سيقان البردى كما أن أحد قرنيه

يصل إلى الجبل الغربي والاخر يصل إلى الجبل الشرقى ، أما مستقره ففى النهر الكبير ويلد كل يوم ستين عجلا . ولم يصدق الراعى هذا القول . وحينئذ قيده الصبي وحمله إلى الأخ (الكذب) وطلب منه أن يحضر أمام محكمة الآلهة . فادعى الكذب أن مثل هذا الثور لم يخلق بعد وعندئذ سأل الصبي الآلهة عما إذا كان هناك سيف كالذى ادعى الكذب أنه قد رآه وعلى هذا تحتم على الآلهة أن يعيدوا النظر فى الحكم بين الصدق والكذب . فاصدرت حكمها بان يبرأ الصدق وتنزل عنه العقوبة .

الزير

كانت البنت الصغيرة « فانا » تعيش فى بيتها ناعمة البال ، لا يعكر صفوها أحد . وكان أبوها وأمها يحبانها ، وهى تحب كل الناس ، وتحب كل الحيوانات ، التى تقدم الخير لقريتها ، وكذلك تحب الطيورمثل «الهدهد » وأبى قردان – وكانت جارتها العجوز تدعو لها بالخير ، لانها تذهب إلى شاطىء النهر البعيد ، ومن هناك تحضر لها نباتات طبية تمنع الكحة ، وبذورا مفيدة تخفف عن العجوز آلام المفاصل – والعصفور « كارارنى » تقص على العصفور «سسور» كيف حاصرها الاولاد وربطوها بخيط. وقصوا ريشها «وهى تتألم . وفجأة ظهرت الطفلة الطيبة « فانا » وأمرت الأطفال أن يتركوا العصفور ، فوافقوا على الفور ، وأطلقوا العصفور وهنا حملت « فانا العصفور الجريح «كارارنى » إلى بيتها واهتمت به حتى أعادت له الصحة والأمن وكانت (فانا) سعيدة وكل من يراها أو يتحدث إليها يشعر بالفرحة والسعادة يملآن قلب «فانا» ولكن الدنيا لاتبقى على حال .

وذات يوم عادت «فانا» إلى بيتها فوجدت الناس يبكون ويعاملونها بحنان زائد ووجدت البيت وقد أتى إليه الناس من كل مكان . . . . كل أهل القرية جاءوا وكذلك أهل القرى المجاورة ، الجميع فى البيت يملئون الحجرات والممرات والمدخل والطريق .

إلا إنسانة واحدة هى أغلى وأعظم انسانة فى الوجود عند «فانا »
تلك هى ماما .

قالت « فانا » «أين ماما » ؟ سألت أباها وعمها وخالها وكل الناس .
أين ماما ؟ أنا اريد « ماما ». . . أعيدوا إلىّ «ماما » ؟

ولكن «ماما » ذهبت الى مكان بعيد . . من يذهب إليه لا يعود .

– إلى أين سافرت « ماما » ؟

وهنا أجاب الجميع – « فانا »إن «ماما » سافرت إلى الجنة – وصرخت
(فانا) : اريد أن أذهب إلى « ماما » فى الجنة .

فربت والدها على ظهرها وقال لها :

« ياعزيزتى : نحن نريدك معنا .

ومنذ ذلك اليوم وفانا تعمل كل ما تستطيع وفوق ما تستطيع لكى
تسعد « بابا » . . . . فهى تشعل النار بروث الخراف والعنز والأبقار
المخلوط بالخشب الجاف أو بسعف النخيل وهى تنفخ النار وتحركه
فيتصاعد الدخان الخانق إلى وجهها وتسيل منها الدموع على خدها . . .
ثم تتوهج النار على ثلاثة قوالب من الحجر ، مخروطية مثل القرطاس
المقلوب . . . تلك هى الحوامل التى تضع عليها قرصا . . . وتنقل
عجين الدقيق القمح من وعاء كبير من الطين . فاذا سخن سطح
القرص الحديدي مررت البنت قطعة فوقه من القماش مبللة بقطرة من
الزيت ليبلو والقرص أملس ثم تنقل العجين من الوعاء إلى القرص بملء
يدها وعندما ينضج الرغيف تتركه لحظة ثم ترفعه إلى طبق كبير
من القش .

وكان أبوها يقضي الوقت فى الحديث مع أصدقائه وهم جالسون تحت النخلة « تحمل «فانا »الطعام إليهم فى صحن كبير به الخضر واللحم وفوقه الارغفة . ثم تحمل بقاياه إلى البيت لتأكل ، وكلما كان الطعام قليلا سعدت فانا لان هذا معناه ، أن الطعام نال إعجاب «بابا » وأصدقائه .

وفانا تصنع مربى البلح بأن تأتى بكمية كبيرة من العسل الأسود وتتركها تغلى على النار فترة طويلة حتى تتكون فوقها طبقة دهنية ؛ وعند ذلك تصفى العسل وتبرده وتصبه على العجوة المنزوع منها النوي ، وتقلبه جيدا ، والناس يقولون : ان العجوة التى تصنعها فانا تبقى سنوات بلا تلف.

وفانا تصنع الشعرية ، بأن تحرك العجينة برفق براحة اليد وتجمع خيوط العجينة فوق الحصير الملون حتى تجف ، وتقدمها باللبن والعسل إلى أبيها .

وهى تقوم من نومها وتكنس الشقة بمكنسة مصنوعة من صبات البلح المفتول الخيوط وتكنس حجرة النوم والمطبخ وحجرة الخزين التى تصل إليها بعد عبور حجرة النوم ثم تنظف مكان استقبال الضيوف ثم تصل إلى حظيرة البهائم بعناية إلى الرصيف بجانب الباب الخارجي ، ثم إلى الرصيف الكبير الذي يتمشى عليه « بابا » فى فصل الشتاء وبعد الكنس وإعداد الفراش وتنظيم الشقة ؛ تخرج « فانا » إلى النهر وعلى رأسها وعاء كبير تملأه بالماء وتعود فتصب منه الأزيار وهى تذهب إلى النهر أكثر من عشر مرات لملء الأزيار وتقديم المياه .

للطيور وحيوانات الحقل ، بل هى تذهب إلى النهر مرات أكثر لتساعد عجوزا أو مريضة أو قعيدة .

و « فانا » تسوق خرافها إلى المنطقة الخضراء مع فتيات القرية وتترك الخراف ترعى ، ويحلو السمر تحت أشجار الدوم ، وعند الغروب تعود سعيدة كأنما كانت فى نزهة خلوية ممتعة .

وقال الناس لوالد « فانا » إن ابنتك تتعب فى إحضار الطعام ، وإعداد الفراش لك وهى محتاجة لمن يهتم بها ويرعى شئونها ، ولهذا عاد الوالد إلى البيت يوما ومعه امرأة تسير خلفها طفلة شريرة — وقال الوالد لابنته « فانا » .

— يا ابنتى لقد أحضرت لك « ماما » جديدة ، وهى سوف ترعاك فى حنان وتغسل ثيابك وتعد سريرك وتقدم إليك كل ما تحتاجين إليه .

وفعلا قامت المرأة فى بداية الأمر بتقديم الخير والمساعدة لفانا ولكنها لم تلبث أن أظهرت قسوتها .

فكانت « فانا » تستيقظ فى الفجر فتكنس وتوقد الفرن وتملأ الأزيار وتغسل الثياب ، أيضا بينما المرأة تفلى ابنتها وتلاعبها . . . وعندما يعود أبوها من عمله فى المزرعة ، لا تحكى له فانا ما نالها من عذاب وتعب ، لانها تريد له أن يكون رائق البال لا ينشغل بها بل إنها لم تخبره بذلك اليوم التى أتت عجوز من صديقات زوجة أبيها وامسكت بموسى « الجانير » وأجرت به شروطا تفصد دما من رجلى زوجة الأب من ظهرها ، ثم أتت بأوراق سعف النخل وظلت تكنس بها

الدم المنهمر ، وكانت فانا قد تعودت فى هذه الحالة أن تذيب السكر فى الماء وتعده لزوجة ابيها لتشربه وهى فى حالة شبيهة بالإغماء ، فلما سارت بكوب الماء المحلى بالسكر نهرتها زوجة أبيها وشتمتها وقذفتها بالموسى الذى أخطأها وغرس بالباب ، والسباب يلاحق فانا والاتهام بالكسل – وقد ظلت فانا مذعورة طوال اليوم إلا أنها رسمت بسمة على شفتيها حين جاء أبوها حتى لا تزعجه بمسائلها الخاصة .

وبينما كانت « فانا » ترعى الأغنام فى صحبة إحدى جاراتها ومرت بنخلة ظامئة فسقتها بينما صديقتها تسألها ، لماذا تسقين نخلة ليست ملكك ؟ فتجيب « فانا » لانها كائن حى – والأحياء يجب أن تستمر حياتهم وربما ظمئت يوما فيرسل الله من يسقينى .

ولما أحست النخلة بالبرى ، هزت فروعها فى تضرع هامس :

« يارب خذ من طولى وضع فى شعرها » .

واستجاب الله فصار شعر « فانا » طويلا تجرجره خلفها وهى تسير . . . إلى أن وجدت غرابا جائعا فما أسرع ما قدمت إليه بعض الطعام الذى معها فلما أكل وشبع جمعت « فانا » باقى الطعام حتى لا تدوسه الأقدام . . . . .

قال الغراب فى ضراعة :

– « يارب خذ من سواد ريشى وضع فى شعرها » .

وسارت فى طريقها بشعرها الفاحم الطويل فوجدت حمامة جائعة فقدمت إليها الطعام الذى بقى من الغراب فأكلت الحمامة حتى شبعت ودعت أن يجعل الله لون « فانا » أبيض مثل ريش الحمام وكانت أبواب السماء مفتوحة فاستجاب الله الدعاء .

ولما عادت إلى البيت رأتها زوجة أبيها على هذه الحال فجن جنونها وقررت أن تتخلص منها .

وظلت المرأة الشريرة تؤلف كل يوم حكاية ضد «فانا» وما أن يعود والد الطفلة من عمله فى المزرعة حتى تسرع إليه صارخة باكية قائلة « فانا » لا تسمع الكلام . . . . فانا لا تعمل . .

ويوما بعد يوم ، وأسبوعا بعد أسبوع وشهرا بعد شهر صدق (بابا) كلام المرأة الشريرة. .. .. . لذلك زعق فى وجه « فانا » ومرة ضربها ، ومرة طردها من البيت . . . . وأخيرا صنع (بابا) أسوأ شىء فى الوجود .

ركب الرجل حماره وأخذ الطفلة فانا أمامه وسار بها وسار حتى ابتعد عن البيوت إلى الصحراء وهناك حيث لا تسمع إلا صوت الريح ولا ترى إلى الرمال ، أنزلها من فوق حماره وترك لها طعاما قليلا ، وقلة مكسورة العنق بها ماء قليل ، وودعها وانصرف .

والعجيب أن « فانا » قالت لأبيها وهى تودعه « مع السلامة يا « بابا » ، لا تهتم بما حدث لى . . . يجب أن تنام هادىء البال ، وأن تعتنى بصحتك . . . ولا تحزن من أجلى فالله سوف يرعانى إذا كنت أستحق السلامة . . . . . أما إذا كان الله غاضبا علىّ فسوف يعاقبنى بما أستحق .

ورجع الوالد إلى زوجته وابنتها باكيا ، أما « فانا » فوجدت زيرا مقلوبا فحملته إلى البئر المختبىء - خلف شجرة عالية فغسلت الزير

ونظفته وملأته وجعلته تحت الشجرة بحيث يراه العابرون – وتسلقت الشجرة فجلست بين الأغصان .

وعندما يشتد الحر – كان الناس يمرون من تحت الشجرة فيجدون الماء النظيف فيشربون ويدعون لمن ملأ الزير بالسلامة . . . .

ومر فارس بالمكان فنزل من فوق حصانه ، وتقدم إلى الزير فرفع غطاءه ، وأدخل فيه الكوز ونظر إلى الماء فرأى مفاجأة عجيبة . . . . أن بداخل الماء بنتا جميلة – . . . . هل هى جنية من جنيات الماء التى نسمع عنها فى حكايات الجدات ؟

« ولكن الجنيات لا يوجدن إلا فى الخيال » إن الفارس واثق من ذلك . . . لذلك ما أسرع ما نظر إلى أعلى الشجرة فرأى « فانا » بين الأغصان . وقال لها :

– أنت جميلة الخلقة والخلق . . وانك تحبين الخير ، ملأت الزير ليشرب الناس . . . . . . وأنت تستحقين أن يكرمك الناس – انزلى أيها الملاك الجميل فأسكنك فى قصر وأجعل حول قصرك حديقة فيها كل ألوان الفاكهة .

ولكن « فانا » لم تنزل إليه ، لانها كانت حذرة لا تصدق كل ما يقال لها . . . . وانصرف الفارس وهو لا يفكر إلا فى « فانا » البنت الطيبة التى أنقذته من الموت ظمأ ، وملأت الزير ليشرب الناس فى حر الصحراء .

ومن كثرة التفكير فى (فانا) مرض الفارس فلم يأكل . . . . . وأصبح الماء مرا والنوم مستحيلا وهزل جسمه وبانت عظامه ولم

يستطع الحركة أو الكلام . . . . ولم يعرف الأطباء سببا لمرضه . . .
ولكن عجوزا ماهرة تستعمل مهارتها فى الخير ، سألت الفارس سؤالا
واحدا . . .

هل سبب مرضك فى السماء أم فى الأرض ؟

فأرادت العجوز أن توضح له أنها فهمت فقالت :

- أيها الفارس العظيم : سوف أحضر لك الدواء من بين الأغصان
لا من السماء ولا من الأرض . ولأول مرة ابتسم الفارس المريض ، فقالت
العجوز ، « عليك يا سيدى أن تأمر رجالك بأن يطيعوا أوامرى . . . »

وهكذا صارت العجوز رئيسة لفرقة من الرجال - وحين ابتعدوا
عن بيت الفارس قالت لهم انتظرونى بعيدا عن الشجرة ، حتى إذا
ما سمعتم صراخى فاندفعوا نحوى واقبضوا على البنت فهى سبب
مرض سيدكم .

وسارت العجوز فى ثياب ممزقة وهى تجر عنزة حتى وصلت إلى
الشجرة فجلست تحتها وهى تلهث من التعب وبعد قليل أخرجت من
ثيابها سكينا وقالت :

- « يا عنزتى الصغيره لقد جاء موعد ذبحك ، صحيح إننى فى
المرات السابقة كنت أجد من أهل الخير من يساعدنى ولكن أين أهل
المروءة الآن يا عنزتى » ! !

ورفعت العجوز المسكين وهوت بها على أذن العنزة ، فصرخت
« فانا » ليس الذبح هكذا يا جدتى .

ورفعت العجوز السكين وهوت بها على قرن العنزة ، ثم على رجلها
ثم على أظافرها ، وفى كل مرة تقول « فانا » .

– ليس الذبح هكذا يا جدتى .

ولأن طبيعتها خيرة ، فقد هبطت « فانا » من مكانها فوق الشجرة الملساء التى لا يستطيع أحد الصعود إليها وهى فوقها ، وقالت :

وما أسرع ما أمسكت بها العجوز وصرخت فحاصر الجنود « فانا » وساقوها إلى الفارس ، وهنا قال لها الفارس : – « يا أيتها البنت الطيبة التى سقتنى فى الحر الشديد ، أنا اريدك زوجة لى إذا كان هذا يوافقك وبذلك تنقذينى من الموت ، أما إذا رفضت فسوف آمر رجالى ان يحملوكِ إلى مكانك بين الأغصانِ .

وتوسل الجمع إلى « فانا » أن تنقذ الفارس المريض ، وهنا وافقت « فانا » على الزواج ، وأقيمت الأعراس أربعين يوما متواصلة

ووقف الفرسان والشباب على شكل قوس ووقفت البنات على شكل قوس مقابل – وكان يفصل بين القوسين من أحد الجانبين فريق المغنيين والمنشدين وحملة الدفوف والطبول والآلات الوترية الكبيرة ذات الأوتار الخمسة .

وقدم المحتفلون رقصات جماعية كان أروعها رقصة الشباب وفى هذه الرقصة خرج شاب من الصف وقد تلفح بوشاح حريرى ملون ورقص رقصة دافئة ، وخرجت من صفوف النساء فتاة تضع على رأسها وشاحا من الحرير ذا مربعات صغيرة . . . . وكانت تحلى جيدها بصفوف من عقود الذهب . . . . ثم انتقل الحاضرون جماعة إلى رقصة الرعاش فارتجت الأجسام ، وارتعشت الصدور وكنت تسمع أصوات الحلى ، وأخيرا قدموا رقصة « الملطى » على اسم نوع من السمك النيلى . . .

وتتابعت الرقصات بعضهن خلف البعض الآخر بسرعة واهتزاز لا تستطيعه إلا الصغيرة التى تمارس الرياضة فى رشاقة . . . ثم قام المغنون بإنشاد المقاطع التى تصف شهامة أهل البلد ، ومحاسن « فانا »

وبعد انتهاء الأعراس سأل الفارس زوجته فانا عن المكان الذى تحب أن تقيم فيه ، فطلبت أن يكون بيتها قدام الشجرة ، وأن يخصص من عماله من يملأ الزير كل يوم . . وفى الحال نادى الفارس جنوده وقال لهم :

– ابنوا لى قصرا قدام الشجرة . . . .

وقام الجميع بالبناء ، وبعد أيام انتقلت « فانا » إلى بيتها الذى تحيط به حديقة عامرة بكل أنواع الزهر والفاكهة .

أما أبوها الذى قام بأسوأ عمل فى الوجود ، فقد ظل ضميره يعذبه وقلبه يلومه ، ويوما لم يطق العذاب فركب حماره وسار إلى المكان الذى ترك فيه ابنته فانا وجلس يبكى ويبكى ويقول : سامحينى يا « فانا » أنا مخطىء وأستحق العقاب يا « فانا » إنك بجوار ربك فى السماء وأنا السبب . . . أنت تنعمين فى الجنة بجانب ماما وأنا أتعذب .

ورأته « فانا » من قصرها فأمرت الجنود بإحضاره إليها ، وهنا فوجىء الرجل بالجنود يحيطون به فقال لنفسه :

– « ما أرحم السماء العادلة ؟ إن هؤلاء الجنود لا شك قد عرفوا ما صنعت مع ابنتى فجاءوا ليسوقونى إلى السجن . مرحبا بعذاب الدنيا

وكم كانت دهشة بابا حين فوجىء بأن سيدة القصر هى « فانا »

ابنته التى قالت له « لا تحزن يا أبى ، فقد عوضنى الله خيرا من بيتنا ويسعدنى أن تعيش معى إلى الأبد .

ولكن بابا قال لها « لا يا ابنتى ، أنا لا أستحق أن أشاركك هذه السعادة ، وقد سبق لى أن أطعت زوجتى فتركتك للصحراء . . . . يا « فانا » عيشى فى أمن وسلام ، وسوف أعود إلى بيتى .

وهنا قالت له « فانا » أنا أعرف أنك لاتهتم بالذهب والمال ، ولكن لابد من اعطائك بعض الهدايا لتوزعها على أهل قريتنا ، لا سيما المرضى والعجزة وأعطته « فانا » أكياسا من الذهب والحلى وفاكهة وثيابا حتى لم يجد الأب مكانا له فوق حماره . . . وما أن وصل إلى بيته حتى قابلته زوجته وعرفت كل شىء . . . وقالت :

لا تعط شيئا مما أتيت به لأحد فى القرية فهم لا يستحقون . . . واحمل ابنتى فوق حمارك واتركها فى مكان أبعد مما تركت فانا لتملك قصرا أكبر من قصرها . . . ونفذ الرجل أوامرها . . . . . ولا أحد يعرف ما جرى لابنتها ، ولكن الناس يرونها دائما تكلم نفسها وتصرخ وهى فى ثياب ممزقة وتقول :

ـ حقا ان الذي يزرع الشر لا يجنى إلا الشوك والندم ـ أما فانا الطيبة فما زال الجميع يتحدثون عن طهر قلبها . . . ليس الناس فقط بل إن القطط والكلاب الضالة ، والطيور المجروحة تذكر أعمالها الجليلة وخيرها الكثير .

البيضــة

قامت امرأة بكنس بيتها الريفى ، فوجدت فى أحد أركانه بيضة دجاجة فأخذتها وحملتها بين أصابعها وهنا رآها ابنها فتوسل إليها أن تعطيه البيضة ورفضت بالرغم من محاولاته وبكائه وتشنجاته وفكر الطفل فى شيء يرضى أمه عنه ويسعد قلبها فحمل « صفيحة الماء » ، وذهب إلى النهر وملأ الوعاء وعاد به عدة مرات وصب الماء فى الزيرين المتقابلين عند الحجرة المفتوحة السقف — وفرحت الأم به فمنحته البيضة — وأخذها الطفل وسار فى الطريق ومر أمام صانع مخراز بمقبض خشبي يستعمل فى نسج سلال الخوص وقال له الرجل أعطنى هذه البيضة أيها الصغير — فأجاب الطفل :

لا أستطيع

أنا ما ملكت البيض يوما .

بل إنها ملك لأمى .

أتظن أن عطاءها سهل المنال ؟

يا كم بكيت ونلت منها بيضة ، نلت المحال .

وأعجب الحداد بفصاحة الطفل وحسن دفاعه عن البيضة كما سعد بنشاطه الجم ، واعطاه مخرازا وأخذ منه البيضة ، وحمل الطفل المخراز وسار فى طريقه إلى صانعى الاقفاص والسلال فقالوا له : اعطنا هذا المخراز ، فأجاب :

لا أستطيع .

ما كنت أملك إبرة حداد مقبضها خشبى لكن الحداد صانعها ومالكها معا لم يعطنيها مانحا ولا هدية بل انها ثمن لبيضة .

أنا ما ملكت البيض يوما .

بل إنها ملك لأمى .

اتظن أن عطاءها سهل المنال .

يا كم بكيت ونلتها لكأننى نلت المحال وهنا أعطاه صانعو السلال طبقا من الخوص ، فى مقابل المخراز فسار الطفل فى طريقه إلى حاصدى القمح الذين طلبوا منه الطبق فقال لهم :

لا أستطيع .

أنا ما ملكت الخوص والطبق الجميل - بل كان ملك الصانعين - لم يمنحونى ذلك الطبق الجميل بلا مقابل - بل إننى أعطيتهم ، كى ينسجوا الأطباق ، إبرة - ما كنت أملك إبرة الحداد ، مقبضها خشب - لكنه الحداد صانعها ومالكها معا - لم يعطنيها مانحا وبلا مقابل - بل نلتها ثمنا لبيضة - أنا ما ملكت البيض يوما - بل إنها ملك لامى - أتظن أن عطاءهاسهل المنال - يا كم بكيت ونلتها ، لكأنما نلت المحال .

وهنا أعطاه حاصدو القمح كومة منه فى مقابل طبق الخوص ، فعمل الطفل القمح وسار فى طريقه إلى الرعاة الذين قالوا له :

أعطنا القمح فنحن فى حاجة إليه ، فقال :

لا أستطيع .

ما كان القمح ملكى - بل كان حق الزارعين الحاصدين - لم يمنحونى حفنة من قمحهم بلا مقابل - بل إننى قدمت من خوص النخيل ، طبقا له نسج جميل - بلا مقابل ، بل إننى أعطيتهم كى

ينسجوا الأطباق إبرة – ما كنت أملك إبرة الحداد مقبضها خشب – لكنه الحداد صانعها ومالكها معا – لم يعطنيها مانحا وبلا مقابل – بل نلتها ثمنا لبيضة – أنا ما ملكت البيض يوما – بل إنها ملك لأمى – أتظن أن عطاءها سهل المنال ؟

يا كم بكيت ونلتها لكأنما نلت المحال .

وهنا أعطاه الرعاة كمية هائلة من اللبن فى مقابل القمح الذى قدمه إليهم ، وحمل الطفل اللبن وسار فى طريقه لعدم كفاية اللبن وطلب الرعاة اللبن من الطفل فقال ؛ لا أستطيع .

فلست من ملاك الحليب – بل إنه ملك الرعاة – لم يمنحونى قطرة من ذا الحليب بلا مقابل فالقمح قد أخذوه منى – ما كان ذاك القمح ملكى ، بل كان حق الزارعين الحاصدين ، لم يمنحونى حفنة من قمحهم أو سنبلة – بل إننى أعطيتهم طبقا من القش الجميل – أنا ما ملكت القش والطبق الجميل – بل كان ملك الصانعين – لم يمنحونى ذلك الطبق الجميل بلا مقابل بل إنى أعطيتهم ، كى ينسجوا الأطباق إبرة – ما كنت أملك إبرة الحداد مقبضها خشب – لكنه الحداد صانعها ومالكها معا – لم يعطنيها مانحا وبلا مقابل – بل إنها ثمن لبيضة . أنا ماملكت البيض يوما – بل إنها ملك لأمى – أتظن أن عطاءها سهل المنال – ياكم بكيت ونلتها ، لكأنما نلت المحال .

وهكذا عرف رعاة الجمال قيمة اللبن الذى يحمله الطفل ، والفائدة الهائلة التى تعود عليه ، فاعطوه جملا صغيرا فى مقابل اللبن ، فامتطى الولد صهوتها وأسرع إلى بيته .

وفى حكاية البيضة نجد الخرافة فى صف العمل والطموح والهمة

اليقظة والحركة التى تجعل البيضة الصغيرة تتحول إلى جمل يعود به الطفل إلى بيته ـ وفى هذه الحكاية نجد الأدوات الريفية مثل صفحة الخوص والمخراز ، والمجتمع الذى يمنح الطيبات بحساب وتقتير حتى تصبح بيضة الدجاجة أملا للطفل وفرحة للحداد .

إن الحكاية الخرافية تؤكد باستمرار أن الوصول إلى الأهداف الطيبة والاستمتاع بالحياة يحتاج منا إلى جهاد شريف وتضحيات باسلة ـ ففى حكاية الزير نجد البنت الطيبة تقوم باعمال خيرة للناس وللحيوانات والنباتات فتنال الخير الكثير وفى حكاية البيضة نجد طفلا مخلصا يقوم بأعمال طيبة فيجد الجزاء العجيب جملا فى مقابل بيضة .

العصفور المغرور :

وهذه حكاية خرافية من بلاد النوبة عنوانها « العصفور المغرور » يتحدد من خلالها درس تربوى ، عن أسلوب السعى والقيم التى يجب أن يتحدد اثناء المسعى ، وأن الوصول إلى قمة الجبل بوسائل قذرة يؤدى بالضرورة إلى الانحدار السريع إلى الهاوية .

* * *

بينما كان العصفور يطير بين المزارع والحقول رأى رجلا يركب حماراً وقد حمل عليه كيسين كبيرين مملوءين بالقمح ، واستمر العصفور يتابع الرجل ويحوم حوله إلى أن لاحظ أن حبة قمح قد وقعت من أحد الكيسين على الأرض ولم يتنبه لها الرجل واستمر فى طريقه . أما العصفور فقد فرح بحبة القمح وحملها وظل يطير بها هنا وهناك في نشوة وسعادة لا حدود لها .

وفى أثناء طيرانه رأى مطحنا فهبط إليه فرأى العرق يتصبب من جباه العمال والعمل فى كل ركن من المطحن فى همة ونشاط . وحيّا العصفور هؤلاء العمال فى أدب واحترام - وقدم إليهم حبة القمح قائلا ، أيها السادة الكبار إننى أتوسل إليكم أن تطحنوا هذا القمح . . . . . ونظر العمال إليه ضاحكين وقالوا : هل من أجل هذه الحبة الصغيرة تحملت المشاق إلى أن وصلت إلى مطحننا دع أيها العصفور هذهالحبة وسنطحنها لك ، فأنشد لهم العصفور بصوته الرخيم أغنية أعادت إليهم النشاط وأسعدهم .

وترك العصفور المطحن فى اتجاه النهر حيث شرب قطرتين ثم نقر تمرة طيبة من نخيل القرية واستمتع بأن نظر إلى لون ريشه على سطح النهر-وهكذا ظل يطير من مكان إلى مكان إلى أن أظلم الجو فعاد إلى المطحن وصرخ فى العمال الذين كانوا يغسلون وجوههم ويلبسون ثيابهم النظيفة . . . . انتظروا يا أيها الكبار . . . . كيف تنصرفون قبل أن آخذ حقى ؟ لقد أحضرت قمحا إلى المطحن ، فأين الدقيق ؟ فضحك العمال وقدموا إليه قبضة من الدقيق وأعطاه صاحب المطحن قبضة أخرى . وحمل العصفور القبضتين إلى عشه واستغرق فى نوم هادىء .

وفى الصباح حمل العصفور الدقيق إلى امرأة تجلس أمام الموقد وأمامها شعلة من أعواد الحطب المخلوطة بروث العنز وقد وضعت قرصة رقيقة من الحديد على قوالب مخروطية من الحجر ، فحياها العصفور وغنى لها وهنا تركت المرأة عملها وظلت تنصت إليه حتى احترق الخبز ، فصرخت المرأة فيه ونهرته وطلبت منه الانصراف ، ولكنه رقق قلبها بانغامه وطلب منها أن تضع كمية الدقيق التى معه فى وعاء الطين

المحروق وتجعل منه عجينة مناسبة وتضيفه إلى خبزها ـ وعادت المرأة تنفخ فى النار وتحرك الشعلة بعصا ، وتضع الأرغفة فى طبق كبير من القش ـ وقالت المرأة للعصفور : إننا نعتقد أن وجود كائن ذكر فى مكان صنع الخبز يجعله يحترق فإذا كنت عصفورا ذكرا فانصرف فورا من هنا أما إذا كنت عصفورة أنثى فإنه يسعدنى أن أنصت إلى غنائك أثناء عملى .

وتمنى العصفور أن يخدعها ويقول إنه عصفور أنثى ولكن زهوه بذكورته وقف حائلا بينه وبين تحقيق هذه الرغبة فترك لها الحجرة ومضى .

وعاد العصفور للمرأة وقال لها : لقد أعطيتك أيتها السيدة العظيمة كمية من الدقيق لتصنعى منها أرغفة ، والآن أريد نصيبى من الخبز ، فابتسمت المرأة وقدمت له رغيفين من نوع الكابد ورغيفين من نوع النانوى فشكرها العصفور وطار إلى قمة شجرة عالية وأكل حتى شبع ونظر حوله فرأى رجلا يزرع بصلا والعرق يتصبب منه وهو ينحنى على الأرض ويضربها بفأسه فى صبر وعناد ـ وبعد أن انتهى من عمله جلس يستريح فمر عليه العصفور وحياه فى أدب ثم سأله : هل أنت جائع أيها السيد الكبير ؟

فأجاب الفلاح : نعم فقدم إليه العصفور خبزا سميكا ورقيقا فشد الرجل بصلة ودقها بقبضة يده وأكل حتى شبع وشكر العصفور على فضله فقال العصفور : لا تشكرنى ، بل اعطنى ثمن الخبز ـ فقال الرجل : لو أن معى من النقود ما يمكننى من شراء الخبز لما انتظرت عطيتك ايها الكائن الحقير ـ فقال العصفور : أنا لا أريد نقوداً . . .

اعطنى بصلا ـ فضحك الرجل وقال : هذا منه الكثير ، خذ ما يكفيك واستمر العصفور اليوم كله ينقل كميات هائلة من البصل من المزرعة إلى بيته .

وفى اليوم التالى انتظر العصفور حتى كان وقت الغذاء ، فمر على المزارع جميعها وقدم البصل للفلاحين ففتح بذلك شهيتهم وشكروه جميعا وقاموا إلى اعمالهم ـ ولكنه عاد يقول لهم : انه فتح شهيتهم وساعدهم ونشطهم وبذلك يعتبر شريكا لهم فيما ينتجون من الثمار وهكذا نال العصفور فى نهاية الموسم كميات هائلة من ثمار الحقل وصار غنيا .

وبينما كان العصفور يطير وهو ينشد أغنية ناعمة فيها يبث طموحه وآماله التى لا حدود لها رأى عاملا زراعيا فقيرا يجلس منهوكا جائعا فقال له : الجوع سوف يقتلك سأحضر لك خبزا وخضرا وأكل العامل الزراعى حتى شبع وشكر العصفور . . . . فقال :

العصفور : لا تشكرنى ، بل ادفع الثمن .

ـ اى ثمن ؟ انا لا أملك إلا فأسى .

ـ آخذ فأسك .

ـ خذه .

وهكذا أصبح فى بيت العصفور بصل وخضر وفاكهة وأنواع مختلفة من ثمار الحقول ، وكلما زادالخير فى بيته زاد جشعه واتسعت رغباته فى المزيد .

وبينما العصفور يطير هنا وهناك رأى جماعة يحملون نعشا ويسيرون فى اتجاه المقابر فطار حولهم ثم نادي : لمن هذا النعش ، فاجاب أحد السائرين : إنه لامرأة بائسة لا أهل لها ماتت فقمنا ندفنها فى مقابر الصدقات .

– وهل معكم فاس ؟ أنا عندى فاس عظيم يمكنكم استعماله .

– لك منا الشكر ومن الله المثوبة والأجر .

وبعد أن انتهوا من عملهم وقف لهم العصفور طالبا أجره أو ربح فأسه .

– لن نعطيك شيئا ، لقد ساهمنا بجهدنا فى سبيل الله ، وكذلك مساهمتك ، وإن كنت مصرا فخذ الميتة واصنع بها ما تشاء .

– اذن هاتوها .

وعاد الناس يحفرون إلى أن أخرجوا السيدة ، وعادوا إلى بيوتهم وهم يلعنون العصفور ويتمنون له الهلاك .

وفى الصباح كان العصفور قد وضع المرأة العجوز المتوفاة عند الشاطىء على الطين ، وذهب لينادى ربان سفينة طالبا منه أن ينقله وجدته العجوز إلى الشاطىء المقابل .

ونزل الربان من السفينة وقال للمرأة انهضى من مكانك وهيا اصعدى فوق سفينتى . . . . . وظلت المرأة تحدق فيه لا تتكلم . . فظنها الربان تسخر منه فضربها بالمجداف فوقعت فى الطين وصرخ العصفور : لقد قتلت جدتى العجوز ، يا قاتل . . . سوف أجمع الناس ليروا جريمتك ويشنقوك .

وانحى الربان فوق السيدة العجوز يحاول أن يوقظها ولكنها كانت باردة كالثلج فتوسل إلى العصفور أن يعفو عنه ، ولكن العصفور ظل يصرخ : جدتى العجوز . . . جدتى العجوز . . لقد قتلتها بالعين . . اترك السفينة وانج بنفسك قبل ان يحاصرك الناس ويقتلوك فأسرع الرجل بالهرب والنجاة من العقاب .

وهنا وضع العصفور كل ما فى بيته من ثمار على السفينة التى أصبحت له وحده وفك حبالها ورفع أشرعتها فمضت تمخر عباب النهر والعصفور يقف عند أعلى قمة الشراع يغنى مزهوا سعيدا لقد خدع الناس بعقولهم . . . وأصبح بذكائه غنيا يملك الثمار وأخيرا هاهوذا يملك سفينة تجوب البحار - سيرى عوالم لم يرها وأقواما كثيرين .

وفى أثناء غناء العصفور كانت نملة من فرسان الشمس تسير على سارية السفينة والجوع يمزق أحشاءها - ونظرت النملة فرأت فى أعلى السارية قطعة حمراء من اللحم - هى مؤخرة العصفور فأسرعت فى اتجاهها وانقضت على هذا الجزء الأحمر الخالى من الريش ومضت تقضم وترشف النماء والعصفور يصرخ ويتوجع وينتفض ويحرك جناحيه فى عنف ويحاول أن ينقر مؤخرته دون جدوى ويطير هنا وهناك فى جنون وقد أفقده الألم لبه حتى انقطعت أنفاسه وخمدت الحياة فيه فسقط ميتا .

● **وهذه حكاية تلاحظ فيها شـــكلا متطورا لحكاية الأصبع هى حكاية (فاطمة بنت النجار)**

فاطمة بنت النجار

كان نجار يعيش مع زوجته حياة هادئة لايعرف أحد عن أسرارهما شيئاً فالزوج محب للعزلة ولايقضي وقته هذا فى عزلته فى تأمل أوغناء أو حديث بل فى عمل متصل يأخذ أشكالا كثيرة (فالنجارة فى بلاد النوبة كانت سيدة الحِرفَ وأم الصناعات فمن مهاد الطفل إلى أدوات الطهى إلى الصناديق والأسّرة إلى السفينة وسيلة النقل الرائعة التى لايستغنى عنها أحد إلى الساقية الكبيرة (إسكليه) إلى الساقية الصغيرة المساعدة التى تنقل الماء إلى الأرض الأكثر ارتفاعا (كلوتود) إلى (الأجل) الجميل المزخرف الذى يشبه مئذنة المسجد فى شكله وإن كان فى حجم قبضة اليد لحفظ البخور والعطور إلى القبقاب وبرذعة الحمار ، إلى غير ذلك فما يحتاج إليه النوبيّ فى مزرعته ، كان النجار دائماً مصدر خير للنوبيين مما جعله عبقرى العصر المفكر فى زمانه ينظرون إليه نظرتنا إلى عباقرة الذرة وصناع الصواريخ فى عصرنا) .

ولم يتعود النجار أن يزور أحدا ولا أن يستقبل زائرا فما كانت أعماله تحتاج إلى السرعة الحاسمة مما يجعل الناس يطرقون بابه فى كل وقت (مثل من يحمل الموسى ليشرط مكان لدغة العقرب أو الحَجّام الذى يقوم بفصد الدم لمن انعقد لسانه أو أصيب بمكروه يدعو إلى العلاج العاجل) كما أنه لم يتعود أن يستقبل أصدقاء يؤنسون وحشته فما كان يعرف للوحشة والسأم معنى .. وفى المسجد كانت تتم الاتفاقات بينه وبين من يحتاجون إلى خدماته .

وكما كانت الحياة كلها تسير ببطء كان النجار يقوم من نومه فيتوضأ ويصلىّ ويتجه إلى البيت الذى سيقوم فيه بالعمل فيقدم إليه

أهله الطعام والشراب والشاى وهو يتوقف عن العمل بعد الغذاء ليبدأ مع رطوبة الجو عند العصر فى العمل إلى المساء فيعود إلى بيته أما إذا كان من دعاه فى قرية بعيدة وكان الطريق محفوفاً بالمخاطر مثل المناطق التى يكثر بها الذئاب أو الأخطار والخرائب التى يأوى إليها الجن ، فهو يبيت أياما إلى أن ينهى عمله فيعود إلى بيته . لذلك كان العبء الأكبر فى تنظيم البيت وتربية أبناء النجارين يقع على الزوجة فهى سيدة البيت المدبرة ، وكانت مشاغل الزوج تمنحهن قدرة على التصرف واستقلالا فى الفكر يجعلهن أقدر من زوجات الفلاحين على حل مشكلاتهن بل ومشكلات الآخرين .

ومر زمان على النجار من غير أن تكتحل عيناه بمنظر طفل أو طفلة فلما أنجب طفلة بعد طول انتظار فرح بها وأحس فى نفس الوقت بفداحة المسئولية الملقاة على عاتقه لحمايتها وبدافع الحب والخوف قرر أن يخفيها عن الأنظار فلم يعلن خبر مولدها وتعاهد مع زوجته على إخفائها عن الناس جميعاً فهما يحضران إلى البيت كل ماتحتاج إليه الصغيرة الوحيدة فلا تحتاج للخروج من بيتها . . ولكن فاطمة بنت النجار كانت مثل عطر الصندل تفوح صفاتها الطيبة فى كل مكان فهى تتوهج حسنا مثل شظية اللهب وإذا ابتسمت بدت أسنانها مثل حبات القرطم وانتشرت الابتسامة فى وجهها كله كما يلمع الهلال وهى على اسم فاطمة بنت النبي تجعل النصرانى يدخل دين الاسلام .

ونمت فاطمة فأصبحت تزين صدرها بعقد « الشاوشاو » الفضية التى تتراقص على صدرها الندىّ وأنشد فيها الشعراء من غير أن يروها : حلوة مثل عصير الفاكهة رطبة مثل طلع النخيل نقية مثل أجود أنواع

القمح وهى أعظم من أطيب مايقدم للضيوف من حبوب مشوية وقالوا هى أفضل من بنات الشمال اللائى يمشطن شعورهن ويثبتن الخصلات بالدبابيس ويجملن شفاههن بالوشم إنك يا فاطمة لا تجيدين الصد فما الذى يخفيك عنا ؟

وقد اختار النجار لصنع العقد لابنته صائغ حلى فى قرية مجاورة اشتهر بالصمت وعدم التدخل فيما لايعنيه . وطلب منه أن يكتب على « الشاوشاو » اسم فاطمة . وفى صمت بدأ الصائغ يصنع العقد دون أن يسأل أو يستطلع معلومات عن أحوال النجار فى بيته وإن كان قد سمع الكثير عن فاطمة الجميلة من العجائز والفتيات كما حفظ لذلك الشاعر الذى لخص حكاية فاطمة فى قوله « أنا لم أرها ولن أرها فى حياتى ومع ذلك أبكى وأذبل من حبها » .

وكانت فاطمة بجانب جمالها متواضعة تؤدى أعمال البيت مما يعطى لأمها الفرصة لزيارة الأقارب والأهل والقيام بالعمل فى مزرعتها كما أنها كانت راجحة العقل تحل مشكلات أبيها وتحافظ على كلمتها معه ألايراها إنسان إذ كانت فاطمة تخرج قبل الفجر والناس نيام إلى الشاطىء حيث تستقبل النسمات الندية العطرة وتعود .

وكان ابن عم فاطمة فتى رائع الحسن قوياً عنيدا صلب الرأى لذلك كانت الفتيات يعشقنه وهو لايعبأ بهن فقد كان من عشاق المستحيل ولما كانت ابنة عمه فاطمة منيعة مثل القلعة فإن الفتى جاسرا «هذا كانت أمنيته أن يراها لا لأنه وقع فى غرامها ولكن ليذل كبرياءها ويثبت لها أنه عبقرى وقادر لاتخفى عليه خافية ولايمتنع عليه حصن مهما كانت مناعته وهو لم يخفق قلبه لإنسانة فى الوجود فكيف يخفق لإنسانة لم

يرها وقد يكون ماقيل من مبالغات الشعراء . وإذا كانوا صادقين فهو أيضا أنشودة الشعراء . . .ألم يقولوا فيه : (الفتى المختال ها هو ذا يسير متبختراً فى زهو ويختال فى مشيته . . يمر من أمام بيتنا (والشعر على لسان فتاة) وعلى رأسه عمامة ذات أطراف بارزة . . إن قلبى حين أرى هذا الفتى – يصبح كائناً آخر ينظر معى إليه وروحى تطير وترفرف وتقف له فوق أعلى نخلة فى الجانب المقابل وانتظره خارج البيت وأضع على الصفحة المصنوعة من سعف النخل هدية من ثمارنا .. وأرش الرصيف الكبير أمام بيتنا بالرمل وحين أراه مقبلاً من بعيد أجدنى أجرى وأختبىء من خجلى وقلبى ما يزال يخفق بحبه .

وكان جاسر فتى جميلا قويا تهفو لحسنه النساء وكم كنت تجد فتاة تطحن الغلال وقد جلست أمامها زميلاتها تساعدها فى إدارة الرحى وكل منهما ينشد مقطعاً من أغنية دافئة فى وصفه . .

وحاول جاسر بشتى الطرق أن يرى فاطمة ولكن محاولاته جميعا ذهبت أدراج الرياح إلى أن كان يسير مصادفة قبل الفجر على شاطىء النيل فهو قوى جسما لايخاف الوحوش ولا الجن ولاسكان البحر الشريرين ، وفجأة رأى فتاة رائعة الحسن تغسل وجهها فكاد يقع مغشياً عليه من حسنها ولكنه تمالك نفسه وتبعها إلى أن رآها تدخل بيت عمه فتأكد أنها هى فاطمة بنت النجار وأن ما قيل فيهالايساوى التراب الذى تسير فوقه .

وبالرغم من أنه لم يُحدث صوتا لم يشعرها بوجوده ، كما أنها لم تنظر خلفها وإلا لأسرعت الخطى تعبيراً عن شعورها بمتابعته وبالرغم من كل ذلك فإن جاسرا خرج فى اليوم التالى والأيام التالية بل كان

يقضى ليله على الشاطىء فى انتظار وصولها قبل الفجر ولكن أمنيته لم تتحقق فعاف الطعام والشراب ولم يعرف النوم إلى عينه سبيلا ثم انهد جسمه فلم يعد قادرا على مغادرة فراشه وعجز السحر والطب عن إيجاد وسيلة لتعود الصحة إلى فتى القرية الجميل المعشوق .

وزارته عجوز ماكرة ظلت تحدثه فى موضوعات كثيرة حتى استطاعت أن تطلق لسانه فإذا هو يعترف لها بحبه وإذا العجوز تضحك فتبدو بقايا أسنانها ثم تقول : « لاتحزن ياجاسر فإننى لن اكتفى بأن أجعل عمك يعترف لك بأن له ابنة بل سأحضر فاطمة هذه إلى بيتك تفعل بها ما تشاء وعندئذ يأتى أبوها ضارعاً إليك منتظراً شروطك ليقبلها .

وكان هذ أكثر ما تمنى جاسر وهو لذلك قدّم للعجوز هدايا كثيرة ووعدها بأضعاف ما قدمه إذا نجحت خطتها وحققت له أمله .

أما فاطمة فقد أسرعت إلى أمها تُسرُّ إليها وقلبها يخفق بحب عن ذلك الفتى الرائع الحسن الذي رأته على الشاطىء وأحست به وهو يتبعها إلى بيتها فنصحتها الأم بعدم الخروج من بيتها فهو شاب مغرور جسور وقد يعتدى عليها أو يخطفها .. ولما وصفته لأمها قالت مرتاعة وهى تضم ابنتها إلى صدرها : إنه جاسر ! ! وما إن سمعت فاطمة اسمه حتى أحست بخدر عجيب يسرى فى جسدها فهى تحفظ كثيرا من الشعر فى محاسن هذا الفتى – وهو ابن عمها الذى لا يجرؤ إنسان على التقدم بطلب يدها قبلَهُ ، لكم تتمنى فاطمة أن تكون لابن عمها جاسر . .

وحين خرجت العجوز من بيت جاسر أحس هو برغبة فى الطعام والشراب وبالرغم من أنه لم يحصل بعد على فاطمة فإنه قد خطا خطوة

نحوها وهذا ما أعاده إليه ثقته بنفسه ـ وخرج يصفها منشدًا ، وأصدقاؤه من الشعراء يسمعون أوصاف فاطمة ممن رآها وينظمون حديثه في أشعارهم « مثل عود السيسبان : أنظروا إليها تأملوا مشيتها واختيالها وضفائرها الطويلة تزيد عن أربع أذرع . ما أجمل الوشم والكحل . . وصوتها ولفتاتها والحلي على صدرها ترقص رقصة السمك البلطي . . وتسرع كالغزال . . الجميلة ذات الحجال . . سلمت عَلَيّ بيد مخضبة بالحناء » . ومن ساعتها وروحي تضطرب .

« تطاردني في أحلامي ولا تفارقني صورتها في يقظتي . . ليتني لم أرها ولم أقع في حبها مثل عصفور وقع في فخ صياد . . . وإن حشاشة قلبي وروحي يحترقان مثل حبوب القمح المشوية على الموقد . . . وبقلوب غضة مثل أطراف أوراق الشجر . . ضحكها يرد الحياة للأرواح . . وعلى جبهتها وشم كالهلال . تلك التي تقطر شهدًا .. . ولا أعرف متى رأيتها فقد اختلط على الأمر فما عدت أعرف معنى للزمن .

وذهبت العجوز إلى قرية بعيدة وهناك وجدت أهل القرية يتحدثون عن سفينة تحطمت وليس لديهم نجار يثقون فيه وفي صناعته فحدثتهم عن والد فاطمة وأبدت إعجابها بصناعته فطلبوا منها أن تحضره لهم فأسرعت تطرق باب بيت فاطمة وتحدث أباها عن الرزق الذي وصل إليه فشكرها وسار إلى هناك ليتغيب عن بيته خمسة عشر يوما . وهكذا أصبح الجو خالياً أمام العجوز .

وكانت فاطمة تحب زيارات العجوز التي تحدثها عن الشباب والحب والأمل وتطرى حسنها . وتحكى لها الحكايات المثيرة . وذات صباح خرجت الأم من بيتها لتؤدى واجب العزاء وظهرت

العجوز مرتعشة متهالكة فقامت فاطمة برعايتها وقدمت إليها مشروباً ساخناً . وأصرت العجوز على أن تنصرف إلى بيتها فخافت عليها فاطمة ألا تقوى على المسير فطلبت منها أن تبقى إلى أن تأتى أمها ولكن العجوز أصرت على الانصراف فلم تجد فاطمة بداً من توصيلها إلى بيتها فتلثمت حتى لا يرى وجهها أحد وأخفت مطرقة صغيرة بين ثيابها لتدافع عن نفسها إذا احتاجت إلى ذلك أثناء عودتها ووصلت العجوز إلى البيت الذى وصفته لها وودعتها ولكن العجوز تشبثت بالفتاة وقالت لها : « إننى أعيش وحدى فى بيتى فساعدينى فى الوصول إلى فراشى » واقتنعت فاطمة ودخلت معها وأغلقت العجوز باب شقتها واستندت بظهرها إلى الباب وفوجئت فاطمة بأن العجوز قد دبت فيها حيوية غامرة فلم تعد ترتعش ورأت أمامها الفتى القوى الجميل جاسر يضحك ويقول : مرحبا بك يا فاطمة فى بيتى . . لا تحاولى الفرار أو الصراخ فإن هذا معناه الفضيحة لك وحدك . . أنا ابن عمك فلا تخافى ولا تقاومى » . . وفكرت فاطمة بسرعة فوجدت أنه على حق فإن صرخة منها معناها أن يتحدث الناس عنها وعن سبب خروجها من بيتها فقالت فى استسلام أنت ابن عمى وأنا أحبك وكنت انتظر أن تطلبنى من أهلى فقال لها : إن أباك ينكر أنه قد أنجبك قالت : « لو طلبت هذه الجدة العجوز أن تأتى بى إليك لأسرعت فلا تحتاج إلى هذه الحيلة » إنها لم تخطفنى أو تخدعنى ولكنك حققت رغبتى وأمنيتى فى أن ألقاك » واطمأن جاسر لحديثها فقد أشبعت غروره واستمرت تقول : كم كنت أتمنى أن يأتى اليوم الذى ينشد فيه الشعراء (اصنع لك منجلاً فضيا ياسليل الخيرين وقف على حد أرض أبيك

وبهذا المنجل الصغير اقطع وهذب سعْفا من نخلة طيبة ولاعب به شباب القرية)

ومضت العجوز تغنى بصوت خشن علاه الصدأ لجاسر أُغنية كأنما تحققت أمانيه وأقيم العرس باحتفالاته وتقول :

إلى أن تطلع نجوم الفجر وتزُف أخانا العريس ستظل الفرحة طابعنا وعملنا . . وضع العطور والبس قميصاً أبيض مفتوحا وصدرا وعباءة وضعْ على رأسك عمامة ذات أطراف ترقص مع الهواء وعلق الخنجر على ساعدك الأيسر واحمل السوط على يمناك .

وأنشد جاسر : «يا أمي احملى الأجُلْ ، وضعى فيه العطور بفرحة وزغاريد وقومى بدعوة جاراتك واطحنى معهن البذور الزيتية جميلة الرائحة وامزجن « المحلبية » بعطر القرنفل وارششن عليه المسك ما أسعدنا ما شاء الله وأثناء غناء العجوز كانت فاطمة تفكر فى مصيرها فها هى العجوز الماكرة قد تخلصت من أبيها وانتظرت لحظة خروج الأم وتأكدت أن فاطمة وحدها ثم تظاهرت بالمرض فأجادت الارتعاش حتى اغرورقت عينا فاطمة بالدموع وهى تصنع للعجوز الشاى واستطاعت الماكرة أن تخرج الفتاة الذكية من البيت وعرضت عليها أن تضع القماش على وجهها حتى لا يراها أحد فى الطريق كل ذلك وهى وليمة شهية لابن عمها . . إن المكر هو الذى أخرجها من بيتها والذكاء يجب أن يعيدها إلى بيتها . . وقالت فاطمة يا ابن عمى إننى أحب أن اكون لك فى الصورة التى أتمناها لنفسى ولك ، أن أكون جميلة أناسب جلالك ، طيبة الرائحة ، وأنا الآن أشم فى ثيابى رائحة العرق ، فلو أنى

وجدت حمّاما ساخناً لانتعشت وصرت كما أشتهى لنفسى أن أكون بين يديك . . .

وقالت العجوز فى سعادة غامرة : أنت على حق يا ابنتى . . . وصرخ فيها جاسر فى حماس ونشوة تحركى يا عجوز ، أعدى الماء الساخن . وبعد لحظات كانت الفتاة بداخل الحمام وحدها فقد لكزت العجوز الفتى فى سعادة وقالت له لا تتعجل الفرحة أيها الفتى وانتظر إلى أن تخرج إليك . وكان شوق جاسر يدفعه ليحطم باب الحمام ويدخل إليها إلا أن صوت الحلى مع حركة فاطمة كان يطمئنه وينعش قلبه . لذلك انتظر طويلا حتى مل الانتظار فطرق الباب وأعاد الطرق فلم يسمع جواباً وهنا قالت العجوز : لا شك أنه قد أغمى عليها . . حطِّم الباب أيها الفتى . . . اسرع .

ودفع جاسر باب الحمام دفعة قوية ودخل فلم يجد فاطمة ووجدها قد خلعت حلى الشّاوْشَاوْ من جيدها ووضعته حول رقبة الأوزة التى استمرت تحرك رأسها وهى تستحم فى الماء المعد لاستحمام فاطمة.. ونظر جاسر إلى الجدار فوجد حفرة تكفى لخروج الفتاة الذكية التى عادت إلى بيتها سريعا وأنقذت بيتها من الفضيحة وأباها من الذل الرهيب .

وحزن جاسر لهذه النتيجة المخيِّبة للآمال ومضى يلوم العجوز وهى تلقى عليه اللوم ولم يطق الفتى تحمل ما حدث فمضى يبكى فى نشيج مكتوم حتى أحست العجوز بالإشفاق نحوه فقالت له مازال الموقف فى يدك « فحدق فيها بدهشة وسأل : كيف يكون الأمر بيدى وقد عادت لبيتها واستفادت من التجربة ما يجعلها أشد حرصاً من أن تقع

فى يدى مرة أخرى » فابتسمت العجوز ابتسامة خبيثة وقالت هل نسيت العقد الفضى الذى تركته الفتاة حول رقبة الأوزة وعليه نقش اسمها ؟ لمعت عينا الفتى وعادت إليه نبضة الحياة ومضى يكز على أسنانه ويطرق الجدار بقبضة يده ويقول : نعم أيتها الجدة ، لقد ظننت أنها أفلتت منى . . . سوف ترى من هو جاسر ، لها الويل .

وأدت أم فاطمة واجبات العزاء وعادت إلى البيت فوجدت ابنتها تبكى فمضت تهدىء من روعها وتقدم إليها الماء المحلى بالسكر وتربت على ظهرها حتى استطاعت فاطمة النطق وقصت على أمها كيف زارت العجوز بيتها وهى ترتعش فظنت الأم أن العجوز قد ماتت أو أصيبت بمكروه ومضت تمتدحها وتذكر كيف أتت لرجلها بعمل سيسوق إليه رزقا عظيماً . . فأكملت فاطمة وهى تبكى إن العجوز لم تفعل ذلك حُبا لأبى بل للتخلص منه . فقالت الأم : ولماذا تتخلص منه ؟ فحكت فاطمة لأمها كل ما حدث وكيف حاصرها ابن عمها وما فعلته لتنجو بأن حفرت الجدار بالمطرقة الصغيرة وكانت الأم عملية للغاية فلم تُبد خوفاً ولا حُزنا ولا ترددًا بل أسرعت إلى صانع الحلى ترشوه بمبلغ كبير فإذا هو يصنع لها صورة طبق الأصل من « الشاوشاو » وعليه نقش باسم فاطمة وعادت الأم سريعا إلى البيت وعلقت الشاوشاو على صدر ابنتها وأمرتها أن تنسى ما حدث جملة . ومرت الأيام بطيئة طويلة على جاسر وهو فى انتظار عودة عمه فلما علم بوصوله ذهب إليه وطلب منه يد ابنته . . . وأجاب العم إجابته التقليدية : إنك يا جاسر عندى بمنزلة الابن ولو كانت لى ابنة فأنت أحق الناس بها يا بنى وقال جاسر « إنها تشبهنى يا عمي وإن كانت لا تصل إلى كتفي فمضى الوالد

مفكرًا ثم قال لنفسه : إنه لا شك لا يعلم أن لى ابنة ولكنه يحاول أن يورطنى فيقول إنها أقصر قامة منه لأن البنات أقصر من البنين وأكمل جاسر وهى جميلة مثلى أيضا فقال لنفسه ما دامت ابنة عمه فسوف تشبهه وهذا استنتاج لا يدل على شىء وقال جاسر وهى لا تخرج من بيتها إلا قبل الفجر حتى لا يراها أحد وأنت تعلم أنى أحب السير ليلا وأهوى صيد الوحوش فقال الوالد لنفسه هذا أيضا امتداد لاستنتاج وجودها ولكن الوالد النجار فوجىء بيد ابن أخيه تمتد وبها عقد لا نظير له من حلى الشاوشاو محفور عليه اسم فاطمة .

وكانت المفاجأة ثقيلة على قلب النجار حتى كاد أن يعترف ويزفه إلى ابنته إنقاذًا لاسمه من الفضائح ولكنه تعود ألا يبت فى أمر بغير استشارة زوجته الوفيّة لذلك طلب من ابن أخيه ان يمهله أسبوعا يفكر فى الأمر . وما غادر جاسر بيته حتى ذهب غاضباً منهارا وقال لزوجته أرأيت ما فعلت فاطمة باسمى وشرفى ؟ إنها تعرف ابن عمها بل انها أهدته العقد الذى صنعته لها أو ربما نسيت العقد عنده بعد لقاء لا تعلم أسراره إلا الشياطين .

وهنا ضحكت الزوجة فى طيبة وقالت لزوجها النجار : إن الذى صنع العقد لها يستطيع أن يصنع غيره لغيرها ، ادخل إلى ابنتك فانظر إلى صدرها فإذا وجدت حلى الشاوشاو فابن أخيك كاذب . . فإن لم تجد العقد فلا تزوجها منه بل اقتلها وارفع رأسك بعرض موفور »

واقتنع النجار بكلام زوجته فدخل على ابنته ونظر إليها فوجد العقد ثم اقترب ومضى يقلبه بين يديه فإذا هو بكل تفاصيله وبالنقش الذى طلبه وحدده بنفسه وهنا سألته ابنته ماذا تفعل يا أبى ولماذا تقلبُ

الشاوشاو بين يديك . . فأجاب فى حياء إنه الشيطان يا ابنتى كاد يصيبك بمكروه فقد أتى ابن عمك ومعه عقد شبيه بهذا الذى يحلى جيدك ورغم أنه . . . ماذا أقول يلربى ؟ فقامت إليه فاطمة وقالت له ياأبى لا تحزن وإنه ليسعدنى أن أكون زوجة لابن عمى جاسر وقال لها وبعد أن صنع ما صنع ؟ قالت إنما فعل ذلك لأنه يريدنى ولأنك تمنعنى فلو أنه كان يكرهنى لما احتاج لاختلاق أو تأليف فقال لها : ما أعظم قلبك وأرجح عقلك يا ابنتى وما أقدرك على مجازاة الإساءة بالإحسان .

وفى الموعد المحدد جاء ابن العم وعقد الشاشاو فى جيبه يسمع إجابة عمه ولم يكن وحده هذه المرة بل كان معه أبوه وأمه والسعادة الغامرة على وجههما والثقة فى أن ابنهما سوف يتزوج بالبنت التى اختارها حتى وإن لم يقدم صداقا وإلافالعار ينتظر النجار .

وقام النجار وزوجته باستقبال الضيوف ودار حديث حول مسائل كثيرة وصفق النجار طالباً الشاى وسمع الضيوف طرقة ناعمة بالباب ثم دخلت فاطمة وهى تحمل أكواب الشاى منكسة الرأس وعقد الشاوشاو على صدرها ودارت بالشراب على الحاضرين وحملق الضيوف فى صدرها وفى عقد الشاوشاو وقالت فاطمة لأبيها قبل أن تغادر الحجرة : أهذا جاسر ابن عمى الذى حدثتنى عنه مَرحَباً به . . . .

وقال النجار لابن أخيه كم دفعت للصائغ ليصنع لك عقداً شبيها بعقد ابنتى ؟ وقال أخوه فى حدة لابنه إنك تظن أن أسلوبك هذا يشوه فاطمة وأباها فقط ، ولم تعلم أيها الغبى أن عرضنا أيضا كان يمكن أن يلوث بفعلتك . . وبكت أم جاسر وقالت له ما كنت أظن أن تصل بك

الخسة والدناءة إلى هذاالمستوى . وكانت أعظم مفاجأة فى الليلة أن قال النجار لأخيه - كفى لوماً لا تقسو على زوج ابنتى لقد رضيت بك ياجاسر زوجاً لابنتى .

وكان إحساس جاسر بالحزن أعظم من سعادته أما أبوه وأمه فقد شعرا بأن ابنهما أفقده الحب عقله فمضى يتصرف تصرف الصبيان .

وفى اليوم التالى كان بيت فاطمة بنت النجار فى صخب وحركة وحياة فالفتيات والنساء قد جئن من كل صوب وحدب ليشاهدن البنت التى استطاع أبوها أن يخفيها عن العيون كل هذه الفترة والتى أراد ابن عمها أن يفضحها فألف حولها حكاية إفك ثبت بطلانها وقمن بطحن الحبوب والعجن وصنع الخبز وعصر الزيوت وغير ذلك من أعمال البيت .

وبعد أيام من العمل المضنى جاء يوم الخضاب فخلعت فاطمة ثيابها إلا ثوباً وحيداً وقامت الفتيات الصديقات يخضبن جسدها بالحناء وأثناء ذلك كن يتغامزن فى نزق وحيوية وهن يتحدثن عن الزواج والحياة المشتركة والدفء والعرق واللهاث بينما فاطمة يلتهب وجهها من الخجل مع سحر الكلمات التى تدغدغ جسمها ولم تترك الحناء إلا فى يديها ورجليها .. ولم تكن فى حاجة هذه المرة لأن تضع عقد الشاوشاو حول رقبة الأوزة أو أن تحمل بين ثيابها مطرقة صغيرة من أدوات حرفة أبيها .

وفى نفس الليلة كان ببيت جاسر الفتى صخب وفرح وزغاريد بين الأهل والأصدقاء وإيقاعات الدفوف تسمع على مسافات بعيدة

وتنقلت العجوز الماكرة إلى جاسر فخضبت جسمه كله بالحناء ثم دهن أصدقاؤه جسمه بالعطور وقام الشاعر لينشد معبراً عن رأى العريس يا من أحبها ياحاوة سوف نرقص أربعين يوماً كاملا . . لقد صنعت لك حلى (ألبسينى وقس الرحمن ووحبسى فكى وسرجين نسم ، وبرناوى وماشا الله ، وفرج الله . . وأحضرت الثياب واشريت شالاً أحمر . . وعطر الصندل والمحلب (أدىٍّ) وروح القرنفل يملأ المكان ... والسردجان الحريرى تتراقص أطرافه مع الهواء فاشعلى أعواد البخور وضعى الخضاب على يديك واملأى وعاء (الأجْل) بالعطور يامن أحبها ياحلوة »

ولكن جاسراً لم يكن يفكر في الثياب والعطور ولا كان يريد الاستمتاع بالحياة المشتركة مع أجمل فتاة فى الوجود بل كان يفكر فى تلك التى أذلت كبرياءه فهربت منه وأظهرته صغيراً أرعن قايل العقل أمام أبيه وأمه ثم أبدت تنازلاً بأن قبلته زوجاً لها . . وكان جاسر قد قرر الانتقام من فاطمة . . وكانت طقوس العرس ومهرجاناتها الصاخبة والمشاركة الجماعية فى الفرح جديرة بأن تغسل أى قلب مما فيه من أحقاد فهذه أسرته يتقدمها أبوه تسير خلفهم الحمير وعلى ظهورها الهدايا والثياب والدقيق والعطور وأجمل بنات الأسرة فى أبهى الثياب يحملن أطباق القش الملونة والمنقوشة بزخارف جميلة وعليها هدايا كثيرة وفاكهة وحبوب وخلفهن صفوف من النساء ينشدن إنشاداً جماعياً ويطلقن الزغاريد . ووصل الموكب إلى بيت النجار فخرج أبوها وهو فى كامل زيه والفرحة تملأ وجهه . وبجانبه وقفت أم فاطمة وليس على وجهها أى معنى من الفرحة أو الحزن أما فاطمة فكانت مختبئة خلف البيت وفى قلبها عواطف عارمة متناقضة وأحاسيس

متضاربة فهى تحب الفتى جاسراً وهى فى نفس الوقت تعلم أن الحصول على قلبه عسير فحوله غلاف صلب من الغرور والعناد ولكن تحت هذه الطبقة الصلبة قلب رقيق .

وأخذ الرجال أماكنهم بالمضيفة أما النساء فقد ملأن حوش البيت حركة وصخبا وغناء ومضى الخدم يذبحون الأبقار ويمرون على المدعوين بأكواب الشاي حيناً وبالشراب حيناً آخر . ثم كان يوم الحناء . . وفى اليوم التالى ركب جاسر وبيده اليمنى سوط يعوى وهو يحركه فى الفضاء ويتمنى له أن يمزق جسد فاطمة به وكان هذا الإحساس يمنحه حيوية عارمة يظن معها من يراه أنه دفء السعادة الغامرة بتحقيق الأمل .

وبعد صلاة العصر اتجه الجميع إلى منزل فاطمة وجاسر على ظهر الجمل وهو فى أجمل ثيابه وأمامه كيس كبير مملوء بالهدايا من الثياب لوالدة فاطمة ولصديقاتها . . وفوجىء جاسر بوالدىْ فاطمة عند الساقية بعيداً من بيتهما يستقبلان الموكب ومعهما أقرباؤهما من أعمام جاسر وأخواله ووصل الموكب الكبير إلى بيت فاطمة وتناولوا الطعام وتم العقد بين الزغاريد ثم أقيمت حلقة ذكر صوفية . وجاء الليل وجمعت حجرة واحدة جاسرا وفاطمة ولا أحد معهما وتخيلت فاطمة نفسها وعريسها يحاول أن يجعلها تكلمه وهى ترفض النطق فيقدم إليها نقوداً وهى تأبى الكلام حتى يملأ السرير بكومة من النقود وهنا تكلمه ولكن شيئاً من هذا لم يحدث فقد اكتفى بأن نظر إليها نظرة جامدة باردة ثم أعطاها ظهره ونام واستمر كذلك أربعين يوماً لا يكلمها ولا ينظر إليها ولم تقل فاطمة ـ حتى لأمها شيئاً مما يحدث . وفى اليوم الأربعين انتقلت إلى بيت زوجها . وجاء جاسر إلى والد فاطمة وطلب

منه أن يصنع له سفينة كبيرة لرحلة تستغرق عاما كاملا بل ربما استغرقت الرحلة أكثر من العام وحاول الرجل الطيب أن يعرف سبب هذه الرحلة فلم يستطع وهنا وعده بالانتهاء من صنع السفينة قبل نهاية الشهر وذهب إلى زوجته يحكى لها مادار بينه وبين جاسر فأسرعت هذه إلى ابنتها وظلا يتهامسان همساً طويلا متصلا وبعد قليل ذهبت فاطمة إلى أبيها وطلبت منه أن يصنع لها سفينة كبيرة هى الأخرى ووقفت الأم بجانبها تناشد النجار الطيب أن يحقق رغبة ابنته . وفى وقت واحد بدأ النجار فى صنع سفينتين كان يعمل فى سفينة جاسر نهاراً ويقضى الليل فى صنع سفينة فاطمة وفى يوم واحد انتهى من صنع السفينتين وشرحت له زوجته خلال هذه الفترة الطويلة القلقة دَوْر ابنتها من أجل استرداد قلب زوجها وثقته وحبه .

وجاء الفتى فى موعده وتسلم سفينته وسافر وبعده كانت فاطمة فى سفينة أعدتها أمها الخبيرة بكل ما تحتاج إليه أثناء الرحلة من زاد ومتاع وخدم واستقرت سفينة الفتى عند شاطىء جزيرة « سنيسير » وهبط جاسر إلى الشاطىء فأعد خيمته واستقر مع خدمه . . وعلى الشاطىء المقابل كانت سفينة فاطمة وقد غيرت من هيْئتها ومن ثيابها.

وكانت شعلة النار فى تلك الأيام عزيزة المنال ، وكانت بعض البيوت مشهورة بأن النار موجود لديها دائماً لذلك كان الناس يطرقون أبواب تلك البيوت طالبين شعلة يستعينون بها أو يوقدون وكانوا يحفظون أسماء النباتات ومدى قدراتها على الاشتعال . فنباتٌ سريع الاشتعال والتوهج يتحول بعد لحظات إلى هشيم ونبات آخر صعب الاشتعال عظيم التوهج والحرارة بطىء الاحتراق كما كانوا يعرفون

الفحم النباتى يساعدهم فى صُنْعه أهل الصعيد الذين يسافرون إليهم من الشمال ومعهم الخِبْرةُ والقُوة العضليّة .

وقد تعلمت فاطمة من أبيها أنواع النبات وصفات الأخشاب وقدراتها على الاشتعال بل هى قديرة على استعمال أدواته كما سبق أن رأيناها تخرج من بيتها ومعها أداة من أدوات أبيها حفرت به جدار بيت أحد أبناء عمها حين حاول الاعتداء عليها وأفسدت على العجوز الماكرة حيلتها .

أقام جاسربجزيرة سينيسير ونظر إلى الشاطىء الآخر فرأي شعلة متوهجة فطلب من أحد خدمه أن يحمل أُوزّة إلى أهل الخيمة البعيدة ويشوي الأوزة عندهم وانتقل الخادم إلى مكان النار التى وصفها سيده فلم يجد على باب الخيمة ناراً كما ظن سيده بل هى فاطمة بنْت النجار تتوهج مثل الشظية المشتعلة ومع ذلك طلب منها فى حياء أن تسمح له بأن يشوى الأُوزة إذا كان لديها شعلة فأسارت إلى الداخل وأجلسته ورحبت به وسقته الشاى أو هى قد قدمت إليه كوب الشاى ولكنه صبه على ثيابه من الاضطراب ثم أعدت له النار فمضى يشوي أوزة سيّده وذهنه مشغول ولم يرفع عينه عن الفتاة حتى امتلأ المكان بدخان الأوزة المحترقة . ومضى الخادم يبكى ويلطم ويذكرأن سيده سوف يلهب ظهره بالسوط. لما بدر منه فهدّأت فاطمة من روعه وأتت بالدقيق فعجنته ورسمته على شكل أوزة ثم خبزته له وودعته طالبة له السلامة .

وذهب الخادم إلى سيده ووضع الطعام أمامه وأكل جاسر وقال :

الشكل شكل أوزة والطعم ليس كذلك . . ماذا فعلت على الشاطىء الآخر؟ . .

وهنا طلب الخادم الأمان فلما أخذه قصّ على سيده كيف أن الذى رآه السيد ليس نارا بل هو توهج فتاة مثل الشعلة الرائعة ، إنها تفوق فى حسنها حسن فاطمة بنت النجار ، فليذهب إليها ليعرف أن الله قد خلق كثيرات أجمل من فاطمة .

وذهب جاسر إلى الشاطىء الآخر فوجد حُسنا يفوق كل ما تصور فأخرج خاتمه من أصبعه وقدمه هدية إليها كما قال لها إنه مستعد بأن يقوم بأى عمل تطلبه منه فأرته كومة من بذر الخص وطلبت منه أن يطحنه حتى انتهى من العصر فشكرته وأعدت له الماء ليستحم ثم أسلمت فاطمة بنت النجار نفسها لزوجها الذى لا يعرفها وعند الفجر ودعها وعاد إلى خيمته وعادت هى إلى أهلها ، واعتنت أمها بها إلى أن أنجبت طفلا سمته سنيسير على اسم الجزيرة ، وطلبت من أمها أن تعلق على ثوب الطفلة هدية الخاتم الذى منحه لها جاسر فى نشوته .

وظل جاسر ينتقل من مكان إلى مكان إلى أن استقر به فى قرية منسير ، واستقرت فاطمة بنت النجار فى الشاطىء المقابل وأرسل أوزة مع أحد خدمه وكان أن احترقت الاوزة والخادم يحملق فى حسن فاطمة ، وكان أن ذهب جاسر فبات معها ليلة وأهداها منديله بعد أن عصر بذور السمسم وعادت فاطمة إلى أمها حيث أنجبت طفلا سمته منيسير باسم القرية التى تم فيها اللقاء الحبيب وطلبت من أمها أن تعلق هذا المنديل دائما على صدره .

وعادت فاطمة إلى سفينتها لتلاحق الفتى جاسرا ، فوجدته قد

أرسى سفينته عند قرية « ست الكنوز » فأرست سفينتها على الشاطىء الآخر وأعدت خيمتها كالمرتين السابقتين ، وجاء الخادم طالبا أن تشوى له أوزة ثم أحرقها وتسلم أوزة من عجين القمح وذهب جاسر وطحن أكوام القمح فى سعادة وأهداها عمامته وبات معها ليلة وعاد إلى خيمته وعادت هى إلى أمها حيث أنجبت بنتا سمّتها « ست الكنوز » ومرت السنون وكبر الأطفال الثلاثة وكانت ست الكنوز تزين رأسها بعمامة جاسر . . وعاد الفتى بعد هذه الرحلة النوبية وهو يعتقد أنه قد حطّم نفس فاطمة بغيابه ولكن انتقامه هذا لم يكن كافيا بل انه أعد لها مفاجأة أخرى .

عاد جاسر إلى قريته فلم يذهب إلى بيته بل سار إلى أمه فأقام معها ثم أرسلها إلى أسرة يطلب يد ابنتها وعادت الأم بالموافقة وبدأ الاستعداد للعرس . ووضعت أكوام القمح على « الأبراش » لتجف بعد غسلها وفوجىء خدم جاسر بثلاثة أطفال . . ولدان وبنت على رأسها عمامة أنيقة يبعثرون القمح ويلعبون وحين منعهم الخدم قال الأطفال : لماذا تمنعوننا ؟ إن المال مال أبينا ولا أحد يشاركنا فى ماله .. ونحن عياله . .

وذهب الخدم إلى سيدهم يحكون له ما رأوا وما سمعوا فسار معهم ليرى الأولاد وسألهم عن أسمائهم . . . وقال الطفل الأكبر أنا سينيسير وهذا خاتمك يا أبى . . وقال الطفل الأوسط وأنا منيسير وهذا منديلك ... وقالت الصغيرة وأنا ست الكنوز . فضحك جاسر وقال : نعم وهذه عمامتى . . وسار معهم إلى بيته وفى قلبه خواطر متضاربة . .

فى الليل عاد إليه إحساس مرير وانقباض ، وهو يتذكر كيف

عبثت به فاطمة ، فقرر أن يقتلها ، فتسلل حاملاً سيفه إلى مضجعها ورفع سيفه وهوى به على جسمها فى جنون ووحشية فلم يجدِ دماً يسيل بل فتاتا يتناثر هنا وهناك « وفاطمة تخرج من خلف حجاب فتمسك به وتلقى بسيفه بعيداً وتقول له : الآن انفث غضبك . . . وقد أعددت لك هذا التمثال من عرائس مولد النبى . . ومضت تطعمه بيدها هذه العروس التى حطمها . . وهنا عانقها والدموع فى عينيه .

وهذه حكايات ستّ نوبية على سبيل المثال : أقدمها باختصار شديد :

١ ـ الجزاء من جنس العمل

كان رجل يعيش مع زوجته ومعه ابوه الكهل المتقاعد وضاق الرجل بأبيه فحمله وساربه ليلقيه بعيداً عن البيت . . وفى الطريق قال له أبوه : اتركنى هنا . . هنا فى هذا المكان بالذات . . فقال له ابنه : لماذا ؟

قال الأب الكهل : لقد ألقيت أبى فى هذا المكان عندما ثقلت أعباؤه علىّ وأنا رجل لم أهتم بتربيتك وأنت طفل !! فعاد الابن بأبيه إلى بيته وأجلسه على سرير من القطن الطرى وظل يعنى به عناية فائقة أما زوجته فماتت كمدا

٢ ـ حماية الأسرة

كان لرجل أربعون من الأبناء وابنة واحدة ، وكان يهتم بزوجها وينحنى له فغضب الأولاد وقالوا له « إن زوجها لا يستحق كل ذلك » . . فجمع أولاده وابنته وَزَوْجَ ابنته ، وطلب منها أن تخلع ثيابها فاختفت

فى ثوب زوجها حياء . . وتعلم الأولاد أهمية الزوج . . وكان والد الفتاة يعلم أولاده أن عليهم ألا يشعروا أختهم أن أهلها أشرف من زوجها حتى لا يأخذها الزهو والغرور فتهدم عش الزوجية

٣ ـ أخطار المراهنة

قالت أم الفتاة الجميلة من يسبق ابنتى يتزوجها ، ولم يسبق أحد من شباب القرية هذه الفتاة الجميلة الرشيقة ثم سابقها أخوها فسبقها هل يتزوجها ؟ وهذا لا يجوز شرعا ؟ فهربت الفتاة من القرية وظلت تعدو إلى أن وصلت إلى البحيرة فجلست تبكى ، وجاء الأسد والغول وتراهنا أن الذى يشرب النهر يأخذها . وانفجرت أمعاء الأسد بعد فترة . أما الغول فقد شرب البحيرة حتى جفت .

٤ ـ انكار الجميل

أسكن الفتى أخته فى الجبل حيث له أسير مسجون هناك ، وكان الفتى يحب أخته ويكرمها . ولكنها أحبت الأسير عدو أخيها وكانت تطعمه طعامها وتمصمص العظام ويأكل هو اللحم ثم اشتركت معه فى قتل أخيها ووضعوا الجثة على حماره ليدفنوه فى الجبل ولكن الحمار أفلت منهم وعاد إلى بيت الفتى فى القرية ، وعرف الناس غدر الأخت ولؤم عشيقها فقتلوهما .

٥ ـ الجريمة لاتفيد

زعمت الزوجة أنها مريضة ولا شفاء لها إلا بماء الحياة . . وخرج زوجها يبحث عن هذا الدواء العجيب ، واطمأنت هى من أنه لن يعود فمضت تلهو مع عشيقها .

وفى الطريق قابل بعض الناس وسألوه إلى أين ؟ قال : سأحضر

ماء الحياة . . قالوا له : إن زوجتك فعلت هذا لتخون عرضك . . فلم يصدّق .

وهنا لفوه فى حصير وساروا إلى بيته وقالوا لزوجته : نحن قوم غرباء ونريد أن نبيت الليلة عندكم فى مضيفتكم فاضطرت لقبولهم على عادة أهل القرية . . فسمع الرجل ورأى كل فضائح زوجته ، وكان القصاص .

٦ ـ الخير لايضيع

كان للفتاة عقد ثمين وخرجت مع صويحباتها للبحيرة فوقع منها العقد فتركت صويحباتها يعدن لبيوتهن وجلست تبكى ومر الأسد والغول (انظر الحكاية رقم ٣) ، وتراهنا على شرب ماء البحيرة وحاول الأسد فانفجرت أحشاؤه فمات أما الغول فقد جفف البحيرة .

ومرت عجوز على بيت الغول فأطعمتها البنت وسقتها فمنحتها العجوز جلدها القديم جزاء لها على ما فعلت من خير وبذلك استطاعت البنت أن تهرب من بيت الغول متنكرة ، وسارت بعيداً فعملت عند قصر السلطان حارسة للأوز وكانت تسير بالطيور إلى البحيرة وهناك تخلع جلد العجوز وتستحم وتغنى فيطرب الأوز فيلقى ما بجوفه من بيض فتأكل الفتاة وتعود إلى القصر فى المساء

وقد لاحظ السلطان انعدام البيض فى قصره فسأل عن السبب فقيل له : من يوم جاءت هذه العجوز توقف الأوز عن إخراج البيض فتبعها السلطان حتى عرف الحقيقة ، ورأى جمالها فتزوجها

* * *

وفى هذه الأمثلة المختصرة الستة نلاحظ. أنها تعلم الأجيال القوية أن ترعى الأجيال السابقة وقد ضعفت صحتهم وأصابتهم الأمراض وأصبحوا فى حاجة إلى العون ... والحكاية الأولى تصرخ فى ضمير الفتى النوبى فى مهاجره المختلفة ألا ينسى العجائز والكهول والمرضى الذين كانوا يعيشون فى بؤس النوبة القديمة

والحكاية الثانية يزيد من فهمها أن تعلم أن قريتى : الجنينة والشباك بينها عُرْفٌ شائع هو أن الزوج يكتب فى عقد الزواج ثلاثين جنيها مقدم صداق وخمسة جنيهات المؤخر فإذا دفع الزوج مهراً يصل إلى أضعاف هذا المبلغ فإن المقدم المكتوب المعترف به يظل هو نفس المبلغ الصغير . . وقد أفاد هذا كثيراً فى استقرار الحياة الزوجية وقلة الطلاق فى قريتى الجنينة والشباك .

النكتة

المُلح والفكاهات لا تحكى فى العادة بنصّها ويمنحها الرواة من ذواتهم الكثير إلا أن منها ما لا يمكن التحريف فيه لا سيما ذلك المعتمد على طباق أو صور بيانية وزخارف لفظية وفى النوبة من هذا النوع الكثير . فهذا نموذج فيه تكرار لحرف الجيم (جاوين . . الخ)

حرف الجيم فى طباق

جَاوِيْن جِرِيْد وِيكَ اكِّرا ، جَنْجَا جَجَدَا نَلاَّ جُوسابِدَكِرَا . .
جُلِّيْن جِدِرْوِيلاً . . جِرْدُوسَا جِرْبَيِترهْ جْربَيترِه جْرًا جِرِيْسَتاكُّوفَّانى .

ومعناه : احضر سعفاً قوياً لنخلة من الجانب السميك الملتصق بالنخلة لا الطرف البعيد وصوّب واضربه ضرباً جيدًا متتالياً بعد أن تشد وثاقه إلى نخلة واضرب حتى يتلف .

وهناك خطاب فكاهي مشهور عند النوبيين من تأليف المرحوم (حسين فييس) ، وكان من أشهر الأدباء الشعبيين الفكاهيين فى بلاد النوبة وكان أمياً . وذات يوم وصل خطاب لامرأة فى قرية مجاورة لا تعرف الأدب الشعبي . وقد ذهبت لشيخ المسجد ليقرأ لها الخطاب فنظر إليه ثم قال لها الملخص فلم يعجبها اختصاره .

وفجأة نظرت ناحية الشاطىء فوجدت (حسينا) يمر وقد لبس عمامة كبيرة فنادته : يا شيخ . . يا شيخ . . أتوسل إليك أن تقرأ هذا الخطاب . فأمسك بالخطاب وقرأ :

« قد ورد تلغراف من حج خليل الحلاقين إلى أهل منزلنا داريا سليمان بإذن الله جاييلكم فى الكيتج كيتج ن أرّفكِير. ابو جولى اكاتريكنى اوس مسكا فجّتسا . . فجتسَنِّى . فجتركمننا استنينى تحت الجرجودا مرتن جرّا منجنتا وَابْجرْن .

إذا نزلكم الجراد من الجبل فهودوها بشمال ويمين جرجودان كسلجو هوداوِيجَانْ . وإذا كان بيك المرا الكُهْنة العجوزَا نِيرّاجُوْن قد اضربوها شِيطَانِنْ كُسِّلُجُو . خَلِّى يجرجش جرجودا دسيكا كُرْمُوفَّامِنِي . وإذا كان يجيك البنت المنقوشة المهندسة ، تحت الفراش . تحت اللمبْه . اكاريحُوكَوُنى يا سيدنا . ولا توجع جلوبها . اِيْتُوتَانْج ادِّكِرْتتَام . كفر الزياتين جطن ارِين ايدِ سِّيْنجُونى طلع جكِّتين ونُص . مراند مونى أووفنجتنجا بفلون .

أما البقرة الدهيسة ولا يأكل ولا يهُش فى الخيمة . أرسل تِيْنِ تمن . حالاً سريعاً لَجُونْ ايجادُوِّكرِوُش . حاج نسكلى ارين طمرناى

ايجسينجون هذا طمرناه . . تونى أوُّو مروافين . إرئين كِكّان فججروى ايجدا جسين كتجون- قد أخذها الجِلِجْ اناو جاراكرار كونى ، شبكا فوديولوج أدا معزور انجاجدنجا فين .

أرسل المصاريف والبن والصابون المصرى والليف الحجازى لجل غسلكم دارية على كرار هذاو ظد اجّج عليهم صوابن تُلْتلى بن نارك جهنم يارب العالمين . عَلَىَ الضَّالِيمْ آمِينْ .

وواضح أنك تجد كلمات عربية متناثرة ولكن صلب الخطاب بالنوبية ، لذلك فرحت السيدة الطيبة بقراءته وقالت : شكرًا لك أيها الشيخ الفصيح أما شيخ المسجد فإنه لا يعرف القراءة ولايفهم إلا فى الهمهمة غير المفهومة . . وقد حدثها فى خطابه المزعوم عن كل مشاكل المرأة النوبية ومشاكلها من أهل زوجها والجراد الذى يهبط من الجبل وأسلوب مقاومته وبقرتها والساقية والذئب الذى يلتهم الغنم والطرود التى بها الهدايا .

وهذه حكاية فكاهية اسمها « هَمَرِيْنَ وبِجِيوهْ » أحكيها بطريقة الجمل القصيرة النوبية (ترجمة حرفية) :

صلوا على النبى : قال همرين ليجيسوه : سأذهب إلى السوق وأبيع القرنفل والبخور وآتى برزق لنا وأحضر حماره ووضع عليه مخلاتين وذهب إلى السوق ولم يستطع أن يبيع شيئاً . وعند عودته وضع فى الأوعية الفخارية على رءوس المقابر ما معه وقال لهم : لقد وزّعت عليكم ما كان معى وأنتم مما سيعطيكم الله اعطونى وبجانبهم هناك نام تحت أشعة الشمس .

وجاء لص ، جمع ما فى الأوعية وأعادها إلى المخلاتين وحلق له لحيته أيضاً . وركب حماره ومضت به . بعد قليل استيقظ همرين من نومه ونظر إلى الأوعية فلم يجد بها شيئاً وبحث عن حماره فلم يجده ومن حيرته أمسك بلحيته فلم يجدها . ماذا أفعل الآن ؟ هل أنا همرين يا ترى أم لست أنا ؟ سأذهب واسأل زوجتى إذا كان همرين هناك فلست أنا . وإن لم يكن هناك فهمرين هو أنا البائس ووقف خارج البيت ونادى : يا بجيوه يا بجيوة ، أجيبى ، هل همرين عندك ؟ وأجابت من الداخل : لا ، لا لقد خرج من الفجر إلى السوق حاملا العطر والقرنفل ولم يعد .

لقد أضاع همرين القرنفل والبخور والحمار وأضاع لحيته أيضاً .. إذن فهمرين هو أنا . . قالها ودخل إلى بيته ! ! .

الأمثــال :

ويحتفظ الناس بتراثهم الفكرى فى أيامنا بطرق متعددة تعتمد فى أغلبها على الكتابة والقراءة والتدوين والتبويب ، وتقوم دور الكتب ودور الآثار بحفظ الكلمة والصورة بأشكال متعددة . وقبل عصر التدوين كانت البشرية تحفظ تراثها وتجاربها وذكرياتها وموقفها من الحياة والناس ورأيها فى الخير والشر وحكمها على الناس والأشياء والقيم فى أمثالها والتى . كانت وسيلتها الوحيدة الرائعة حيث تركز وتلخص وتحفظ وجودها فى كلمات قليلة منسقة سهلة الحفظ .

وفى الأمثال الشعبية يكثر ذكر المرأة بأعضائها وما يحدث لها من حمل وطمث وولادة فهى الأم وهى صورة البيت والأمن وراحة الزوج

وهى لبقائها بالبيت قليلة العراك مع الواقع الحى فهى لا تستفيد كثيراً ومن هنا قد تتصرف أحياناً بحمق وتنقاد لرأى أهلها الحماة . وشرفها لا يَرتبط بها وحدها بل بزوجها وأولادها ومن هنا كانت أخلاقياتها ذات حكم جماعى .

وهذه بعض الأمثال العامية من غير المنطقة النوبية : سِتّى مَا جَاتشِّر شَيِّعِتْ فَرْدِةِ خُلخالها ، اللى تعمله يا فقى فى الصبية تلتقى ، من كترهمه اتجوز قد أمه ، زى العوالم ما يتلاقوش إلا فى بيت الزبون ، إكفى الزبدية على فُمها تطلع البنت لأمها ، القديمة تحلا ولو كانت فى الوحلة أم الأخرس تعرف بلغاه ، الحما إن ما تكلمت هزت رأسها ، إن طلته اقطع إزارها ، قرعة وتتضارب على المشط .

أما الرجل فالأمثال حوله لا حصر لها : يحسدوا العريان على كبر كرشه تقول طواشى يقولوا أولاده كام . . . الخ .

والأمثال النوبية تكثر من ذكر الرجل والمرأة وأعضائها وطبيعه تكوين كل منهما والمرأة الحبلى ألهمت الكثير من الأمثال كما أن العاهرة جذبت الانتباه عند تكوين الأمثال أما الرجل فبذكورته وقدراته وسيادته . وهى فى أغلبها تمجد العمل والجهد البشرى ، وتعلم الناس عدم التكالب على طيبات الحياة وتطالب بالإتقان والإبداع .

ولكن أروع ما فى الأمثال النوبية البيئة وصورها وهى ليست فريدة فى هذه اللّفتات فالأمثال العامية غير النوبية ذكرت الريف بحيواناته وأدواته ونباته : « ما يحن على العود إلا قشره ، الشرط قبل الحرت ، زى الكلبة تولد ثمانية فى بطن . زى التعبان ياكل اولاده حمار ما هو لك عظمهُ من حديد ، اللى له قيراط فى الفرس يركب ،

زى القط. ياكل وينكر ، يا فرج فرج يا معلّى الدرج ياللى فتحت البيضة للكتكوت خرج » وهذه بعض الأمثال النوبية بنصها النوبى وترجمتها :

١ - جُونْيتنْ تُولْ دَافِيكُوينِمْ إِرْنِى » وهذا المثل يقال للذى يزعم أنه يعلم كل شيء وليس فوق علمه عليم ومعناه : أنه يعلم ما فى أحشاء المرأة الحبلى .

٢ - ادِينْ أُوكِّى نيجَا » والمعنى الحرفى إن أذنى المرأة لا تسمعان والمقصود بالمرأة هنا تلك التى تفرط فى عرضها وتظن أن الناس لا يعلمون وطالما أن الناس لا يواجهونها بما يعلمون من فضائحها فهى لن تسمع رأيهم الحقيقى شأنها شأن الصماء .

٣ - فَايُونْ جيْرِيُولِّ فِجِيَرا ؟ أى لن يكون كل من تعلم القراءة والكتابة شيخا زاهدا يقرأ الكلمات المقدسة فكم من مثقفين ومن ذوى المراتب العالية من يستغلون علومهم وثقافتهم ضد الناس من أجل أطماع خاصة ومثل آخر يقول :

٤ - جَرُّبُجولِى شبيِكَالْ جُوكِسا ، جُوكَوانجُونْ مَاسْكَا بِيْجكِسا ؟ أى أن الأشرار ما كانوا يزورون ضريح الشيخ الولى للتبرك أو للعبادة وإذا ذهبوا لم يقصدوا بالذهاب خيرا ولا صلاحا .

٥ - « إِكا جِلا مشَاكدِكِّى إكاكبَا مَشَاكروُمُونْ » ومعناه الذى يعمل لخدمتك حتى غروب الشمس لن تستطيع أن تقدم إليه طعاماً يبدأ فى أكله عند مشرق الشمس ويستمر فى الأكل إلى غروبها بل سيأكل لحظة فيكون متفضلا عليك مهما أغدقت عليه فى الثمن .

٦ - أُسورْ وْرِجَافِينْ بَلاَنْجَا كَاسَا كَاجِى أى إنه يهتم بالمظاهر التافهة ويتجاهل الضرورات الهامة والمعنى الحرفى أنه يضع على رأسه عمامة من الحرير بينما لا يغطى عورته .

٧ - والنوبى يلجأ أحيانا إلى أمثال ذات طعم خاص بلا صورة ولا تفاصيل فيقول إن عليا هو على « ألِى تَا أَلِيسِنْ » ويقال للشخص الذى تتغير ظروفه الثقافية أو المادية إلى أفضل ويظل دنيئاً فى نفسه فارغ الفكر أو فيه عيوبه القديمة .

٨ - « إنْجُونى اِينْجَاتِينا ؟ » بمعنى « حتى هذا ننصت إليه ؟ فليس كل كلام يستحق أن نهتم به .

٩ - وفى الأمثال النوبية نجد البيت ومخزن الغلال والحجرات والزير وادوات المطبخ مثل : كَبَاجُومِنْ مِرتى دِجَا فِيجُونْ كِرَانْ جوُسِى لُودِرْ » ومعناه كل واشرب واعده لمخزن الغلال على حاله » للأوامر مستحيلة التنفيذ .

١٠- «آدِمْ دُوشْ هَتَابَانْ كِيدْ مَرنُّوو جوُشِينْ » أى أن الغبى هو الذى تصدم قدمه بعتبة الباب مَرتين »

١١- والأدوات التى تستعملها المرأة فى البيت نجدها فى أمثال النوبة « إنْ تَللِّيجُوْن كِلنْجِنْ تِرِسًّا مِّنيياَ » أى أن إبرة الخياطة تحدث صوتا عند وقوعها فهى أيضا من الحديد ! .

١٢- «مَنْجَاسّى جَلَجَا جُونُّوْنْ أَسُورًّا ادَمِّينْكَانْ» إنه مثل المقص لايتحرك إلا إذا حركته بأصبعيك لا من ذاته .

١٣ - وأنواع المزروعات مذكورة فى الأمثال مثل : « أَدِّجْ كَاجى

أُسُر سِسشكُّنْ » ومعناه أن من يملك أغلى العطور بكميات كبيرة جدا يضعه فى أماكن تتلفها ويستعملها فى غير مواضعها .

١٤ ــ وفى الأمثال النوبية نجد البيئة الزراعية والرعوية وصيد الطيور والنيل والساقية والقناة والحوض والمصرف والماشية والنمل والنباتات الشوكية مثل : « بُنْدُكْ تَرْكُولِى كِتادْنَا بِسِيدِى ؟ » بمعنى هل تصطاد البندقية وحدها غزالا ؟ .

١٥ ــ مَارْتِى جُوكِّيْن فَانَا جُونَا ؟ « أى هل يصل ماء الساقية إلى الحوض البعيد قبل أن يمر على القناة » ؟

١٦ ــ والساقية نجدها فى أمثلة أخرى مثل « القادوس المثقوب لا يرفع ماء الساقية » « فِيشى أُوفِّى أَمَنَجَا كِيْركمُّونْ » .

١٧ ــ مِسَراجُونْ سَامِى فِيافِينْ » ويقال للذى يفاخر برجولته لمجرد أنه ذكر فى الوقت الذى لا يحمل فى أعماقه روحاً سامية ورجولة حقيقية « حتى العنزة يتدلى منها صوف مثل لحية الرجل» .

١٨ ــ « جُو الجَوُنْ أُنِى تَا ْكِلِّ دَافِيْن » حتى النملة لها مخ وعقل تفكر به على قدرها .

١٩ ــ وهذا مثل يقال عن الاوضاع غير السايمة « كِيدِنْ كدَا جِيكِّر البَعْرُ يغوص إلى أعماقه .

٢٠ ــ أما الشوك فهو يذكر كثيرًا فى الأمثال النوبية مثل : « جُلُّوْج جُونيكا جنْدى شَكُّمُنْ » أى أن الشوك لا يصيب قدمى من ينظر إلى مواقع قدميه .

٢١ ــ « جندى جَاجى فنتيك كوُّومون » الذى يخاف الشوك لا يجنى البلح .

٢٢ – « تيجَا جَانْمُورنِّى ملِّجْ ملِّنَانْ ؟ » هل تعقل الحبل قبل صيد البقرة ؟ »

٢٣ – وعن الذى يستغل الشىء إلى أقصى طاقة ممكنة وفوق طاقته يقول النوبى معجباً بمن يصنع المستحيل يحلب من النملة لبناً « جُو التُونْ سُوْج دَكِّنْ » .

٢٤ – وهو لا يحبُّ أن تأخذ لقما كبيرة أثناء طعامك فيقول : إنْجَا فَكِنْ امِبِيجَالْ تِفِّى وَالا أَجِلْ فُدِى ؟ » ومعناه هل ستقذف بهذه ، ثمرة من ثمرات الدوم لتسقطها ، من نخلتها ، أم تضعها فى فمك ؟

الألغاز والأحاجى

الألغاز تكشف طريقة تفكير الأمة ولون عبقريتها وهى حكم الجماعة على الأشياء ومن هنا نجد أن « الفزورة » السهلة فى منطقة تكاد تصل فى صعوبتها للاستحالة واللامعقولية فى منطقة أخرى وما يمكن فى زمان أن يكون تفسيرًا يصل إلى حد التعريف الدقيق ، يتحول فى زمان آخر إلى إبعاد لذهن المتلقى عن الموضوع . خذ مثلا هذا السؤال « ما هو الشىء الذى تقذفه بالحجارة وترجُمه فيقدم إليك الهدايا ؟ » إن تلاميذ المدارس القاهرية لن يصلوا بحال من الأحوال إلى النخلة لأن علاقتهم بثمارها يتصل بالبائع والنقود أما الطفل الريفى فسيجيب على الفور إنها النخلة . . وهذا سؤال آخر : « ما هو الشىء الذى فى حجم الكف ويقتل المائة والألف ؟ » فى مجتمع متأخر يتصور الإنسان تلك الأداة الصغيرة التى تمر على الشعر فتكنس امامها جيوش القمل فيسرع مجيبا

المشط . . المشط . أما أبناء عصرنا الذين يعرفون المشط أداة للزينة والوصول إلى المظهر الجميل ، فسيذكرون فورا القنبلة فهى فى حجم الكف وتقتل الألف والمليون .

والأحاجى النوبية واسمها « أُورْتِي تُورْتِي نَانَا » تُصور البيئة الزراعية الرعوية وتتحدث عن الحرف البسيطة مثل المصنوعات من الخوص وهذه بعض (الفوازير) النوبية :

١ ـ انَّا وْكُكِيٍّ مَشَالاَّجِي ان جدتى لا تتحرك من مكانها بالرغم من الشمس الحارقة والحل الوتد الذى تربط به السفن والدواب .

٢ ـ تَارْوِرْجَافِينْتَانْ وِيكُونْ كِيٍّ نِتْجِى[1] (عريان ويكسو غيره) والجواب : الإبرة .

٣ ـ وَرَوَفْنِينَتَانْ كَرَاجْ كَانِتَنْ (وهو يجرى يصنع أطباق الخوص) « الجمل » الحل ، فهو يصنع على الأرض بخفه دوائر مثل أطباق الخوص .

٤ ـ مِدَّفِينْتَانْ كِيرِنْ فَادِيَا انْتَانْ سُكِّي (يصعد ممتلئاً ويهبط فارغاً) (قادوس الساقية) .

٥ ـ فَادِيَا انْتَانْ كِيرِنْ مَرِّفِينْتَانْ سُكِيٍّ (يصعد فارغا ـ ويهبط ممتلئا) الرجل الذى يصعد ليجنى الرطب . .

٦ ـ سِدَّنْ أُسُرْتَانْ جَوَرَا) دائماً أسفله مبتل (السفينة) .

٧ ـ اجِكَّافِينْ سَامِي جَنَّجا تِينَانْ (ينام على ظهره ويحلقون له لحيته) الجدول حيث تنمو الأعشاب على جانبيه مثل لحية الرجل

---

(١) قدم لى هذه الفوازير وخدمات أخرى مفيدة لهذا البحث الشاعر النوبى محمد صالح شريف .

وأنت تلاحظ شبهاً كبيراً بين الأمثال «والفوازير» ففى كليهما نشم رائحة الريف والبيئة البسيطة ومع بساطة الصور فإن الطابع الشعرى والتصوير غالب عليها مما يجعل بعض الأمثال تتحول إلى أحاجى كما أن الأحجية قد تتحول الى مثل وكل منها إلى مقطع من أغنية أو يولد من مقطع من أغنية.

فنانون أصبحوا جزءا من الحكايات الشعبية

كان النوبى يستنكف ويحتقر أن يكون منشدا مغنياً محترفاً بقدر حبه وتقديسه للإنشاد والغناء لذلك كان المهاجرون أو المجلوبون من السودان هم الذين يتزعمون احتراف الغناء والشعر والموسيقى ولهؤلاء يدين الغناء النوبى بإيقاعاته الإفريقية الدافئة التى أصبحت فيما بعد نبعاً للإيقاعات السودانية ومن بين هؤلاء الرواد المهاجرين إلى النوبة من السودان الفنانة «يُخْبُوجِّيْة» الى أحبت الفتى النوبى «دهِبْ سَامَا سِيبْ» وأنشدت فى غربتها وفى حبيبها دهب أغانى تسيل دموعا وتتمزق حسرات. وكذلك وقف التوأمان «يَرْمى بَانَدا» علامة فى طريق الفن النوبى.. وقدم خُوجَلى عَبدْ المجِيدْ الملحمة النوبية أما حسين فييس فأدخل الفكاهة فى الغناء النوبى ومهد للمسرحية النوبية[1].

شلوية

وشالوية: كانت فنانة غير محترفة يدعوها الناس إلى أعراسهم لقدرتها ورخامة صوتها بل إن النوبيين لم يكونوا قد عرفوا المغنين المحترفين. فالنوبى ينشد ويغنى بطبيعته وفى كل المناسبات وضاق زوج

(١) هذه الحكاية قدمها لى الصديق عبده حسن محمد (توماس وعافية).

شالوية واسمه « فِقيرْ الجَازْ » بالحياة فى القرية فهو يغنى ويكسب قوته وقوت زوجته التى أحبته لفنه وجمال تقاطيعه وصوته العذب الحنون ولكنه يريد أشياء كثيرة : أن يمنح زوجته الحلى والثياب وأن يسعدها بترف المدينة فالقاهرة شوارعها ذهب ومآذنها ماس وياقوت فليذهب إلى هناك ليغترف من هذا الثراء . وزوجته شالوية ستلحق به بعد قليل فى المدينة لتسكن قصرا عاليا وتأكل الفاكهة وتلبس الحرير وتسبح فى أنهار الثراء العريض. ولكن فقيرالجاز اكتشف لأول مرة أن المدينة تحتاج إلى قدرات خاصة صناعية وفنية وهو لايملك إلا قليلا من القدرات الزراعية ويستطيع أن يغنى بكلمات لايفهمها أهل الشلال .

وانتهى المطاف بفناننا الشعبى فقير الجاز إلى أن يعمل بوابا فى بنك : بواب عليه أن يقوم فى اليوم من مقعده مائة مرة ويده مشدودة إلى وجهه فى تحية ذليلة وهو الذى كان – حتى العمدة – يرهب لسانه وبقيت زوجته على عهدها تذكرفى حب وتحزن لفراقه فيسيل حزنها وشوقها نغماً شعرياً . « ايْجَاتَنَّا جُو فِقِير الجَارْكَا : شَلَوِيَّة دُكِّسِية نْاجْنَاني » ومعناه «اذهبوا من أجلى وقولوا لزوجى إنى مازلت على الساقية حافظة لعهدى واستمرت شالوية تعمل وتغنى والآمال الحلوة تملأ روحها وترفرف حولها ومرت بيدها على ثيابها الممزقة وتصورت كيف ستتحول هذه الثياب إلى حرير ملون ومرت بيدها على جيدها وأذنيها وأنفها وبعين أجلالها رأت الذهب يملأ وجهها ويديها وأصابعها . ثم علمت بالعمل الذى يقوم به زوجها فى المدينة فغنت ما معناه : «إن العمل فى القرية فى أسوأ الظروف خير مما فعلت يازوجى الجالس فى (بنك) ذليلا » ولكن الدهر لم يكتف لشالوية بمأساة زوجها وكان لابد

للأحداث أن تتوالى عليها مربدة تبعث الحزن وكانت ضربة القدر الثانية فى أخيها الذى كان هو الآخر فى القاهرة يبحث عن الثراء فلما لم يجلنه ضرب ونهب حتى قبضوا عليه وقيدوه بالسلاسل وجاءوا به محروساً إلى قريته النائية تحت مراقبة الحكومة عاد بلا زاد ولا هدايا ولا شىء إلا الذل والمهانة

ولم تستطع شالوية أن تعبّر عن مأساتها بالغناء فإن العار يمسّها أكثر مما يمس أخاها فمضت تجتر أحزانها وتعكسها فى غنائها الباكى المؤثر أما زوجها فقير فقد تمرد هو الآخر على الذل والفقر فترك عمله وخرج ليكسب قوته بالقرصنة والصعلكة وأعمال الفتوات وكانت النتيجة المنطقية أن يقيد هو الآخر بالسلاسل ويعود إلى قريته .

وكان من سوء حظ الزوج أن اضطرت السفينة الكبيرة «البوسطة» أن ترسو – بسبب انخفاض منسوب المياه – فى منطقة مهجورة اسمها « فِقِيرْ نَانْجِى » أى النخيل المهدى لمزار الشيخ التقى . ومن هناك قادوا الزوج الفنان إلى بيت العمدة حيث تمت الإجراءات القانونية وأطلق سراحه .

وكانت الزوجة تغنى فى حفل عرس ، أغانيها الحزينة الصادقة ، عندما وصل خبر عودة زوجها فى هذه الظروف السيئة وهو لايحمل إلا صرة بها متاع قليل . وهنا غالبت شلوية دموعها وكتمت حزنها واستمرت فى الغناء وعرف الزوج بمكانها فذهب إلى الحفل وسمعها تغنى : « لن تقيم معه تحت سقف واحد ، زوجة الرجل الذى عاد حاملا صرة حقيرة وفهم أنها تقصده فأنشد على الفور : « وهناك من يأتى وليس معه شىء بالمرة يحرك يديه إلى أمام وإلى خلف » وفهمت شالوية أنه يقصد أخاها إن المسالة ستصل إلى إحراجها هى باعتبارها أختاً لرجل ضائع فالرجل

فى الريف لايضيره أن يدخل السجن ولكن الانثى حساسة فى شرفها . إن زوجها مازال حاضر البديهة سليط اللسان . وهكذا تركت العرس صامتة وعادت إلى بيتها وعاد زوجها خلفها إلى البيت ليغفر لها وتغفر له .

غليب وسكينة :

عندما حمل الفنان النوبى الرائد محيى الدين شريف راية التجديد فى شعرنا الشعبى والحاننا النوبية لم يستطع أن ينسى هذه الظاهرة فى فننا النوبى فمضى يدرس ويعاين الفن النوبى فى جميع أطواره ووقف عند هذه القصة الواقعية .

كان غليب كهلا متهالكا . وزوجته سكينة العجوز تعينه على اعمال الزراعة . وكان غليب يرى يصعوبة من أثر السنين . وقد ودع الزوجان من زمن ابنا لهما اسمه . نجم الدين ليعمل فى القاهرة ويرسل إليها النقود من وقت لآخر مما يحصل عليه من أعمال (الفتونة) فى بولاق .

وكان الشبان يعاكسون الزوج الكهل بأن يقف الواحد منهم بجانب الساقية وينادى « ياغليب . . نجم الدين مات . . وصل الخبر فيوقف غليب الساقية ويمضى مع زوجته يلطم وجهه مولولا ويجتمع الكبار العقلاء حول الشيخ يهدئونه ويطمئنونه إلى أن يعود إلى عمله .

ولكن النبوءة تحققت ووصل إلى القرية خبر وفاة نجم الدين لقد اجتمع أعداؤه حوله وحاصروه وهو يضربهم ويدافع عن نفسه فى بسالة إلى أن سقط بينهم شهيدا .

وفى يوم عيد وصل الخبر إلى العجوزين فجنا من الحزن والذعر وتركا القرية وصعدا إلى الجبل . ودون وعى وجدا مغارا فدخلاه وهما

يهتقان فى صراخ ويضربان الأرض بالاقدام فى قفزات هائلة وأصداء المعبد المهجور تضفى على الأصوات رهبةً وعمقاً . كانا يقولان : اعطنى وليدى . . لالن أعطيك وليدى . . – (ايْجَا دِينْو وِليَدِانْجَا . لاَتمِّونىٌ وِليد نجَا) .

وخرجت القرية تبحث عن العجوزين إلى أن وجدوهما فى المغارة وكان مع الباحثين نساء وفتيات وأطفال والتصقت الصورة فى أذهان الأطفال وأصبحت لعبة الأطفال فى كل عيد أن يتجهوا إلى المغارات لإنشاد كلمات العجوزين .

السحر

وقد كان السحر فى العصر القديم مثل الطب فى أيامنا ، تتخصص فيه قلة من الناس ويعرف عدد أكبر معلومات تضيق دائرتها بالتدريج ولا يبقى على الباقين إلا أن يلجأوا إلى الطبيب . . ! ! وما زالت بطاقة الدواء التى يكتبها الطبيب فى ايامنا صعبة على المثقفين من التخصصات الأخرى وهذا بقية من كهانة العهد القديم .

وقدساير السحر حياة الناس منذ وجودهم ، وحاولت طقوسه أن تأخذ شكل الدين ، ولكنها لم ترق إلى مستواه ، والسحر قد حاول أن يخفف من خيبة الأمل البشرى أمام الآمال التى لاتتحقق أو يستحيل حدوثها فى الواقع الحى ، فاخترع التمثيل كأن يأتى الساحر بجلد فأر ويصنع منه كيسا ينفخه أو يضربه بعصا رقيقة فيتدفق الهواء إلى أمعاء الظالم وتدمى جلده ضربات الساحر لفأره بعيدًا عنه وكأن تحرق قطة ثوب ظالمك كأنما أحرقته هو وهكذا كان السحر جزءا من التكوين النفسى فى العصور القديمة فصدرت القوانين ضد السحر الأسود .

مع الحيثيين :

وقد وجدت فى أطلال بوغازكوى قطع من الصلصال عليها قوانين الحثيين وفيها نجد من الجرائم التلويث بالسحر وكان القرار الملكى ضرورياً فى قضايا السحر وفى كل القضايا التى تتطلب حكم الإعدام .

وكان الاغتصاب والجماع الجنسى مع الحيوانات . . وتحدى سلطة الدولة هى الجنايات الرئيسية الوحيدة ! ! ! وإذا كان الجانى

عبداً زيد على ذلك عصيان سيده والسحر - والتشويه الجسدى - وهو عقوبة عامة فى قوانين الأشوريين - قاصر هنا على العبيد فقط. أما كل الجرائم التى يرتكبها الأحرار بما فى ذلك الاعتداء والسحر الأسود ... والقتل والسرقة وكل أنواع اتلاف الملكية ، فيُقَوَّم بالتعويض أو ردّ الشيء إلى أصله .

وفى المادة ١٧٠ - « إذا قتل رجل حرحية ونطق باسم رجل آخر (نوع من السحر) فإنه يدفع رطلا من الفضة ، أما إذا فعل ذلك عبد فإنه يعدم .

وهكذا صدرت قوانين جنائية ضدّ السحر يوم كان السحر معترفا به كأداةمدمرة ، وفى مثل هذه الظروف كان المسخ وتناسخ الأرواح والاستخفاء والتحول إلى كائنات أشرف وأجمل وغير ذلك من الأمور التى تخرج عن المنطق اليومى ، حقائق يمكن لأبناء تلك العصور أن يقنعوا بها ، بل ويشاهدوها من كثرة تمثلهم لها وإيمانهم بها .

أنواع الجن :

هناك نوعان من الجن عند من يعتقدون فى دلك مؤمن وكافر ولكليهما قدرات خارقة ، وكان نبى الله سليمان يرهقهم بالعمل بالمغنى حتى يشغلهم عن الشروليروض نفوسهم ، وحين مات وهو متكىء ، على عصاه ظنه الجن مستمرا فى حياته فواصلوا عملهم الروتينى اليومى الذى يتلخص فى نقل الجبال من أماكنها إلى أماكن بعيده ثم إعادتها إلى أماكنها (لاحظ كذلك أسطورة سيزيف سارق النار من الالهة وعقوبته بنقل صخرة إلى أعلى الجبل ثم تنحدر الصخرة إلى السطح وهكذا) ثم بدأ السوس بعد مئات السنين ينخر فى العصا حتى لم يعد يقوى على حمل جسم النبي ، ويومها تهاوى سليمان النبى على الأرض وتحرر

الجن من سيطرته ولكنه بعد أن امتلأ البحر بالقماقم المسحورة سجون عصاة الجن والعفاريت (قالو) واستمر الجن فى الدخول فى الاديان المختلفة إلى أن جاء الاسلام فدخل بعضهم ، أماالكافرون منهم فانهم يحاولون أن يستمعوا إلى أحاديث السماء فيصعد كل منهم على كتف الآخر ، وقبل أن يصلوا إلى قواعد عرش الله تنطلق الصواعق وتحرقهم .

العفريت :

والعفريت المؤمن هو صنف من الملائكة ويتفوق عليه فى أنه لايتفرغ للعبادة عند قوائم عرش الله بل ينشر الخير فى العالم ويقف فارسا يذود عن الفضيلة والقيم والعفريت الكافر يكاد يقوم بأعمال الشياطين (سمبجو) أى الذين نقول بسم الله الرحمن الرحيم حين يظهرون .

الشيطان :

ولكى نوضح أن الشيطان ـ على عظمة قدراته ـ أقل عبقرية من الجن نلجأ إلى المثال الآتى : لندلل على محدود قدرة الشيطان ، فانت تستطيع أن تضرب فى الأرض أو تدانإلى قشتمنه وأنت تردد المعوذتين فلا يستطيع أقوى الشياطين أن يواجهك . أليس هذا وحده عجزا يقلل من هيبة الشياطين عند الناس ؟

وهذه أمثلة من خارج بلاد النوبة ـ يرويها السيد محمدين محمد من عرب الاطاوى مركز ابنوب الحمام باسيوط : فى الجزء الأخير من الليل ، كنت خارجا لصيد السمك ومعى شبكة الصيد ، لونها أسود وأبيض (لاحظ التفاصيل وعد إلى سمات الحكاية الشعبية بينها وبين الخرافة فى مكانه من البحث) ورفعت طرف ثوبى مهيئا نفسى لحمل ماأصطاد منها ، وأسرعت خلف احدها فامسكت به ووضعته فى حجرى ، وأسرعت

خلف الثانى الذى حاورنى وبتعب امسكت به ووضعته مع زميله ، ثم عدت أجرى ، خلف الثالث حتى أمسكت به ووضعته فى حجرى ، وحين كنت أجرى خلف الرابع كانت الارانب الثلاثة قد اختفت من حجرى ، ولدهشتى تلاشى الأرنب الرابع ايضا فأنزلت طرف ثوبى ومضيت فى طريقى .

وقال : فى فترة الظهيرة كنت على ظهر حمارى أسير بين مزارع القمح والفول ، وسمعت صوت خروف « باع باع باع » قلت : ياواد إدى صيده « ونزلت من فوق حمارى ، وحملت الخروف ووضعته على ظهر الحمار امامى ، وفى الطريق «رجلين الخروف جرت وراء الحمار ، وبتشطشت على الارض ، رحت راميه ونخست الحمار « لقد كان الخروف شيطانا يحاول السخرية من الآدمى وربما حاول إيذاءه .

وعنـد ماكينة الطحين كان محمدين يسير على شط البحر فى (الرملة) فوجد فتاة من أهل الصعيد عارية تماما ، ولما كان قد تعود ألا يملأ عينيه من امرأة فقد تركها ومضى - ومعه العصا فى نهايتها خنجر (خشت) وبدأ خاطر يراوده على شكل سؤال ، ما الذى جعل المرأة تخرج إلى النهر فى هذا الوقت المتأخر وفى هذا المكان المهجور ؟ وما إن فكر هكذا حتى لاحقته الحجارة فمضى يعدو كالمجنون لينجو من الحجارة ، وحين وصل إلى ابن عمه والعرق يتصبب منه وقص عليه القصة قال له ابن عمه « إنك قد رأيت زمزم » لقد كانت فتاة سيئة السيرة فقتلها أهلها وقتلوا اخوتها معها وقطعوها إربا إربا ووضعوها فى جوال وألقوا بجثتها إلى ذلك المكان « إن زمزم قد تحولت إلى شيطان فيه كل سمات الشياطين وليس إلى عفريتة لأن العفريت من الجن .

فى بلاد النوبة :

ونجد الفنان رجب من قرية أرمنا يقول إنه كان يركب حماره فى طريقه إلى بيته بعد أن ودع المسافرين فى سفينة البوسطة فى ليلة قمرية فظهر كل شى أمام الرائى بوضوح تام بجانب الاخدود(الخوْر) ورأى رجب كائنا اسود اللون يخرج من النهر وكان من الواضح أن ذلك الكائن لم يكن تمساحا فقد كان يلمع (تِيمينْجى) وهو يصعد ويهبط فى الأخدود ، واستمر الفتى فى سيره فرأى عن يمينه شبحا أسود البشرة جالسا بشكل رهيب كالمجرمين وإلى اليسار سيدة بيضاء تلبس ملابس بيضاء ، وألقى رجب السلام فلم يرد الرجل بل همهم بصوت أجش . وابتعد الفتى عن المكان (خور اشلاكف) وجسمه ينتفض من الذعر ـ وفى البيت قالت له عمته : لماذا لم تنم هناك ؟ وكيف قطعت الطريق الخطر إلى بيتنا ؟

العفاريت تملأ الطريق ، الحمد لله انهم لم يصيبوه بمكروه (تَارْشَا كُمُّونَّانْ) يجب أن تملأ ملابسك بالمعوذات والاحجبة قبل عبور ذاك المكان ـ وقالت العمة (اوَابَ) للفتى : إذا سهرت فى الخارج فنم حيث أنت أو عد فى قافلة فالطريق مملوء بالمكاره .

والفنان رجب يحكى عن صديق له كان يسير ليلا بحمار أسود فسأل نفسه : من الذى ترك حماره فى هذا المكان ، وما ضر لو ركبته وقضيت به حاجتى ثم سلمته لصاحبه صباح غد ـ وبسرعة ركب الحمار ونخسه فسار به الحمار بعض الوقت سيرا أبهجه ثم لم يلبث الحمار ان بدا يعلو ويعلو وكان الفتى قويا صلب العزيمة فاخرج مطواه من جيبه (تِيريبْ) وغرسه فى ظهر الحمار ، وهنا بدأ الحمار يتوسل ويرجو الفتى أن يخرج التيريب وسيوصله

إلى حيث شاء . ولكن الفتى قال له : إننى لن أخرج الخنجر من ظهرك إلا إذا وصلتنى إلى بيتى ، وفعلا قام الحمار الأسود بتوصيله إلى بيته بهدوء وراحة – ولكن الفتى لم يخرج الخنجر عند وصوله للبيت بل تركه معروسا وضرب الحمار ضربة قوية بالعصا وقال له : اذهب والخنجر فى ظهرك فمضى الحمار يعدو مذعوراً .

وفى قرية الجنينة تحكى جلتى زينب كوتود نفس القصة بعنوان (هِيرَانْ غَلَبَوُ الشَّيطَانْ) ان بعض التلاميذ خرجوا من المدرسة فوجدوا حمارا ركبوه فارتفع بهم فغرسوا فى ظهره أقلامهم مثل السكاكين حتى لان لهم وأنزلهم ذليلا .

وقيل : كان رهط من الفتيان والفتيات فى طريق عودتهم للقرية بعد أن قضوا ليلة ممتعة فى حفل عرس فى قرية قريبة – وفى طريق العودة وجدوا نساء فارعات الطول ينشدن ويوقعن على الدفوف بانغام عذبة فمضت الجماعة تتبع المنشدين بغير إرادة منها وبالمصادفة كانت عجوز تقف أمام بيتها فهتفت باسم الله ، وفى التو اختفت المنشدات وسقط افراد القافلة من الإعياء وقامت القرية ترشهم بالماء وتسقيهم وتقرأ عليهم التعاويذ والأدعية ليعودوا إلى رشدهم .

اختصاصات كل ساحر وحدوده :

ولا يعطى فن السحر للسحرة قدرات عظيمة خارقة إلا من خلال سيطرتهم على الجن بنوعيه ، وهم يسيطرون بقدر علومهم ورياضاتهم ، ومن هنا نجد الساحر الذى يستطيع أن يصنع فى لمح البصر مدينة ساحرة تموج بالحياة بينما آخر يقف سحْرُه عند حد يكاد الحواة يجارونه فيه .

والساحر يسيطر على القوى الروحية من أجل تدمير العدو وهلاكه

منعه من الزواج وإفقاده ذكورته واسقامه وكذلك من أجل حل عقدة الصديق وتأمين حياته وشفائه ونجاته ، هذا عدا ان يجعل المرأة تتبع الرجل وتأتيه طائعة خاضعة ، كما يأتى الزبائن إلى التاجر ، وتخرج الأرض الثمار الطيبة .

وسيلة السحر للسيطرة على القوى الروحية :

الوسيلة هى الرياضة (اليوجا) وتعذيب النفس ، والرياضة ليست مجرد عذابات بل هى طقوس وعبادات ولها اشكالها التى لايحيد عنها المريد ، فيصوم ٤٠ يوما ابتداء من يوم الاربعاء (يوم استقرار نوح على الأرض بعد الطوفان) الأول من النصف الثانى من الشهر .

ونحن نستحضر الارواح الخيرة (العلوى) بالصلاة والبعد عن المحرمات والصمت وعدم مخالطة النساء والصوم وكتابة السور والخواتيم ، ولكل خاتم خادم يحرسه ويقضى حاجات صاحبه – وبعد كتابة الخاتم بالمسك وماء الورد يمحى باللسان ويغسل ويشرب المريدماء الغسل فى الصباح مع البخور برائحة عطرة ، وبعد ذلك يظهر ثعبان أو ذئب فاتحا فمه مهددا ، وعلى المريد ألاّ يخاف بل يلقى على الفم المفتوح عودا من المسك ، وبعد الصوم يفطر المريد على الشعير والملح مع تجنب أكل الحيوانات والطيور ومنتجاتها . ومن النداءات التى يرددها المريد (ابن ميمون الغمامى ، صاحب العمامة السوداء ، والبغلة الدهماء أين من له الف رأس وفى كل رأس ألف وجه وفى كل وجه ألف فم وفى كل فم ألف لسان يسبح الله بلغات لا يشبه بعضها بعضا وهناك البرهتيه التى تشبه نشيدى الماشيليز والدولية فى انتشارها بين الروحانيين (برهتية كرير تتلية طوران مزجل بزجل ترمت برهش علمش . .. .)

وعلى المريد أن يكتم سر مهنته والا يستعمل الاسماء العلوية بقصد سيء ولا الاسماء السفلية بقصد طيب .

المنـــدل :

ومن الفنون السحرية المعروفة فى بلاد النوبة (فتح المندل) وهذه نماذج منها : بحث الفقيه الذى يدرس للاولاد عن مفتاح المدرسة فلم يجده ، وسأل التلاميذ عنه ولكنهم أنكروا جميعا ، عندئذ أحضر صبيا وقال له : انظر فى الفنجان ماذا ترى ؟ قال : أرى صبيا يجرى فى الطريق وها هو يسير بين المقابر وأنه يجمع سعف النخل الجاف والمفتاح وقع .....

قال الشيخ للصبى : انظر جيدا ... قبر من ؟

وظل الصبي يحدق ثم قال : لقد عرفت المكان وذهب وعاد بالمفتاح الضائع.

وفى شكلى سرق خروف ، وفتح الشيخ المندل وظل يحكى : عبد الرحمن الإسكافى يسوق الخروف ويقطعه يسلخه ، يقسمه إلى أجزاء ، يبيعه فى السوق ، صاحب الخروف بين المشترين .

الرمـــوز :

وهذا الفن يعتمد على الرموز فالكيس المصنوع من جلد فأر (الجراب) الذى يقوم المريد بنفخه أو ضربه وإيذائه ينتقل الايذاء إلى الشخص المطلوب ... وذوبان الملح لهلاك المطلوب والرمل رمز لما لا يمكن إحصاؤه وإخصاء الاغنام يؤدى إلى ربط المطلوب بل إن دق مسمار إلى الجدار يدق المطلوب مكانه .

الكائنات الخرافية فى نتاج الواقع الحى :

وهى المعبرة عن حاجات الجماعة والمحققة لآمالها والدافعة لقواها الدفاقة الفعالة فى طريق الشوك والفداء من أجل لحظة من لحظات

،سعادة الغامرة – ولو لم يكن لتلك الكائنات العجيبة إلا فائدة واحدة وهى التخدير والارضاء بالواقع المحتوم وتبرير ما لا يحتمل التبرير فى العالم المجنون وتقليل ما لا يسير على قواعد العلل ، لو لم يكن لها إلا هذه الفائدة لكانت من أجل ذلك وحده جديرة بالاهتمام ولكنها تملك قدرات أعظم فهى تعايش الإنسان كل لحظة من لحظات حياته وتذوب فى وجدانه . . . وقد مرت على سنوات وأنا أجمع الخرافة من أفواه الناس . ليس فى منطقة النوبة التى تخصصت فيها – بل فى جميع أجزاء بلادى وعلى طول الفترة وبدقة التحرى لم ألتق بعد بالذى يقول لى سمعت او أعتقد أو « اظن » بل كان الجميع يقول « رأيت ولمست » فى ليلة كان القمر فيها بدرا يملأ الكون نوراً غامراً ويحول الليل نهارا » .

أسطورة أتلنتا :

كان اتلنتا فتاة ساحرة الجمال ، لذا تمنى كل شباب عصرها أن ينالوا الزواج بها وتقدموا يطلبون يدها ويبدون استعدادهم لبذل كل شيء من أجل هذه الغاية ولم يلن قلب الفاتنة – لاحد من المتقدمين واستمرت فى صدها وهم يلحون عليها ويتوسلون – وكان سبب موقفها العنيد فى رفض المتقدمين بسبب أن العرافين قد انبأوها أن زواجها يعرضها إلى مصير رهيب .

ولما كانت أتلنتا الرشيقة تعلم أنها عدّاءة ماهرة لا يسبقها فى الطراد أحد فهى تنطلق مثل الرياح وتصل إلى غايتها فى لحظات ، فقد وجدت وسيلة تتسلى بها بقلوب العاشقين ولا تنيل أحدا منهم مغنما وذلك تعلن أنها ستتزوج من الفارس الذى يتقدم إلى حلقة السباق فيسبقها ، وهى واثقة من أنها اختارت حقلا لا تغلب فيه ، وأن مصير الفتى الذى يفشل فى السباق هو الموت .

وبالرغم من خطورة النتائج وتعرض المتسابق للموت ، فقد تقدم كثير ممن بهرهم جمال اتلنتا وواجهوا الموت بعد الفشل بشجاعة فائقة ، وكان هيبوميتس يقوم بدور الحكم فى المباريات ويقوم بتنفيذ الحكم بقسوة وضراوة – ربما لانه كان يحقد على المتقدمين فقد كان هو نفسه وهو جالس فى منصة القضاء يرتجف خوفا من أن يسبقها أحد المتبارين فينالها – وهو لذلك يتنفس الصعداء حين فشل جميع المتقدمين . وكانت المفاجأة لاتلنتا أن ترك هيبومنيس مقعد القضاء وأعلن أنه سيقوم بخوض التجربة ، وأنه مستعد لمقابلة النتائج السيئة ولا يأبه بالموت فى سبيل الفاتنة أتلنتا ، وتحدد موعد السباق .

وقبل الموعد قام هيبومنيس بتقديم الهبات إلى معبد فينوس ، وظل يدعو إلى أن استجابت الالهة لدعائه فمنحته من حديقة معبدها بجزيرة قبرص ، ومن شجرة ذات أوراق وغصون وثمار فى لون الذهب منحته ثلاث تفاحات ذهبية وأخبرته سرا ومن غير أن يراها أو يسمعها أحد أن عليه بأن يلقى أثناء السباق من وقت لآخر تفاحة ذهبية فتنحنى أتلنتا لالتقاطها فيسبقها هيبومنيس .

وفى الموعد المحدد وقف هيبومنيس بجانب إتلنتا ثم كانت إشارة البدء فانطلقا يعدوان وكان من الواضح أن الفتاة الرشيقة التى تكاد قدماها لا يصلان إلى الارض أن تسبقه لولا انه تذكر هدية الالهة فينوس فالقى بتفاحة ذهبية واستمر يجرى وانحنت أتلنتا لتلتقط التفاحة ثم مضت تجرى حتى لحقت به ثم سبقها فالقى بالتفاحة الثانية وهكذا سبقها وتزوج بها .

وقد كان هيبومنيس سعيداً بأنه نال تلك التى كانت أمل شباب عصرها ، وسعدت هى بالفارس العداء ، ولسعادتهما الغامرة نسيا القيام بشعائر فينوس التى حققت لهما هذا اللقاء بهديتها الذهبية .

وهنا أغرت فينوس العاشقين باغتصاب الالهة كبيلا ، فثارت ومسختهما إلى أسد ولبؤة وعلقتهما إلى عربتها الإلهية .

خرافة نوبية :

وفى هذه الأسطورة نجد أشخاصاً محددين بأسمائهم وصفاتهم بل إن الرواة كانوا يقدمون معلومات تفصيلية عن كل شخصية ، فالإلهة كبيلا التى أهانها العاشقان باغراء من فينوس هى ريا عند الاغريق وأوبس ، وكانت زوجة لكرونوس واما لزيوس . . . وهذه التفاصيل تعطى إيحاء للعامة أن الاسطورة جزء من التاريخ الواقعى وليس نتاجا فكريا لعصر إنتاجها . وقد رأينا فى الحكاية الخرافية النوبية كيف أن أما أعلنت أنه ينال الزواج من ابنتها من يسبقها فى الطراد وجلس أخوها مجلس القاضى هيبومنيس فى الأسطورة ، ولم يسبقها أحد ، هنا اعتمد شقيقها على وعد الأم وقرر أن يسابق الفتاة فسبقها ومن هنا أصبحت من حقه . . . فهربت من القرية وهذا يرينا تلاقى الأسطورة والخرافة فى الموضوعات .

الجزاء والثواب :

والفارق الهام بين أسطورة أتلنتا والخرافة النوبية الشبيهة بها فى أن الأولى اهتمت بالعقاب والثانية بالثواب ، ولم تهتم الخرافة النوبية بمصير الفتى شقيق الحسناء الذى تقدم لحلقة السباق طالما أن الاخت قد هربت من القرية وسار الراوى معها ليكمل حكايته الخرافية .

نماذج للحكايات الشعبية حول السحرة العلويين والسفليين :

قالوا : كان فى قرية الجنينة شيخان أحدهما (محمد كلوتو) يستعمل القوى السفلية والثانى (إدريس) يعتمد على القوى العلوية الرحمانية . وقد حدثت بين الشيخين مشادة فى المقهى وبعد الشتائم والتحدى أسرع كل منهما إلى صومعته وقام باحراق البخور (اقرا حكاية ملكين – من حكايات التبت فى نهاية الحديث عن معارك السحرة والبخور) وتلاوة الأدعية ، ولما كان إدريس العلوى أقوى من كلوتو السفلى) وليس معنى هذا أن القوي العلوية أقوى بالضرورة من القوى السفلية) جاء الجن العلويرن مهاجمين لحراس كلوتو وهزموهم ثم حملوا موقد البخور فضربوه على رأسه فمات لساعته . وفى منتصف الليل شم الناس رائحة شواء صادر من بيت كلوتو فاسرعوا إلى هناك ليروا الشيخ مقتولا وقد احترق رأسه .

قالوا : وقد ورث (محمد سيدى) السحر عن عمه محمد كلوتو (السفلى) ولما كان عبده شوفه علويا ضعيفا (هذه الحكاية رواها لى الشيخ صالح محمد من الجعفرية) فقد ربط (سيدى) حتى لا يقرب النساء ، ولكن سيدى بقوته فك نفسه وسخر التعاويذ ضد (شوفه) وظل يترصد له وذات يوم كان (شوفه) يقف مع بعض صحبه يتحدث وقد أسند يده على جدار وفى هذه اللحظة وجد سيدى فرصة للانتقام ، فاحضر مسمارا ودقه على نخلته وتمتم ، فكأنما دقت يد الشيخ شوفه إلى الجدار فإن شوفه المسكين لم يستطع الحركة أو انتزاع يده ، وظلت الشمس تحرقه بأشعتها إلى العصر وهو يبكى ولا يملك من أمره نفعا ولا ضرًا – وأرسل الناس إلى المشايخ (توشكى)

ليتوسلوا إلى محمد سيدى أن يفك الشيخ عبده شوفه فأخرج المسمار من النخلة .

وقيل : كان على من يقيم عرسا أن يقدم هدية زجاجتين من الخمر لمحمد سيدى ، وكان الشيخ لا يستفيق من سكره أبدا . . . وأقام عمدة الجنينة عرسا فلم يقدم الهدية للشيخ [عمدة الجنينة من المتقدمين فكريا وكان ينصح بعدم تسلم التعويض النقدى عند بناء خزان أسوان - ويعلم الناس أن يطالبوا بالتعويض العينى ولكن الجماعة لم تسمع رأيه] وفوجىء الناس فى العرس بحجارة كبيرة تهبط من السماء - وعلم العمدة فأسرع لمحمد سيدى ومعه زجاجتان من الخمر وعند عودة العمدة لم يجد حجرا واحدا .

وقيل : وفى عام ١٩٣٣ أيام التعويضات كان الشيخ يدخل لجنة صرف التعويضات وهو سكران ، وأمر موظف اللجنة بطرده - وقال النوبيون : هذا الشيخ صالح وعظيم - قال الموظف : شيخ ويشرب الخمر ؟ قالوا : لا تتكلم هكذا حتى لا تندم - إن له سيطرة على الجن قال رئيس اللجنة : إذا كان كذلك فعندى حاجة لو قضاها صدقتكم - وكان رئيس اللجنة متزوجا بنت عمه ومن يوم زواجه لا يقربها ولا يعرف له علاجا .

وقبل أن يشكو الموظف إلى الشيخ قال له محمد سيدى : الليلة إن شاء الله ستكون بخير » وذهب الموظف إلى بيته فإذا هو مثل الرجال فكاد يطير من الفرح - ومن يومها كان يحترم الشيخ ويكرمه ويحضر مجالسه .

وقيل كانت الأسرة تنتظر أن يتزوج صالح من بنت عمه ، ولكنه

أعجب بفتاة غيرها فتزوجها وهنا ذهب أعمامه إلى محمد سيدى وطلبوا منه العون وفوجىء صالح بعد أن قضى ٣ أيام طيبة فى بيت الزوجية ، وفى اليوم الرابع كان الذباب يملأ البيت ووجه زوجته والطعام وكل شىء حوله يبدو كريها - فأسرع إلى بيت أمه ليأكل - وسألته أمه عن سبب تركه البيت - وهو الذى اختاره ، فلما قص عليها ما رأى من ذباب فهمت الأم فاسرعت إلى محمد سيدى ومعها النقود - وقال لها محمد سيدى : لم أكن أعلم أنه ابنك » وأعطاها ورقة وقال : اجعليه يغسل وجهه بماء بعد غمس الورقة فيه ، وغسل صالح وجهه فعاد البيت جميلا وتلاشى الذباب .

وقيل طلب شيخ من قرية الجنينه الزواج من امرأة من ابريم ، وتم عقد القران ، وفجأة هبط عليهم قريب ثرى - هذا القريب كان يشتغل عند على باشا شعراوى زوج هدى هانم شعراوى (وللتدليل على غنى هذا الباشا تقول الحكاية الشعبية) وقد طلب على باشا بطيخة فذهب الرجل وعاد للباشا يقول : البطيخ غالى الثمن اليوم - فقال الباشا : على مثلى ؟

خذ هذه الجنيهات الخمسة وأحضر البطيخة .

هذا القريب الغنى أتى إلى القرية فطمع أهل الفتاة وقالوا للذى سبق أن عقد قرانه على الفتاة : أنت لا تستطيع الصرف عليها ، وانتزعوا زوجته إلى بيت أمها ، وبين البيتين طريق مشهور بالضباع والأخوار ومساكن الجن ، وحرسوا البيت حتى لا يزورها زوجها الثرى وإلى أن تتم الاجراءات حرموا عليه أن يدخل قريتهم .

ومضى الفتى إلى بيته يقرأ التعاويذ والرقى والخواتم فكانت الأم

كل مساء تقود ابنتها وتسير مسافات رهيبة يخاف الرجال الأشداء من السير فيها إلى بيت الزوج وتسلم ابنتها له وتظل منتظرة إلى الفجر فتعود بها – وظهرت أعراض الحمل على الفتاة وقال أعمامها للأم : هل تركت زوجها يأتى إلى البيت ؟ قالت : كيف يأتى وأنتم تملأون الطريق ؟ لقد كنت أذهب أنا بها إليه ولا أملك مقاومة القوى السحرية التى تقودنى وتشل إرادتى – ولما كان من المستحيل أن يزوجوا امرأة حبلى فقد اضطروا يقبلون زوجها على فقره بفضل سحره .

وفى قريتى – كفر الحله – حصلت سيدة عام ١٩٣٣ على مبلغ كبير تعويضا عن أرضها ونخلها – وكان ببيتها ضيف سرق أموالها فمضت تصرخ وتقول وهى لا تعلم من السارق ولا تتصور أن ضيفها الذى أكرمته هو الذى فعل ذلك .

وذهبت السيدة إلى الشيخ ابراهم حسن ، من أبَدْ (توشكى خلوات) صارخة باكية فقال لها : لا تهتمى ، سيعود إليك مالك – وأتى الشيخ بجلد فأر على شكل قربة صغيرة وظل ينفخها ويضربها بالعصا فإذا الذى أخذ النقود ينتفخ بطنه كلما نفخ الشيخ فى القربة ويتأوه كلما ضرب الشيخ الفأر بالعصا – ويقول الراوى – لقد كنت ضيفا عند الشيخ إبراهم حسن وهو ينفخ القربة ويضربها حين سمعت طرقا بالباب – فأسرعت افتح فإذا جماعة من الناس يسرعون إلى الشيخ فيلقون عند قدميه ويقولون : هذه أموال التعويضات فإن رجلنا كاد يموت من الألم – بمجرد وصول النقود إلى الشيخ ومنه للسيدة استراح الرجل .

وفى أرمنا شيخ اسمه الشيخ إبراهيم لا يمكن لعريس أن يتزوج

دون ان يعطيه هدية حتى لا يربطه وفك الربط يضاعف مبلغ الهدية .

وكانت قوة أحد المريدين لا تزيد على أن يمسك بقطعة من الورق ويقصها دائرية على شكل الريال ثم يقرأ تعاويذه فتتحول الورقة إلى ريال من الفضة ، وبعد مدة معينة ترد الورقة لحالتها الأولى – وكاد الشيخ يرسل من يذهب إلى البقال كل يوم بالريال فيحضر له السجائر وبعض الحاجات – وأحس البقال أن دخله ينقص فراقب النقود وعرف السبب . . . وقد نبهت الشرطة الشيخ إلى عدم اللجوء لهذه الوسيلة .

وفي الوقت الذى نجد قدرة مريد يقف عند صنع ريال ، يجعل مريد آخر امرأة تخرج فى منتصف الليل إلى رجل فى قرية أخرى .

وقد قال هردر : « إن الحكايات الشعبية والخرافات والأساطير هى بقايا لمعتقدات شعبية وأثر لتأملات الشعب الحسية وبقايا قواه وخبراته ، حينما كان الإنسان يحلم لأنه لم يكن يعرف ، وحينما كان يعتقد لأنه لم يكن يرى ، وحينما كان يؤثر فيما حوله بروح ساذجة غير منقسمة على نفسها :

وأنا أضيف أن هذه الحكايات والأساطير كانت ضرورة من ضرورات المجتمعات البدائية بدلا من اللجوء إلى وسائل جادة كالقتل في حل المشكلات فقد كانت الرموز الأسطورية والخرافية وهى تعيش حقائق في وجدان الكائن البدائى تفسّر وتبرّر كثيراً من الأعمال وتُضْفى على القبيلة مجداً وعزاً وتحمى كرامة الأفراد . وللدلالة على ذلك أقدم من بلاد النوبة نوعين من المخلوقات الأسطورية المرتبطة بالنيل وهما أمن دجر وأمن نُتَولنرى كيف خلقها المجتمع من واقعه الحى وساهم في

نشرها على طول البلاد وعرضها ، وكأنما هى عملة ذات قبول عام بل إنه فى مجتمع المقايضة القديم لم تكن هناك عملات ذات قبول عام إلا الحكايات الشعبية .

اسى دجر وأمن دجر :

تقع بيوت النوبيين كلها على نهر النيل ، وتطل عليه وتعتمد على مائه في حياتها فهى معه فى لقاء دائم ومن هنا تأثرت خرافاتهم وأساطيرهم ومعتقداتهم بهذا النهر العظيم وقد رأينا ارتباط النهر الخالد بأعراس النوبيين وحفلات ميلادهم وطقوسهم وعاداتهم الإقليمية وقد أدت العلاقات الأسرية بين الناس على القرى المتناثرة على الشاطئين إلى ضرورة عبور النهر دائماً فالمزرعة أو المرعى أو السوق أو مزار الشيخ الولى أو مقابر المفقودين الأعزاءوقد تكون كلها أو بعضها على الشاطىء الآخر ومن هنا لابد من العبور على النهر .

وكثرة استعمال الشعراء لكلمة (جِبِّيهْ) أو قطعة الخشب الطافية (العوامة) أو الأداة التى تساعد على البقاء على سطح النهر وكذلك استعمال الكلمة فى الحكايا ت النوبية يدل على قرب عهدهم بهذه الأدلة البسيطة أو السفينة البدائية واستعمال الطافيات دليل على أن النهر آمن قليل الأمواج والمخاطر مما يزيد من ارتباط الناس بالنهر .

وكانت سفينة البوسطة وسيلة الانتقال النهرى بين السودان ومصر إلى الشلال الأول ثم يبدأ طريق السكك الحديدية في الشمال وهذه السفينة الهائلة الكبيرة كانت تأتى بحاصلات السودان من النازحين إلى الشمال وكان الاوكتوبريون يبدأون في التحرك إلى النوبة ابتداء من يوليو حيث يسافر السادة إلى المصايف وإلى أوربا ويعودون

فى أكتوبر إلى مهاجرهم . . بعضهم كان يصل فى يوليو والبعض فى أغسطس والبعض فى سبتمبر ولكن أكتوبر بالضرورة كان شهر العودة لذلك سموهم الاكتوبريين . وربما كانت مصادفة حسنة أن يكون الخير فى الزمان القديم مع الاكتوبريين الذين تبدأ موجاتهم مع شهر يوليو وأن النوبيين فى عصرنا قد وجدوا الخير العميم مع ثورة يوليو المجيدة .

وفقر المنطقة جعل النيل مصدر رزق هام ولم يكتف الناس بالسمك الطازج بل أيضا بالمخزون (التّارْكينْ) .

وهم يعتمدون على النيل فى الزراعة القليلة كما أن على شاطئه ينمو النخل والشجر وقد ارتبط النيل بالأساطير والخرافات والمعتقدات ومعجزات المشايخ مثل الشيخ الذى وضع فراء خروف على سطح الماء وعبر النهر . والتماسيح تلعب دوراً هاماً فى الحكايات .

ومن أشهر الكائنات الأسطورية التى تعيش فى وجدان النوبيين أمن دجرأو إسىّ دجر . وإسى وامن بمعنى الماء أى انه دجر المائى ودُجر بمعنى الشِّرير أو النَّكِدْ الكئيب وهم يصفون الدُّجر أحيانا بأن عينيه مشقوقتان شقاً رأسيا لا أفقيا مثل باقى الناس وأن أرجلهم ذات أظلاف وحوافر وأحيانا يقولون إنهم مثلنا تماماً وفى حالات قليلة سنذكر واحدة منها يبدو (دُجُرْ) على شكل امرأة .

أما عن أصله فيقولون

كانت الحكومة فى السودان تحصل على ضرائب فادحة (خراج) عن طريق العملة الذهبية . ولما كان السحرة فقراء لا لأنهم لا يملكون أن يكونوا أغنياء بل لأن الفقر حَتْمٌ عليهم ومصير مقرر مكتوب فى

لوح قلدرهم . فإن عدم قدرتهم على دفع الضرائب قد يؤدى إلى مصادرة الأرض فما العمل ؟ (قالوا) إن الساحر يقرأ تعاويذ ويقوم باليوجا والرياضات ويقفز إلى النهر بعد أن يرفع الماء كما يرفع النائم الاغطية عن جسمه حين يستيقظ ويعيش في أعماق النهر متجولا من الجنوب إلى الشمال وقد يراه النوبيون في المنطقة الشمالية يخرج من النهر لينزع الحلى من النساء اللائى يذهبن مبكرات للمْء أوعيتهن بالماء . وقد قص على صديقى بشير عباس (كنزى) عن الإمِىّ دُجْرْ ما يؤكد أن أَمَنْ دُجُرْ فىْ منطقتنا (فايدجا) قد انتقلت إلى منطقتهم وأضيفت تفاصيل كثيرة .

وقالوا إن صيادى السمك إذا نشروا شباكهم قبل الفجر فان الدجر يمزقها ليمنعهم من الاستمرار فى العمل وإقلاق راحته كما قد يثقب السفن . أما العبيد الذين يخرجون قبل الفجر لجمع البلح (فنتِى مُوكِّى) فكانوا يعودون مذعورين فإذا سألهم سادتهم عن سبب ذعرهم قالوا إن الدجر يتسلقون النخل ويأكلون البلح ويهددون الخدم بأن الموت لمن يقترب (سُوْر بِنِلْتُونْ فَجَادُورْ) سوف نَوضْعَ أنفه .

ومن الحكايات القليلة التى يبدو فيها الكائن العجيب دُجراً على هيئة امرأة هذه الحكاية التى يقدمها الفنان جمعة عبد النعيم (كنزى) عن جده الأكبر والفنان جمعة مثل كل قبيلة الونساب (قال) تعلم القراءة والكتابة قبل أن يدخل المدرسة وهو من قرية كلابشة .

أمن دجر على شكل امرأة :

فى ليلة قمرية دافئة كان الفتى يجلس على شاطىء النيل فى استرخاءة حالمة ويحرك أصابعه على أوتار الطنبور منشداً أغنيات حزينة عن

الأمل الضائع والحظ العاثر والمعشوق الذى لا يُنال . وكانت أمواج النيل تتراقص أمامه فى هدوء وادع يبعث الطمأنينة فى القلب ويوقظ الخيال الجامح فى المشاعر ، والفتى الأسمر بقامته المتينة وأسنانه المفلجة ونظراته القلقة التى لا تستقر على شىء ينتقل من أغنية إلى أخرى ذاكراً أمجاد أهله وفروسيتهم وأنهم يأبون الضيم ولا يرضون بالذل .

كان الفتى الأسمر يغنّى وحدَه متأنياً مجيداً بالرغم من علمه أن العالم كله مشغول عنه وعن غنائه وأنغام طنبوره لأنه لم يجعل إسماع الاخرين هدفاً له بل كانت كل غاياته ومنتهى ما يصل إليه أمله أن تغوص النغمات عميقة فى قلبه فتغسله من الكآبة والإحساس بالوحدة الروحية . . وبينما الفتى الأسمر يغنى سابحاً فى خيالاته على شاطىء النيل بقرية كلابشة النوبية رأى على الأرض ظلا يتحرك . لم يكن ظل نخلة فقد تعود أن يرى ظلال النخيل متمدّدة على الأرض ثابتة لا تتحرك إلا أعاليها وأفرعها حركات وقورة ولا كان ظلا لحيوان كاسر مما تعود النوبى أن يرى فى حياته فالنوبى والضباع والذئاب بالرغم مما بينهم من خصومات ومعارك لا تنتهى ، بالرغم من كل ذلك فإنهم جميعاً يلجأون إلى النيل ليطفئوا لهيب الظمأ وليستمروا فى نضرة الحياة . وكان الظل شيئاً غير ما تعوّد أن يرى فى حياته فرفع بصره ليرى عجباً . فهذه امرأة ممشوقة القد رجراجة مرنة الأعضاء لا يختلف وجهها عن وجه الناس إلا فى أن العينين مشقوقتان شقاً طوليا وأن ثدييها كبيران متدليان فهى تقذفهما خلف ظهرها كما تلقى المرأة وشاحها من فوق كتفيها .

وأحس الفتى بالخطر ولكن أصابعه لم تتوقف عن الإيقاع وحنجرته لم تكف عن الإنشاد والمرأة مندمجة فى رقصتها سابحة فى عالمها الذى لا تحده حدود . وينهض الفتى وهو ينشد وظل يرقص على وقع أنغام آلة العزف الوترية ويحدق فى ظل المرأة الراقصة ويقترب من الراقصة حينا ويبتعد حينا آخر والفتاة فى سكرة من حلاوة النغم وفى لحظة خاطفة وقد أعطته ظهرها رضع من كل ثدى قطرة من اللبن فارتعش جسمها كله واستفاقت من سكرتها ونظرت إليه بمزيج من الحنان والتحدى واللوم وقالت له لقد نجوت من هلاك محقق فالذى يعرف سرّنا يموت وأنت عرفت سرّى وفهمت ما يطربنى وأسرتنى بالأنغام وكان لابد لى أن أقتلك بعد أن أنتهى من الرقص ولكنك رضعت فصرت من أبنائى وقد سرى لبنى فى عروقك . قالت هذا وأسرعت إلى النهر ورفعت الماء كما يرفع المرء غطاء الصندوق ودخلت عالم الموج وقبل دخولها قالت : إن ابناءك وأبناء أبنائك سيعرفون القراءة والكتابة العربية بلا مدرسة ومن يومها (قالوا) وقبيلة الونساب يعرفون القراءة والكتابة من يوم تقوى أيديهم على الإمساك بالأقلام .

قالت امرأة نوبية :

ملأت الوعاء من النهر واستجمعت قواى لأضعه على رأسى وفى هذه اللحظة سمعت نشيجا فتركت الوعاء مكانه واتجهت إلى ناحية الصوت فرأيت امرأة متشحة بالسواد تبكى بكاء حاراً مؤثراً فمضيت اربّت على ظهرها وأحدثها حتى هدأت واطمأنت إلىّ فطلبت منها أن تتبعنى إلى بيتى وهناك جهزت لها طعاماً وشراباً وأعددت لها حماماً وعلمت منها أنها غاضبت زوجها فتركت له البيت .

وبقيت معى أياما وما كانت تتركنى فيه إلا ساعات قليلة كانت تعود بعدها إلى صامتة فلا تخبرنى بالمكان الذى كانت فيه . وذات يوم ودّعتنى المرأة ومضت طالبة منى ألا أسألها عن مكان أهلها . وبعد فترة طويلة طرقت المرأة بابى وجلست معى تشكرنى على معاملتى الطيبة لها فى أيام محنتها أيام كانت على خصام مع زوجها وقمت بتهنئتها على عودة المياه إلى مجاريها بينها وبين زوجها وتمنيت لها الخير والسعادة وفاجأتنى المرأة بقولها - هل تعلمين لم جئت إليك اليوم ؟

- أرجو أن يكون الدافع خيراً

- إننى أدعوك لأن تردّى زيارتى لك حتى أقوم ببعض واجب الوفاء نحوك

- أظن أن من حقى الان أن أسألك أين تقيمين

- نعم إن بيتى فى أعماق النهر

- ماذا ؟ إننى أخاف الغرق

وضحكت المرأة وقالت لى اطمئنى فلدينا تعاويذ ودهانات ستحميك من الماء ، هيا اسرعى معى ، وبعد لحظات كنت أسير معها فى قاع النهر ، عالم غريب ، بيوت وسواقٍ وطرقات ، عالم شبيه بالعالم الذى نعيش فيه فى قريتنا .

وزرت بيتها وتعرفت على أهلها جميعاً وكانوا يأتون غاضبين من وجودى فإذا شرحت لهم المرأة بلغتنا ما صنعت معها علت الابتسامات الوجوه وأحسنوا وفادتى وبعد أن قضيت معهم ثلاثة أيام ودّعتهم وصعدت معى المرأة إلى سطح النهر وأوصلتنى إلى الشاطىء وودعتنى وداعاً حاراً .

لماذا ظهرت هذه الكائنات ؟!

وهكذا نجد نوعين من الحكايات الشعبية عن النهر أحدهما عن عالم داخل الماء فيه بيوت وحكومة ومزارع وسواقٍ ! مثل عالمنا والثانى كائنات أرضية دخلت بالسحر إلى النهر خوفاً من الضرائب .

السبب فى إيجاد هذه الكائنات هو :

أولا : الفخر القبلى والمجد القومى فقد استطاعت قبيلة الونساب أن تربط أصلها بقوى الغيب فصار لها تميّز على أهل الأرض فى التعلم بدون اللجوء إلى مدرسة

ثانيا : فى النوبة رقابة جماعية ومواجهة فكل إنسان يعرف كل شيء عن الآخر وكل امرأة تعرف أجزاء الحلى للمرأة الأخرى والبيع دليل الفقر والذل فى مجتمع يعتمد على المقايضة ، وقد تمر بالمرأة ظروف تضطرها لبيع حليها أو أجزاء منها بأن تعطيها سرًا لأحد أقربائها فيذهب إلى الصائغ ويبيعها ويعود للمرأة بالثمن خفية عن العيون . والفقر فى القرية ذل وهو انتقام قدرى لأن الله يعطى على قدر . . . . الأعمال الطيبة والنوايا الحسنة . وسيبدأ السؤال على جميع الألسنة : أين الحلى ؟ أين الحلى ؟ والجواب : إن الدجر قد خرج من النهر وخطف الحلى وعاد إلى النهر ، لا شك أنه الآن فى السودان يدفع الخراج .

وقد تكتشف المرأة الذكية الحكاية الشعبية ولكنها ستصمت فقد تضطر لبيع حليها واستعمال نفس الحكاية الشعبية تفسيرًا لنقص الحلى . . وهكذا نجد الحكاية الشعبية طوق نجاة وضرورة مجتمعية مثل النخلة تماماً عند النوبى .

وثالثا : فى نظام متخلف بدائى يعتمد على الرق ، يعامل السيد خادمه معاملة حسنة للإبقاء عليه وعلى صحته فإذا كان هناك سيد أحمق

يرهق خلمه ويرسلهم قبل الفجر في البرد الشديد لجمع البلح فكيف يرفضون وفي نفس الوقت ينجون من العقاب . . الوسيلة أن اللجر قبل الفجر يخرج من النهر ويجمع البلح ، والويل لمن يقترب منه ، وهنا لن يجرؤ السيد على الذهاب بنفسه للتأكد فليس أمامه إلا أن يصدق .

رابعـا : إذا حدث لامرأة ان اضطرت للابتعاد عن بيتها لأمر لا تريد إعلانه فإن خير وسيلة هى زيارة أهل قاع النهر (أَمَانْ نُتُّو) .

وهكذا نجد الحكايات الشعبية والمخلوقات الأسطورية تقوم بدور واقعى ضرورى للنوبيين لتأمين حياتهم وبعث الأمن والاستقرار فى أنحاء البلاد .

نماذج من الشعر النوبى

نماذج من «دسى ليمونا»

أغنية الشّبكة

اكاسيدى وو يويونتو

آيجايجا لنا وو يويسو

٧ – نماذج لوصف الفتاة النوبية

٨ – ٢٨ البيئة النوبية

٢٩ – ٣٥ وصف عجز النوبى وضعفه

٣٦ – ٥٣ المهجـــر

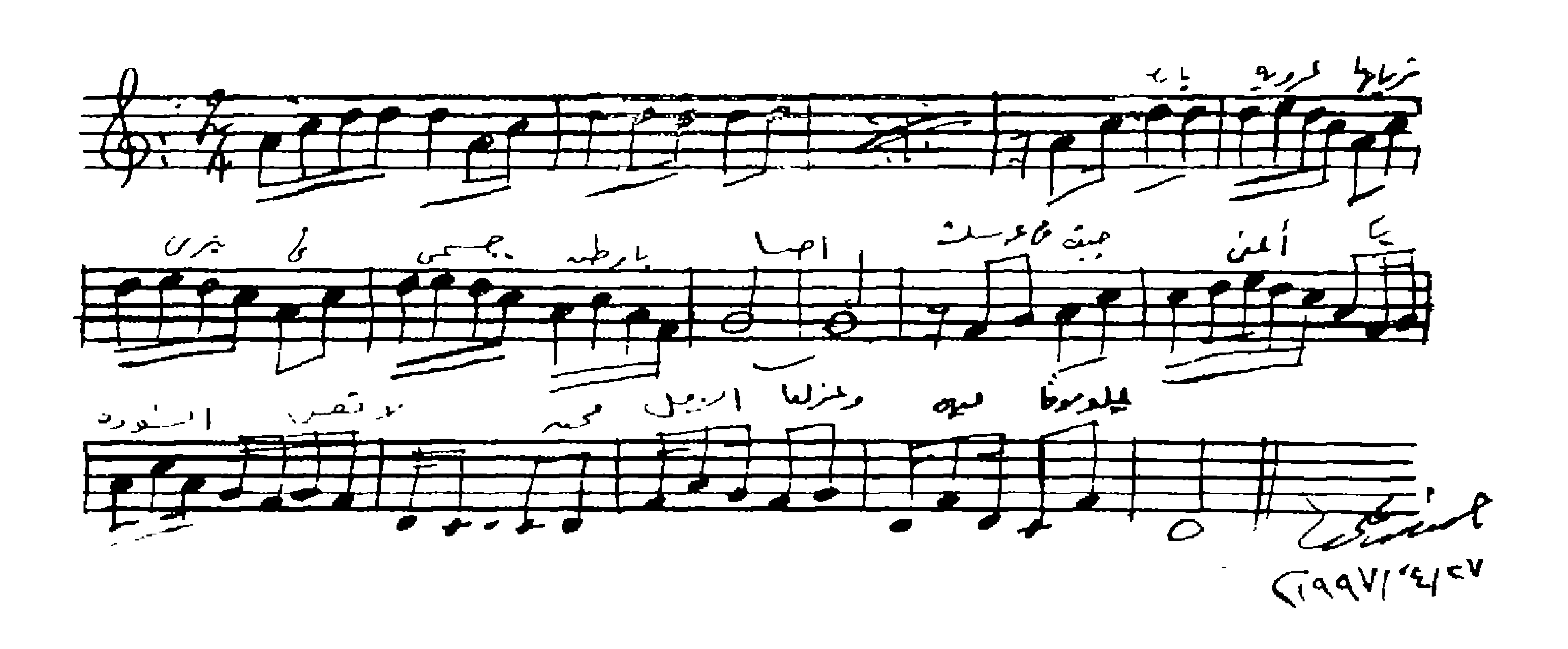
٥٣ – ٥٧ الايمـــان

هذه النوتة الموسيقية للمواليا النوبى « دسى ليمونا » .. والجزء الأول منه الذى ليس عليه كتابة يصور الايقاع (بالدف) وهو يستمر طول الليل .. وقد ألفت نشيدا قام الاستاذ الفنان الكنزى على كوبان بتلحينه على الايقاع النوبى المشهور .. وقام الاستاذ حسين محمد على بالتنويت وتوزيع كلمات الاغنيــة المكتوبة بالمصرية الدارجة :
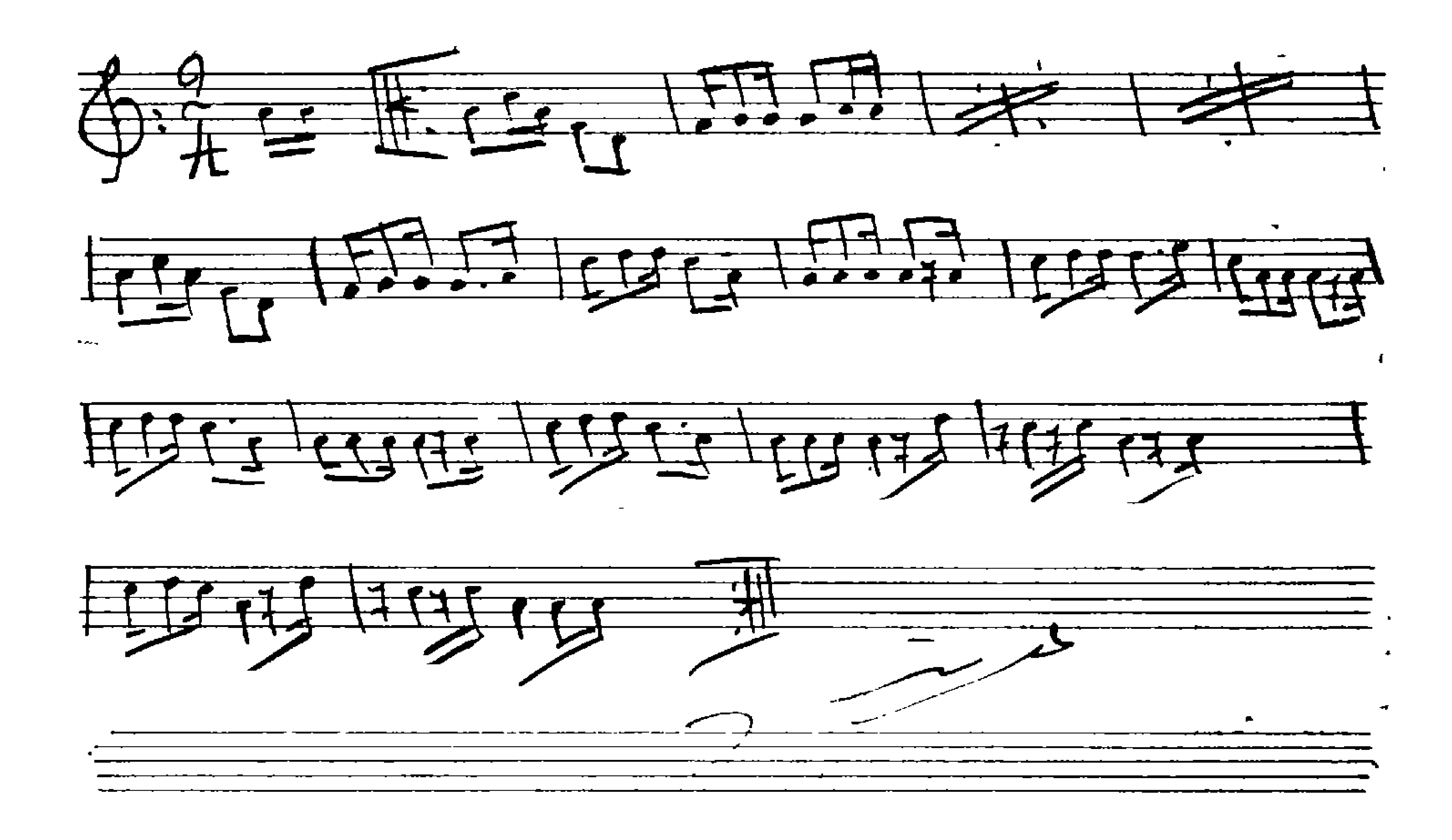
يا بلاد العروبة شريانها يجرى فى جسمى ياوطنا احنا

جيت فى عرســـك اغنى يا انشـــودة لا تفنى
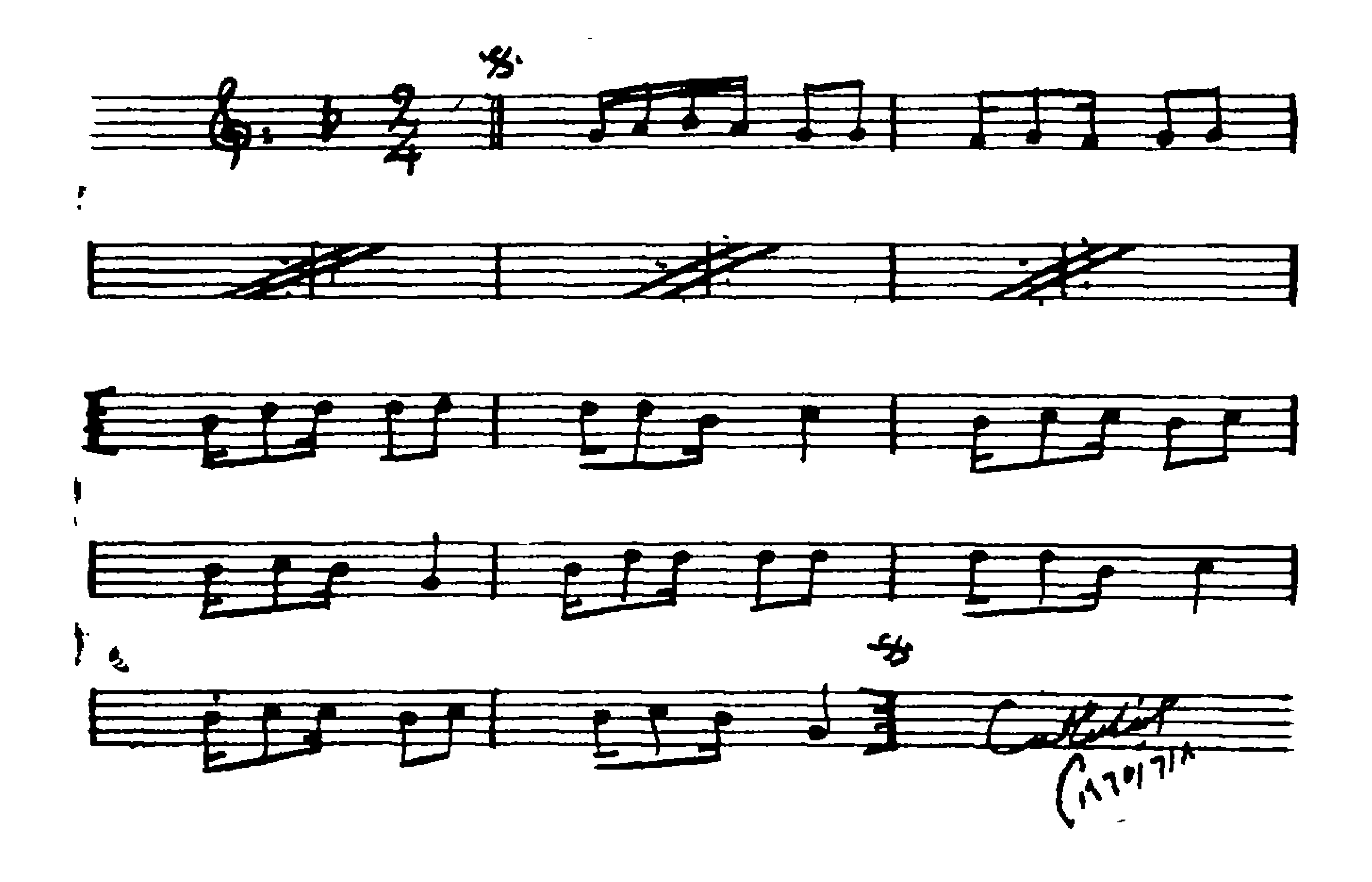
لحـــن الأمـــل ، وعذالنا ، ليه يلومونـــا ؟
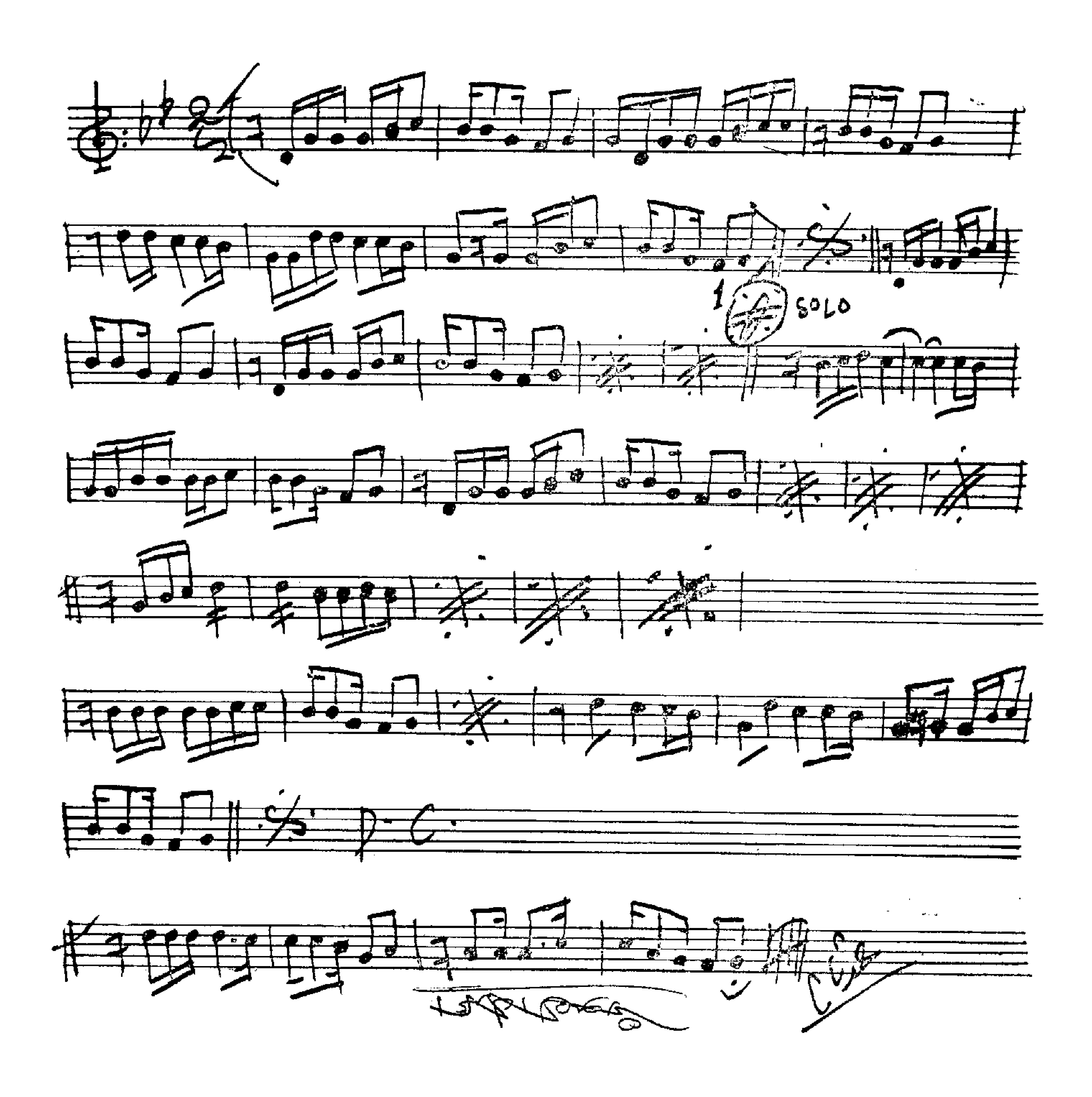


من موسيقى وايقاعات الحلقات الصوفية الرمضانية
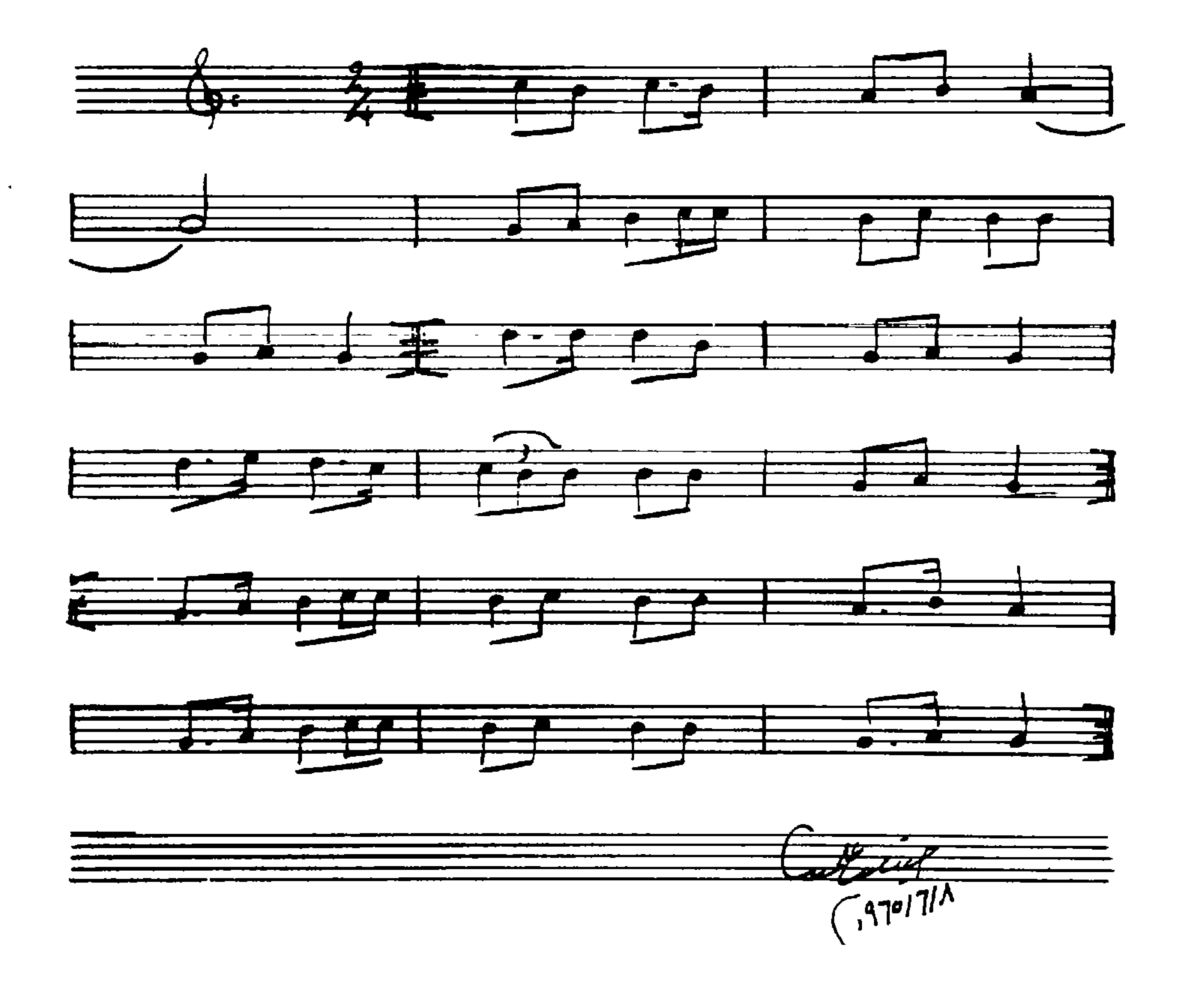


ايقاعات عاطفية
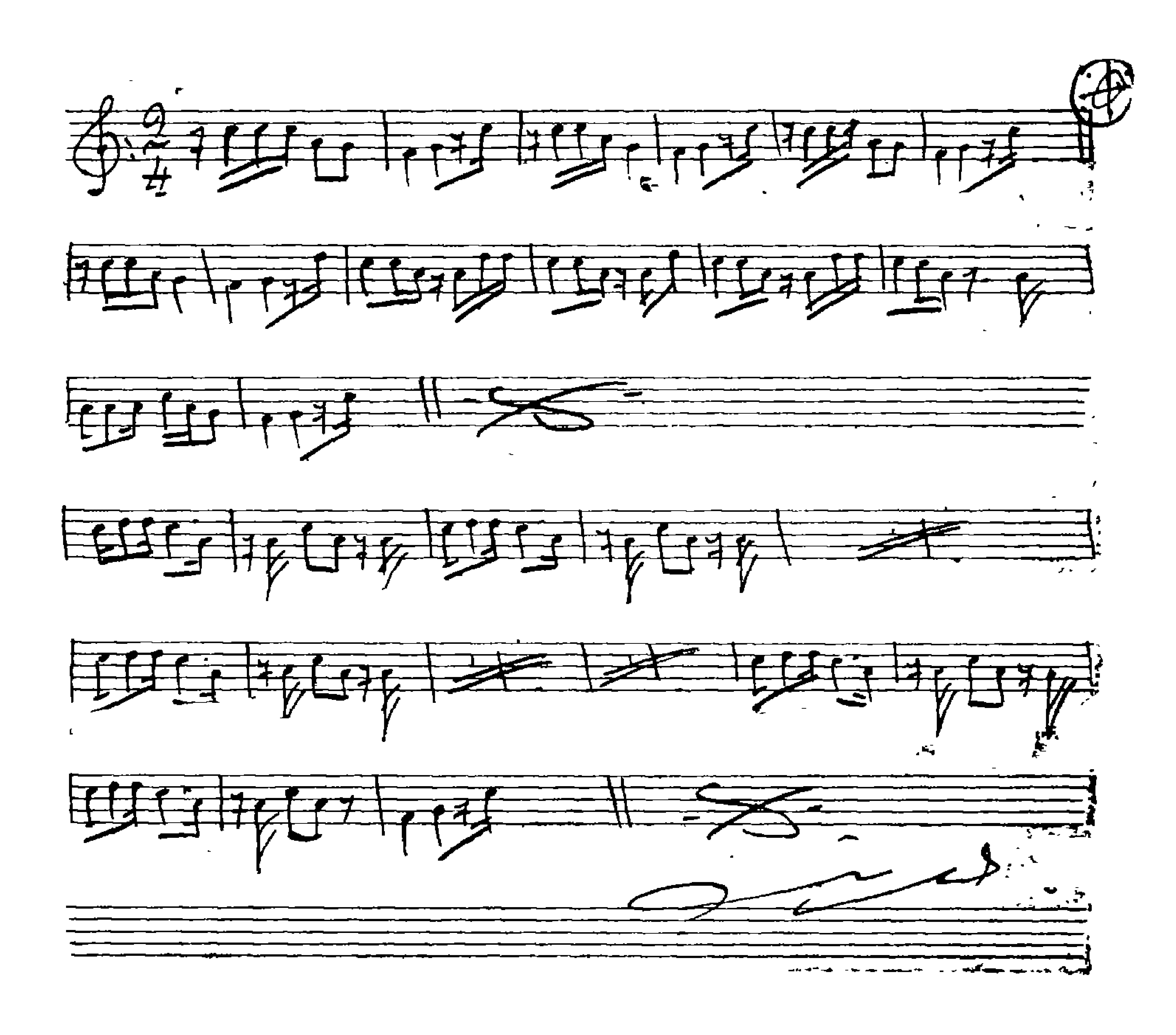


أغنية ليلة الحنة
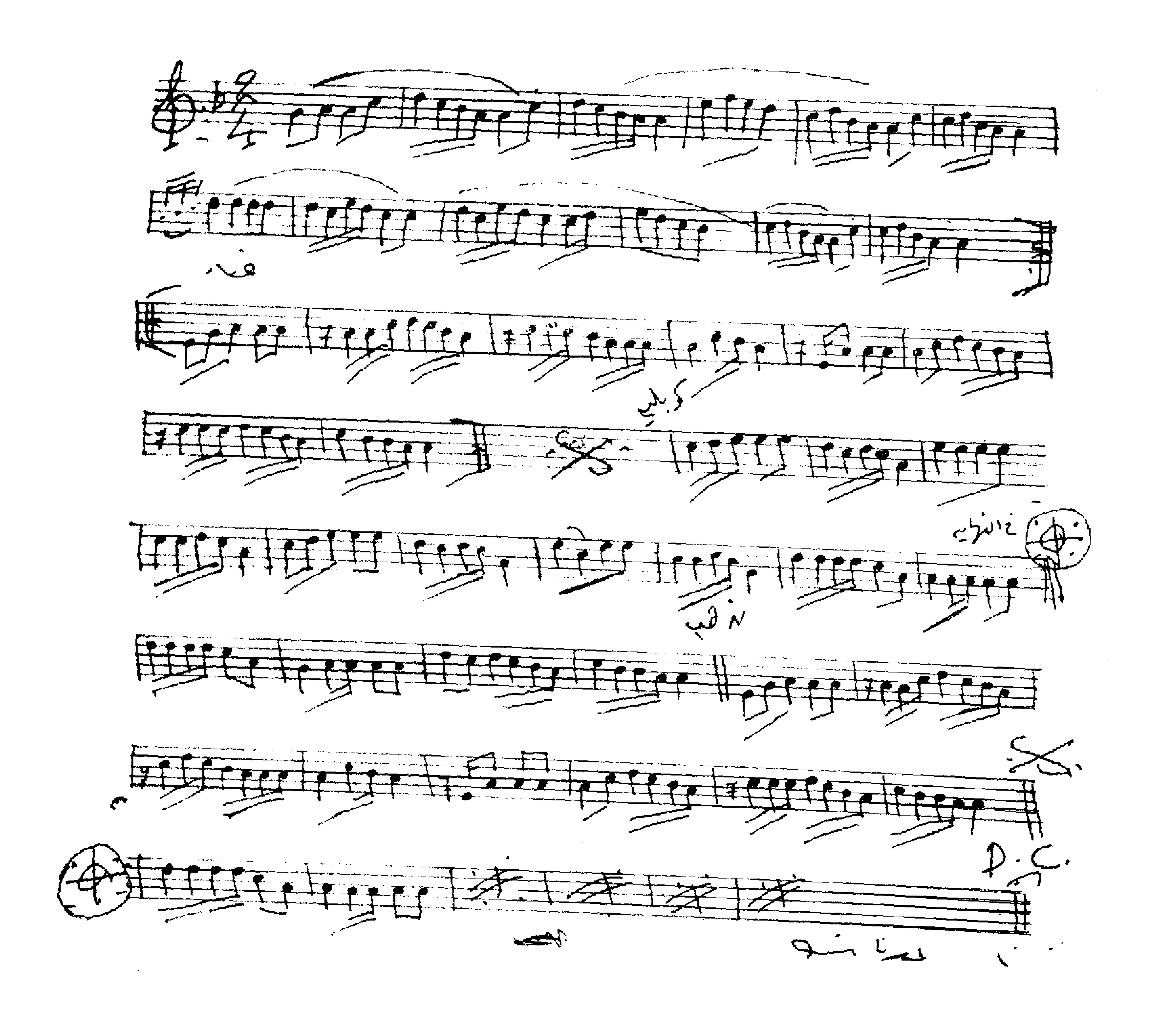


أغنية زفاف
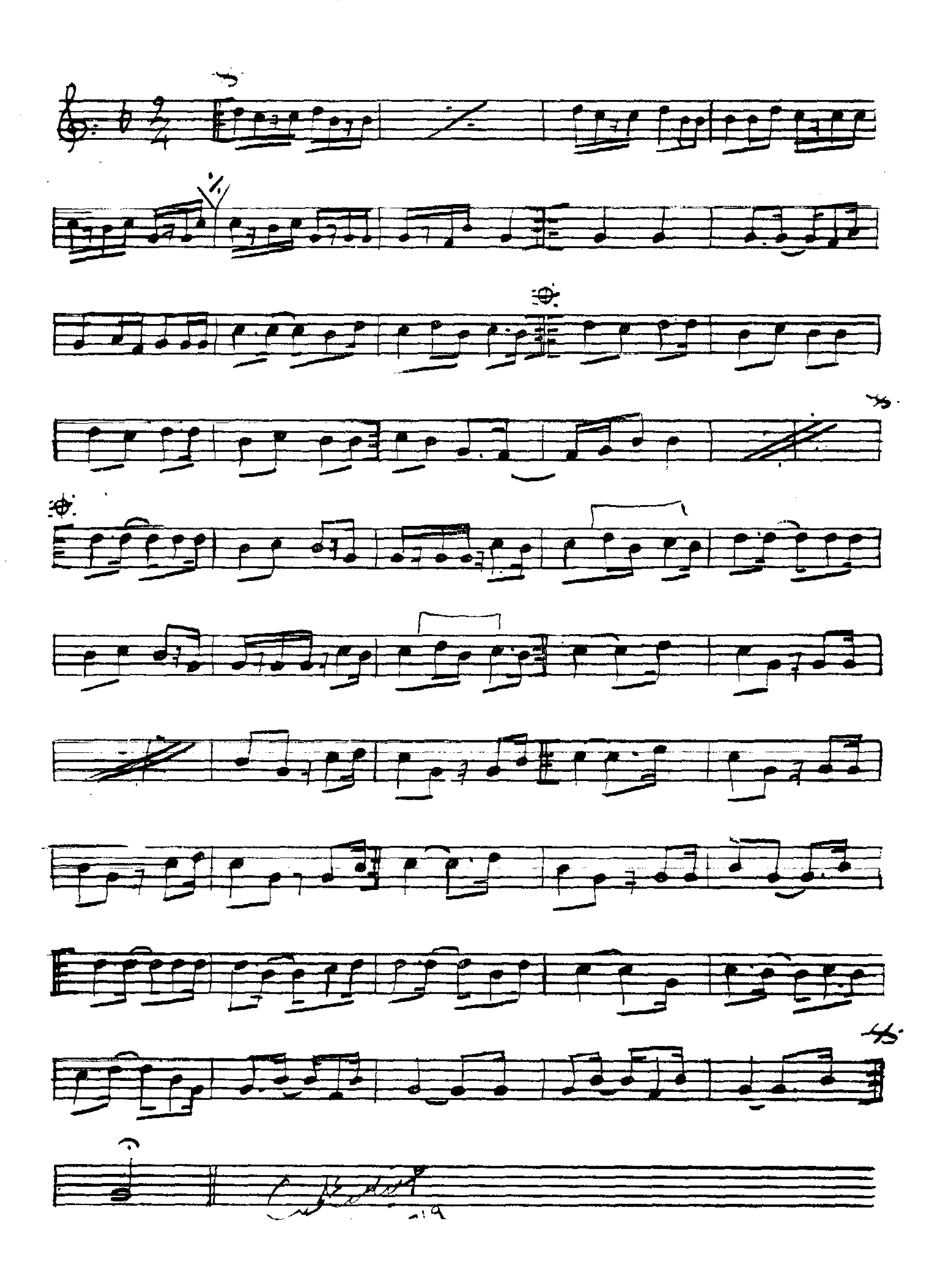


ايقاعات أغانى لعب الأطفال



ايقاعات العمل في المزرعة



من الايقاعات الدينية



نماذج من المواليا النوبية

دسى ليمونا

المواليا النوبى

لما كانت الأغانى النوبية جماعية بطبيعتها فقد دعت الحاجة الى ايجاد قوالب ثابتة مثل بحور الشعر العربى ، ينسج الشعراء فى حدودها وعلى ايقاعتها انغامهم المبدعة فعندما تحمل أخوات العريس هداياه « الشبكة أو الشوار » الى بيت العروس فى احتفال مهرجانى يغنين :

فِكِّرِ كَانْ دجِرّا نَبْتُـــودْ	عندما نصل بالهدايا إلى العروس
إليلاَ وُوسَباحِ اللّبِلاَ	سنواصل الليل بالنهار في فرح
تَبَارَكَ اللهْ وُواشْرافينْ انْجَاتُودْ	بارك الله في سلالة الشرفاء

ومن هذه الأوزان « الَلاليلِكْ وُولِيلَلاَ » و « الّليلاَ وُو بِلّاجَا » و « إلِيمَارِ مَارِنتتُودْ » و « إكّاسيدىوُو يُويُنتو » وفيهِ يقُولْ :

تَارْجِيلْ جُبَالُونيِنّا	من الجبل المواجه لنـــا
سِنْ سُكىٍّ وُو يُويُونتُودْ	اهبط إلينا في موكب الزفاف

ومن أجمل هذه الأوزان الجماعية وأقربها الى قلوب النوبيين « ايجا يجاينا » وويويو » وهم لا يكتفون فيه بذكر أهل العروسين بالخير والبركة والدعاء ، بل يضيفون اللعنات القاسية على الذين لايشاركون الجماعة فى فرحتها :

أَيْجَايْجَالِنّا وُو يُويُونلُو لايْجَــا هـــذا يوم الفرح لنا

نُلُو سُكّارِنْ شُرْباتْ تَلاجْ لايْجَا يومٍ أبيض حلو (زى الشربات)

إسِّيجُو ، لِنّجَاكَو لَوّد انْ آجَا جُرِّيَنَنَا

الأَخوات والإِخوة يفرحون معنا

وَلاَ هِدَّاتَمِيٌّ وُوِيُويُو مَهَمَّدْتَــا لا تزجرى محمدا يا أمى

مَهَمَّدْ هِجَازْ نَمَنُّجْ كُتْجَا فِيذانِي فإنه استحم بماء الحجاز الطاهر

إِرُونْ هِدِّيكَانْ دِوَانِيلْ جِرْجِدُّونانِي أخاف إن زجرته ان يتدحرج على الأرض

وَلا تُوَساتَمِيٌّ وُوِيُويُو مَهَمَّدْتَــا فلا تشتميه يا أمى

جُرَّانْدى لُونَا نُجوكَّانْ اوَّدانْ جُرُّمُونِلُّونْ

حين تصبح الفرحة لنا. . من لا يفرح معنا

تَلا تَرْبَا سِينَّا سَادَّومَانْجَا نمَيِّنَــا لا يرى الطريق ٣ أو ٤ سنوات

هَمَاسِيْن كَلِيْسَ نِكْرَ واكَّا هَرَابيلاَ

وليصرخ مثل القطة أمام رياح الخماسين

تَرُونْ كَتَ تِيْم نِكْرَ بِيْنَجا كُشُوكِّيلاَ

ومثل (الجدى) اليتيم يثغو بين الكهوف

أَبُــو لْهِسِيْنَ نِكْرَ وأَكَّا جِبَــا لِيــلاَ

ويعوى مثل الثعلب بين الجبــال .

ولكن سيد الشعر النوبى هو « دسى ليمونا » وهو اصدقها بعد الحكاية ، ولما كانت الحكايات الشعبية لا تحتفظ بالنص الحرفى كما يصعب معرفة مصدرها او مستوردها ومن أنتجها ومن استفاد منها فان (دسى ليمونا) أو المواليا النوبى هو سيد الفنون الشفاهية واصدقها بعد الحكاية التى يتاكد من أنها نابعة عن الوجدان النوبي وليست فقط متجاوبة معه وهذه بعض النماذج :-

١ - دِسّى لِيمُونجْ نَلَكُونْ وَلاَ فَنَمْٰى

أنا لم أر السمراء ولن أراهـا

أىْ نَلُوكُو دَانْ آجْ جَرَامْ اونْرِى

ولكنى أتغزل فيها مع من رأوها

٢ - أوٌ لُوجْ جِجّتونِى وَسْمَرِ اللّوُنَا

إن ضحكاتكـن بالداخــل

أجُدْ كِوِيْنَ تانيَدانْ أراكٌنَـــا

تجعل الرجل مع زوجته يرقصان

٣ - سَمْرَاءدَايْماًجِجتاً فِيَنامِيْمْر كُمُونّمى

أنت دائمة الضحك لا تغضبين أبدا

وَاللهسَمْرَابِتَنْجا كُلّوسَا ، دُلّرِينْدُورُو

وقد تعودت لحى لك هذه العادة

« مِنْ جِيْر سَبَبْ » لاَ جُّجِولِـى

فأنـا أضحك دائمـا بلا سبب

٤ - دِسّى لِيمُونِى جَاىْ نَلُوكُمْـــنْ

أنا لم أر الفاتنة السمــــراء

آىْ نَلُوكُودْ اذْ آ جْ جَرَامْ جُونْرِى

ولكنِ أبكي الغرام معِ من رأوها

٥ - دِسَّامِنِيٌّ سُمْر كَافِينَامٌـــــى

لا تحزنى لأنك سمـــــــراء

دِسِّى لاَّ تُوْن هُـدَارْ فَانَـــا

فالأرض السمراء تخرج الخضروات

جَلَّلـولَتُوْن نُلُو فَانَـــــا

ومن البلح الرطب يبدو جوفه الأبيض

نُلُو لُتون اكَرِيجْ فَانَـــــا

ومن البلح الأبيض يخرج الناصح

تَنِّيسَنَا تُـوْنُ بُرُوفَانَـــــا

من الأم تأتى البنـــــــت

٦ - نُلُوجُوْن كُجْركَا يْلكُو كَاىْ

لو أننى استطعت الحصول على البذور

إدِّنْ شَبَا كُلُودِنْ كِيلا زرَيُوسَا

التى تنبت الفتيات ذوات البشرة البيضاء

ما نِيسِّلُوجْ فَكِيْن دِيجْبِى

لا ستنبتُّها على أصبعى وسقيتها بدموعى

٧ - دِسِّمِنِيٌّ سُمْرِ كَافِينَامٌـــــى

أنت حزينـة لأنك سمــــراء

دِسِلِمْ بِنِي آدَمْ بَيكَّـا جُرِّيكِي

إن البشرة السمراء تبعث الفرحة فى القلب

آیْ ادِّکِسّی وِیوســــی

وها آنذا شفيت من مرضی

٨ - دُوُروتَاهُونَّا كِبِيرَ هِيِسِنّـــــا

عندما كنت تصعدين طريق الطاحونة

كَانْسر كَا قِرتَدِا مِرْوَاهَا جَاوِتَينْتَانِيَ

كنت أتبعك وقد جعلت عمامتی

آیْ لا هَرِيَّنـــا دافِيِســـی

مفــــرودة مثل المروحــــة

٩ - جِشّجُوْن كِلدُّوْن كِنْ انَجافِ جِسُيبِی

الزرع الأخضر غرق ذلك الذى كنا نعيش عليه

فِنْتجِوُنْ كِلُّونْ كِنْ أنَا وِيجُوسيُی

والبلح غرق وهو مصدر وجودنا

هَامَسَا وِشْرِيْن جِرِشْكَا جُوشَّانْ بُوْسَتَالِيدِتْجِی

ارسلى ٢٥ قرشا بالبريد بمجرد ذهابك

آیْجَـا هَرِنَـاً تَارِيِیَّـــــا

لألحــق بك فــــــورا

١٠ - يَامَا دِیْجكسِوُّ سَجَرِیْل مَنْجَا وِيكَّا دِیْجكِسُّو

كم سقينـــا شجـــر المانجـــو

سمْـــرَاء شُوبِـــــدُّو

يا سمــــراء فی الزمن القديم

إنْ سَجَرا المَنْجَافُدّاكِرْ بِشُّرُنَا وانجِىٌ

فلمـا نما وازدهر وأعطى الثمر

مُوْيِتِى الدِّمِيَرا لِنَّدنُـــا

أغرقـه مـاء الفيضـان

١١ - أُبْلِنْ كُوتّجيلُوجْ جِجْتُونٍّـى

ضحكـاتكن على الجسـر

كَجلْ دُوَجفِيكْ ارَكِيِّنَـا

تُرقص راكب الحمار فوق حماره

١٢ - إسْكَلِينْىِ أَمَنْجَا كِيْركِينٌـا

السـواقى ترفـع الميـاه

دِمِيَرا لَمَنْجَـا كِيْركِيِنٌـا

وماء الفيضان يصل إلى المرتفعات

إبُوجُو نِسْكَلِى جُـوتِى

وساقيـة أبيـك

شُرْبَاتْ نَمنْجَا كِيْر كِينَـا

توزع عصير الفاكهة مكان الماء

١٣ - أُبْلْن كُوتيِلُوجْ ججْتُونٍّـى

ضحكاتكن على شاطئ النيـل

أُوْمَدان كُلُوْسَكارَ كِيِّنَـا

ترقص الغليـون فى فم العمدة

١٤ - إرَايْجَانَا نَتْجَا مَشْشِكَكا نْجُونِى

عندما تشتاقين إلى رؤيـتى

فِجْرِنْ مَتَسانْ وَرِلاَ ، تُجُلاًّ مِنجُوُسَا

قفى على الشط. عند سطوع شمس الفجر

كَبَايِّا سُونِاُوْجَ بَتَرَى

والعبى بكوب اللبن

١٥ - آيْ أُرَّنْجِرِى نِبِيمُونِ

عندما اتجه شمالا اشرب

لْفتَا كَلَّنجْرِى ِبنيمونِّى تَرْكِدِيلتُونِى

وأعود جنوبا فأشرب من الوعاء

نُوجِنىً جِ شْكَافُوْتمُنىً

الموضوع عند بيتك

١٦- آيْارَّنْجِرِى نَلِكِّس، كَلَنِّجْرِىَ نلِكِّسِ

كنت أراها عند عبورى شمالا وجنوبا

إسْكَلِى نُـورا . . . . .

فى ظل الساقية . . . . .

سَمْرَا كَوْكَبْ نَكِرْ نُوِّرِنى

والسمراء التى تضىء مثل الكوكب

إسَّاجْ دُوجَامَهْوِسِنْأيوِكْر فُوتْرى

وام الآن خصيصا من المكان

وَلا دُولِكَّانَمُونِى . . . .

فـلا أراهــــــــــــــا

١٧ – إِسْكِلِى دُورُو سَانِينْجُسْكِرُوسَادَارِينِّى

لقد دارت الساقية وأجلست أفى عليها

دِجِيْجتِينْجا نَجْسَبَنْدِ تْجِـــى

وجئت لنقضى دقيقتين فى غزل نقشبندى

ملاحظة : (الطريقة النقشبندية طريقة صوفية ذات حركات نظامية فى الذكر)

١٨ – تِنُجُونْ مَسْرِكَّادُ لُوسَـــــا

بناحية الغرب أحببت فتاة جميلة

مَتُجُونَ تَكَّلاَكَا دُلُّوسَـــــا

وبالشرق أحببت مثلهـــــا

مُسْكِنْ كُيِيَّلاَتُونْ جِيُّووِيكَا كَابُوسَا

وأنشأت عوامة من خشب الموسك

أَجْ نَاتِرِى سَبَاهْ فَانَـــــا

وقضيت الوقت حتى الوقت حتى الصباح

انظر إلى الجانبــــــــين

١٩ – إرِينِى فَانْجَوَرا كُنْودِ ينْجَاتَاتِيكَا نْجُونِى

عندما تنادين الأصغر منك فى المزرعة

مَرىَ وَتِّيَاجْ سَلاَ مْجَاوَنَـــــا

أعواد الذرة تنحنى فى التحيــة

إلىَّ فُونْجُو سِيَجا جَاوْنَـــــا

ويزدهـــــر القمـــــح

٢٠ ـ تَلَمَوْزُ جَاجُىً جُوْن بَهَرْ ويـــرَا ؟

لماذا أجد الزقاق الذى تسكنيه بحرا

تَلاَ دَافِى نَاجسىً لاشْكَـــالاَ

فى أعماقه أسماك ذات أشكال مختلفة

تَلَّمْ اوْنِ فِرِّيُجَونْ دِبِسْكُونَـــا

مزيج من البلطى والدبّـــس

٢١ ـ وُوتِنُوِيِّنمَا ، مُسْمُسِيِّنِيمَـــا

يانعمة يافتاة الشرق فى قرية مصمص

سِرْدِهَا نَانْجَــا سُوجِرُودِّيـــنى

ارسلى سردحانى بالبريد المسجل

شِلاَ شِـــــيُروسَـــــا

بعـــد أن تضفرى أطرافك

٢٢ ـ أَسْبَتَالِى سِرِيرا فِـــيرِنِّـــى

إننى نائم فى مستشفى الحميات

نِوجِدُّو بُرْشَلاَجْ ادَّافِـــيرِى

وفى البيت أنام على البرش مريضا

بِنَاتِلْ ورْدَتَــا جِيبنْجَــــــا

لو جئت بوشاحك المطرز بالورد ..

نُورِدَّنْ آیْ فَوِیّوِیــــــــــــی

فسوف أستعید مع الضیاء صحتی

٢٣ - إِبُونَا ذَكَایْ اِیجَاتّولّـــــــــــی

سوف أقول كیف أزحــــــت

هُجُلی كُور تَارِیْن شَرَیُونَا دَاسِینْجَا

الثوب الخلاخیل أثناء سیرك فی شارعنا

٢٤ - دَهَاشَایْجَـــــــا وَاكُكُّوسَـــــــا

بعد أن تعدی الشای الضحی

كَاسَرنْجُوْن بِنَاتِیِیْجُوّنَادُمّا مُتُّجْجَا

اربطی وشاحك بطرف عمامــتی

دَهَا شایْجَا یجَاكِرْیِنی تَانْجِــــــی

ونادنی لأشرب الشــــــای

٢٥ - أَسِیرْ بُرتُجَالْ جِزازْ لَبَّقِی لِكْنِجُونِی

أحلی من عصیر البرتقـــــال

دَهَــا شایّونی اجُوّدَا . . . . . .

شای الضحی عنـــد أهلـــك

٢٦ - مَشَا للهْ وِوُسِیِیدْنِ تُونْ جَسَپْ جَالِجْی

یامن تشبهیه عصیر قصب الصعید

نَایْ جِكَا یِنُستَایِ نِیِیّــــــــا

كیف أشرب وأنا لا أعرف من عصروك

٢٧ ـ اكَنِينْجُو فُرُوُ لُجوْل دُونْسَا

هل رباك والداك على القشده

جِسِرِنْ جِسِّى إلاَّ دَامُنْـا

حتى لا أجد عظمة واحدة فى جسمك

٢٨ ـ أيْجَا دَوِّلْ سَلاَمْجَا دِيْنتتـى

لا تسلمى على فى الطريق العام سلاما مباشراً

سَلاَمْـا مُبَاشِرْكَـا

. . . .

أُولاَ كَلُلاَ وِنْجِشَارَ جَاوِنـا

بل اكتفى بالاشارة فى كل اتجاه

اكا تِسِّلكِنَا دُلكَا جَاجِـى

واحذري من يدعون حبك أكثر من أعدائك

إسَّاخْ وَجْنى رِيْف كَلَجَـا

فالوقت مثل السيف

٢٩ ـ آىْ لِكودينسنَ فِكْر نَلُونَتَانِى

كنت آتى لأراك لمرضك

آيجُونْ ادكسى دِيّالتُّون فَسِّى

لولا أن داهمنى مرض الموت للحظتها

٣٠ ـ أيُودّ افيرى أيودّ افِيرِيلا

أنا متسلق على فراشى مريضا

آدِمِينْ جِسِّى لا يْجَاكِرْنَـــا

جميع الناس يأتــون لزيارتى

فَلَفِى تُورَفِيكَـا تَمُنُّــــنِى

والخارجون من عندى يطمئنون الداخلين

أُونَو لأُتُونْ نُوْرَكَا جَيَاجِبِى .. . الذى يخاف الله

جُوسَمْرَا جِيجَا تِـــــــرِى

يذهب إلى سمراء ويشرح لهـا

إِينْدُورُو ذهْبَا بِيجَـــتِرِى

أن صدهـا ذنب كبــــير

٣١ - مَارْجَا كَايُودِّرِى مَرْتَبَالْ دِرِينُوسَا

زعمت أنى مريض ونمت على المرتبة

أنِينْ جَفْلِكَانْ جَرَامْ اونــرى

وحيد تغفل امى أبكى غرامى

٣٢ - آىْ جِرِيكّــــــرْنَـــا

قد نسير فى الطــــريــق

نَابيَانْ دَوِّلاَىْ جريكِرنَــــا

حــرام تركى هنـا فقدتنى

إِيّو لْتُونْ دُنْجِسِيْن اركّرْنَـا

فأنت سبب العمى الذى أصابنى

لَبْهْنَتَاوتَــــوْن اِرْكَرْنَــــا

إلى تحت شجـــر الكافـور

٣٣ – آيلى اربيرِى أَيْدُسُكوكَا ايْدُونّدوكَا

لا أعلم أى مصيبـة حلت بى

آىْ مِسُلِمْ سَهَادَا جُوجِينْ تَانّمينلاَ

جعلتنى أسير فى طريق قفـــر

آىْ دَوتُـــورا دَافِـــيرِى

لم يسر به مسلم لم يوحد بالله

٣٤ – إرْبَتَاتْسكَا سَمْرا مَكَرُونَا جَاوُوسَا

لقد أعددت البطاطس والمكرونة

نَـــاىْ جَزْ مِيَداجِى نُوجِتّــــــا

فمن المدعـو فى بيتــــكم

٣٥ – فِلْن ابْرِى نَكَرُ كمُتـــــوكِى

مثل قشرا لبصل تسمع فرقعة عظامى

تَمْكُـو لَنَـــاجْ اكِّينَـــــــا

حين أتحـــرك ويسمع الجيران

٣٦ – وُوسِنِي كِمْسُجِزْ مِسْرِ لاَجِـى

يا من استمرت ٤ سنين بمصر

هِيلُو لِينِنْجا ، هِيلُو لِبُوجَـــا

النحس لأمـك وأبيـــــك

هِيلُـو لِكّا كُوجُوجَــــــــــا

أو لأهـــلك جميعــــــا .

وُومَسرنَــا يلْنجَا تُونْ فَمُّونى

يا مــن لا تسأمين مصـــــرا

تِيَتانْجَـــا نَالَا تَــارِيــــــنىٌّ

إلغى الشيطـــان وعـــودى

٣٧ - سَفَرُ وسُكُونا فَيَاتَانُّجُـــــــو

الذى سافر تصحبــه السلامة

جِلْبَـــا هِيُرجُــــــــــو

وكذلك الخــــير يتبعــــه

وُوسَفرمُـــوْن ارِكِلَاجكِـــوُ

فيا من بلا رحيل يقيمون بالبلـد

اكُـــــونْ افْيَالجُــــــــوُ

أنتم أيضـــا تصحبكم العافيـة

آيجُـــوْنَ فسافِرُولِيـــــــنِى

فأنـــــا ســوف أسافــــر

٣٨ - سَمْرَا جُــوْن مَسْرِفْ كُونَجا بِيْتَانِى

سمراء التى يناسبها مصـــــر

مَيسرّاجون سَلْسَانْ كُونَجابِيْتَانِى

وأكل الصلصة على موائد مصر

كُرْتلُتِوُن اكَا دُمِّلاُ تُوبَا مِنْجُوسَا

غائصـــة الركبة فى المــــــا

مَاسُـــوَرا اوينَجــا كُفٍّـــي لتغلــقِ الماســــــورة

٣٩ - سَمْرَاء إزْبِنَـا هَا لَتُـوَدانْجَـا

سمـــراء تعـرف حالـــتى

ايَدانَاجَـــا جُـــوُويـــــي

تلك التى عاشت معى زمنـــا

هَمْسَا وِشَرِيْن جِرْشِكَا جُوْنَتَانْ

أرسلت ٢٥ قرشا بمجرد وصولها

بُوْسَتالِيدِنْجَـــــــــا

مـــع البريـــــــد

هَالَنَّـــا تَارِيَاجِيخْنَـــــا

لأذهب إليهـــا سريعـا

٤٠ - سَمْرًا جُونْ نُوجِـــــى

بيت سمـــــــــراء

آبـدِيْـــنْ سِرَايَـــا مُوْلتَانًا

قصر عابدين لا يساوى شيئـــا

وِيَرَايِيمُونَـــــــــا

بالمقارنـة إليــــــه

٤١ - فَرَانْكِبُو لِنْ وَرَكًا لِزجِيًّناكِنًا شُوْنَدِنًا

كطابع البريد فى التصاقـــه

إسْكِنْ مَهَدُوُ مِريكَـــــا

تلتصـق الشفاه فى القبـــل

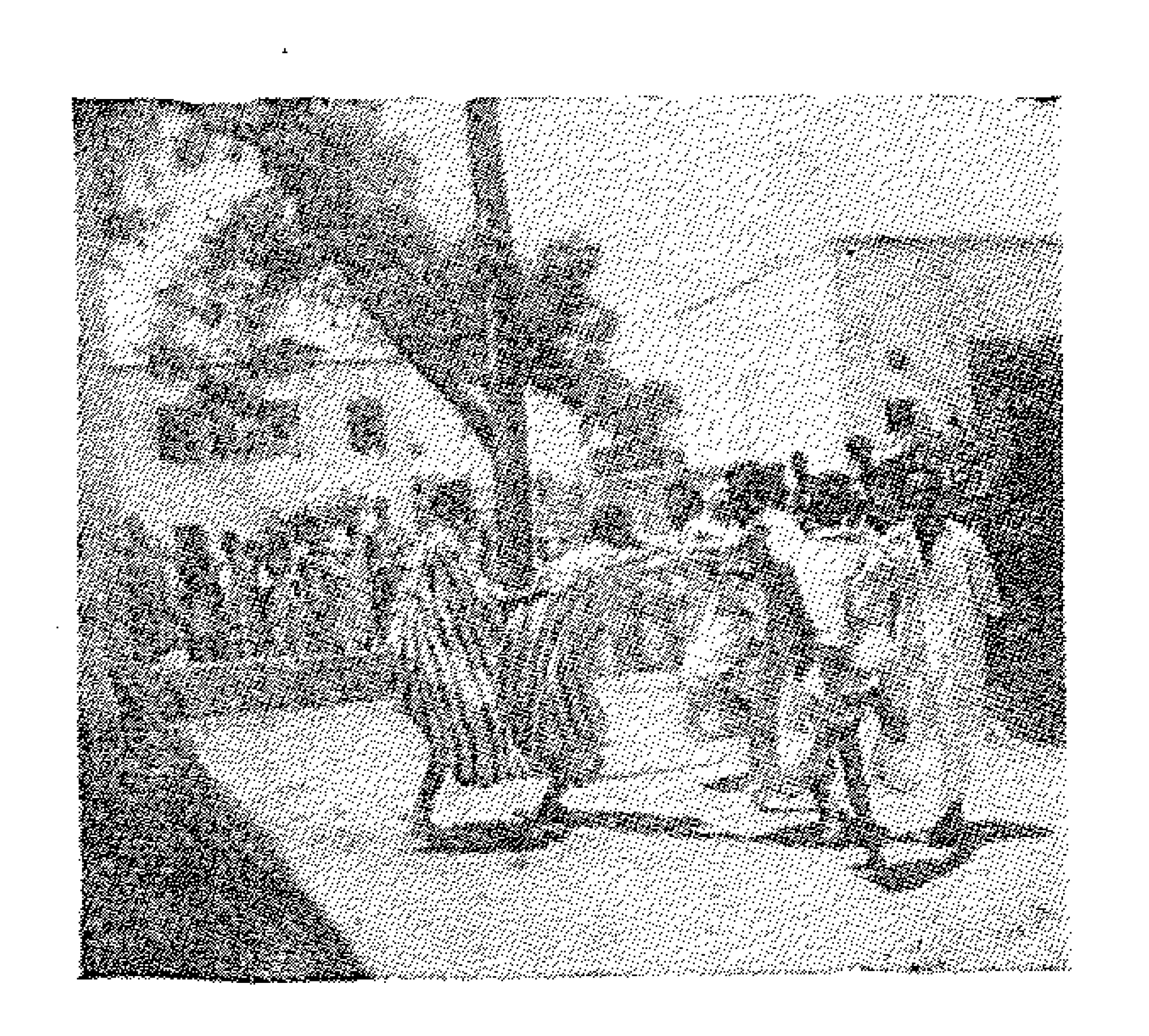


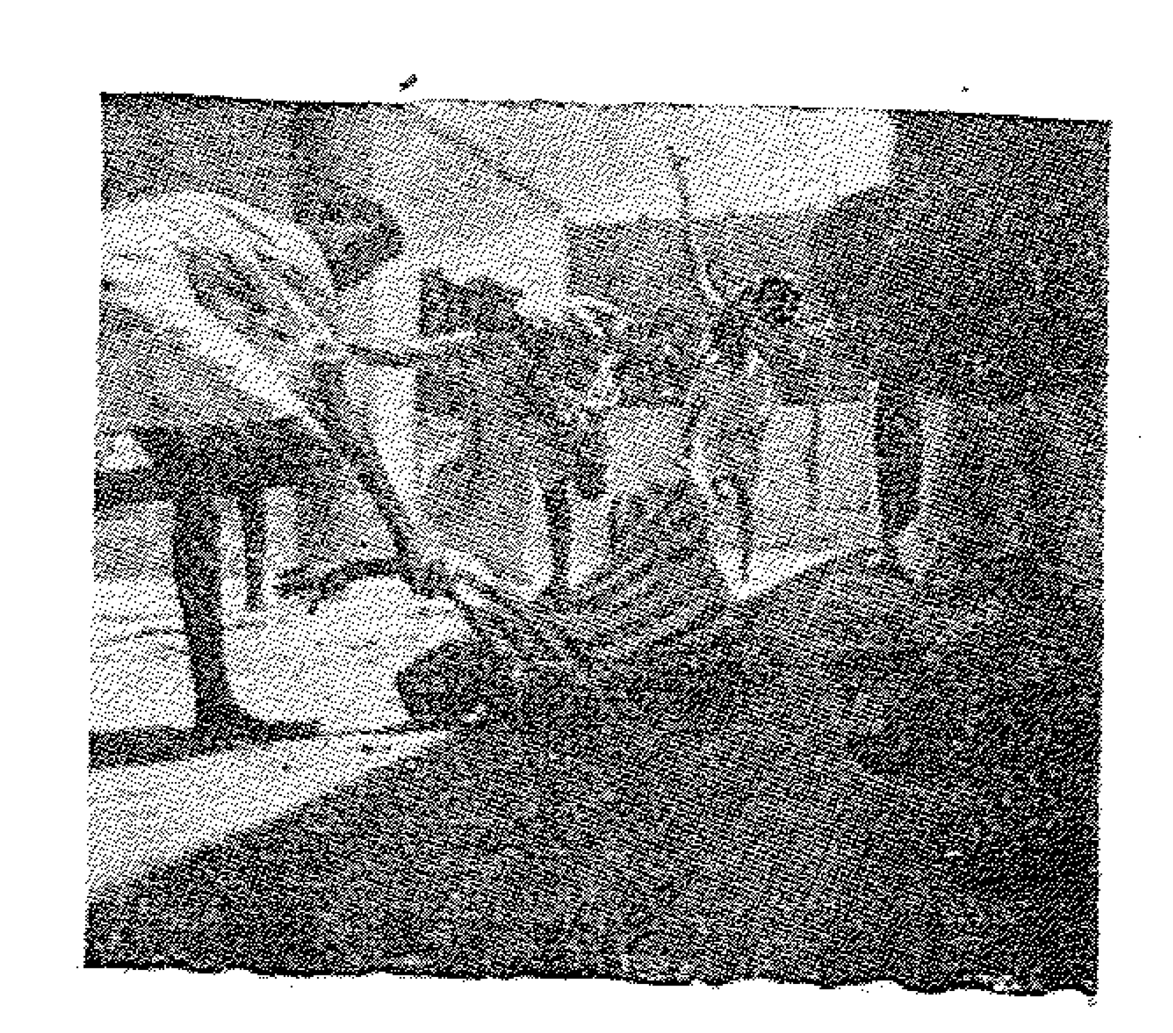
الدف (الطار)

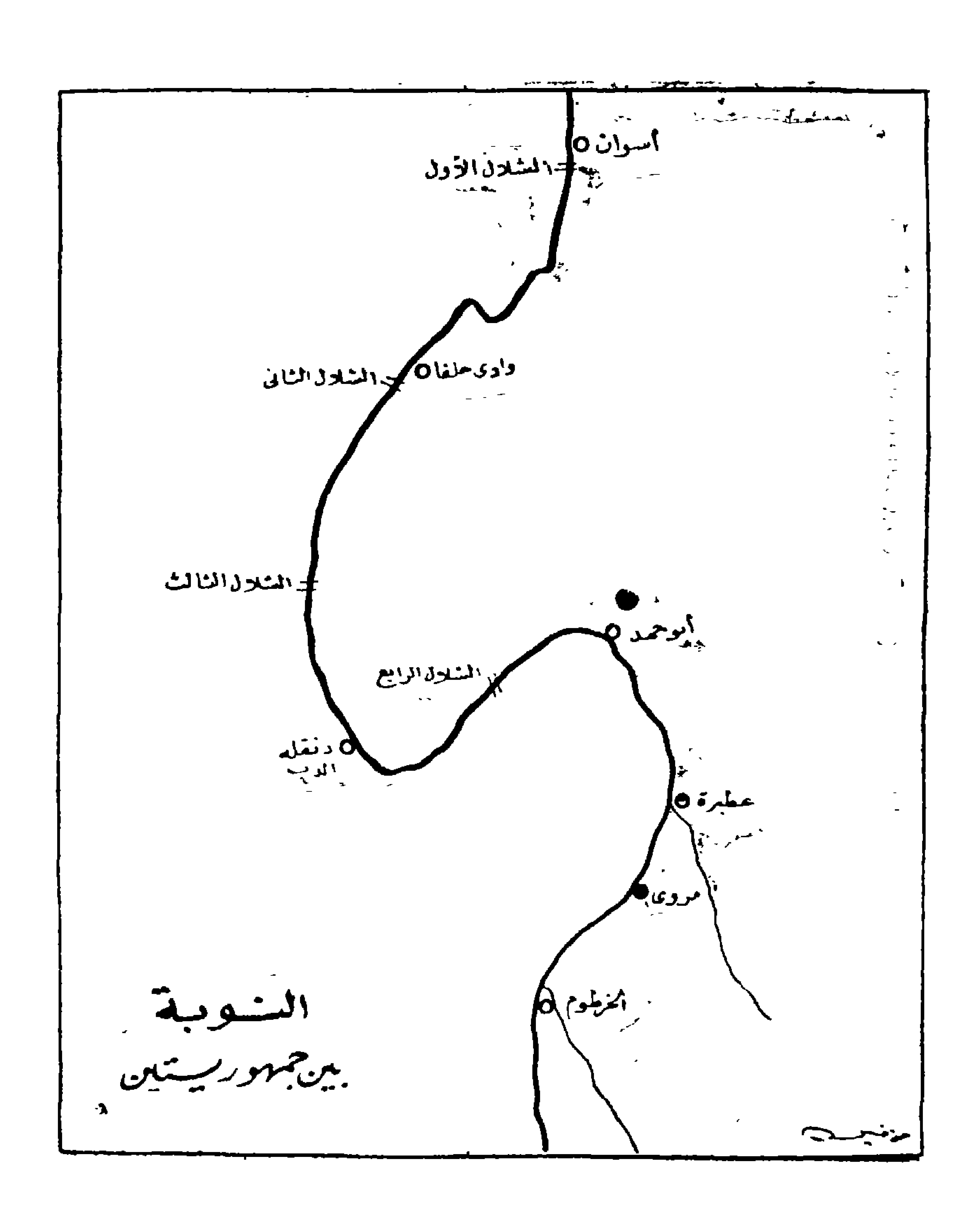


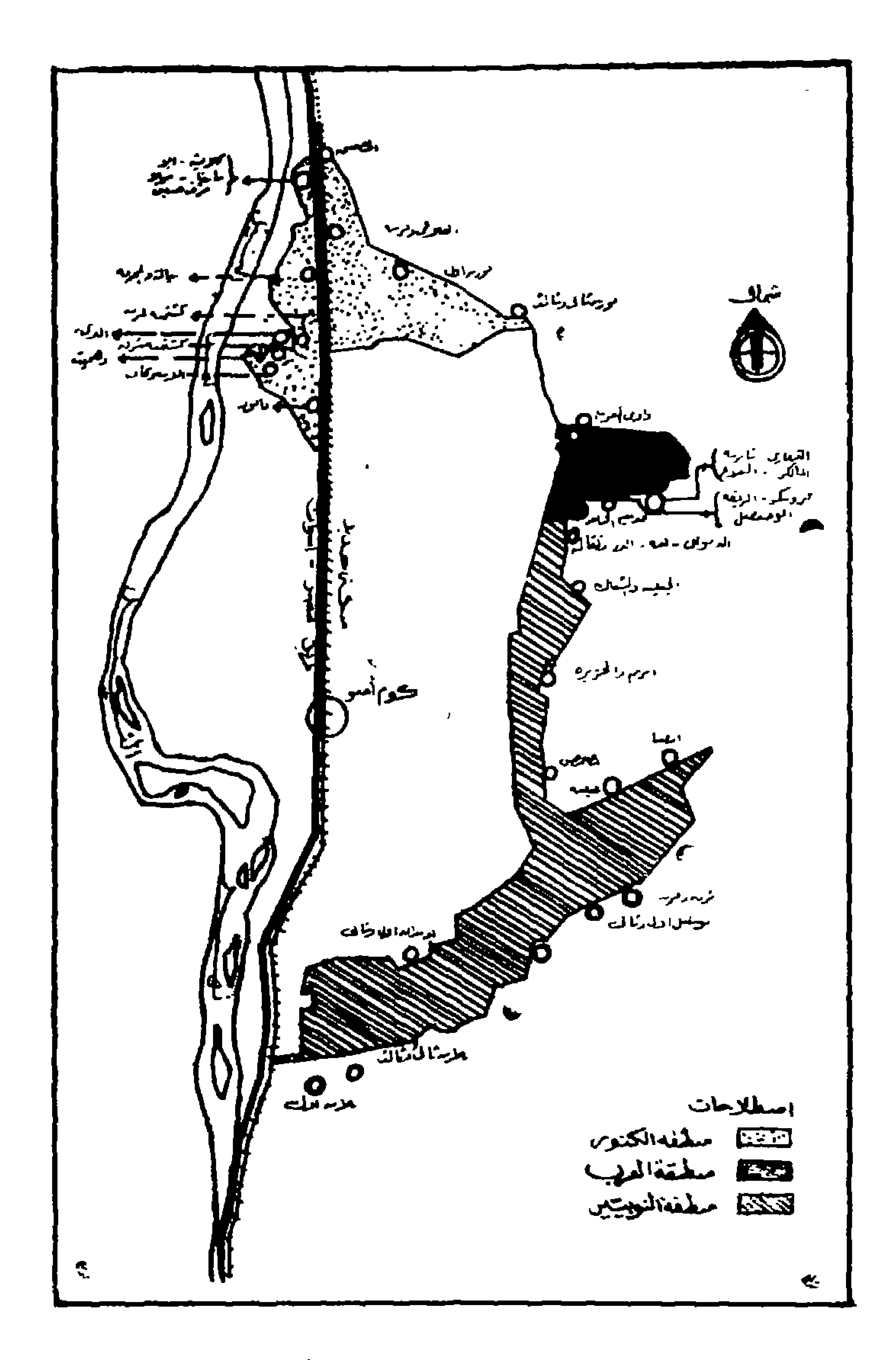
الطنبور








أسوان
الشلال الأول
وادى حلفا
الشلال الثانى
الشلال الثالث
أبو حمد
الشلال الرابع
دنقلة
عطبرة
مروى
الخرطوم
النوبة
بين جمهوريتين



النوبه بعد التهجير بمنطقه كوم أمبو

(بخلاف منطقه اسنا)

تُوْتُوُ مَهَمُّلُو ويكـــــــا

وفى الحشا محمد يلــوح

إسْكِنْ سُفَرْجِى بِيْه وِيكًّا سُورُوُتِيًّا

أعده ليخدم الموائــد الرفيعة

٤٢ – آيْجِرُوُنْ موربْينجَا دينجا دِينْمِيْنكَانْ

إذا لم تعطى يا سمراء صورتك

إرِينْى جَمِيْس لُسْ كُم لُـــــوْج

سأنتظر وجودك بقميص النــوم

دِهُلِيَز لا فِيُّوكَانْ

ذى الأكمام الصغيرة بالدهليز



تحنو الأم النوبية على طفلها ، وتضعه عند ملتقى قدميها بالساقين وتضع له أرجوحة طبيعية



البكاء في عناق .. و « الحزام » في الندب لا في الرقص كما في الشمال ..

كِرسُورَا بِيْنجَا فِنّسللِّـــــى

والتقط لك صـــــورة

٤٣ ـ أَيْجَانَانَا وَدَهَقُو دَانْجَــــــا

أرأيت وضـــوح إتانـــى

وَجْتجُونْ اوْركَا سِرهِنْ كِيرىِ

مما يجعل الله يسهل لى فأراك

وَجْتِجُونْ شَاىْ اجِلافِيْن كِيرىِ

ممشطة الشعر أو معدة الشاى

وجَتْجوُن مَكْتَبْل فَجُـــــــونَكِــــرَ

أو مثل الذاهبة كم لى محل العمل

لِبْسُوسَا سِلّمِلْ سُكَا فِينَّاكْرِ نَـــارِ

تهبطين السلم فى كامل زيــك

٤٤ ـ مَلّنْ مَسِرْكَا يبجِــــــــلّا

بينما كل الفتيات يتجهن إلى مصر



طعام النوبى وخبزه تقدمه الزوجة

سِيْف لِسُكِندريـا ايجِـــلاً

وفى الصيف للإسكندريـــة

سِرّهُبُور انجُودَجَـا تَانجِيـلاً

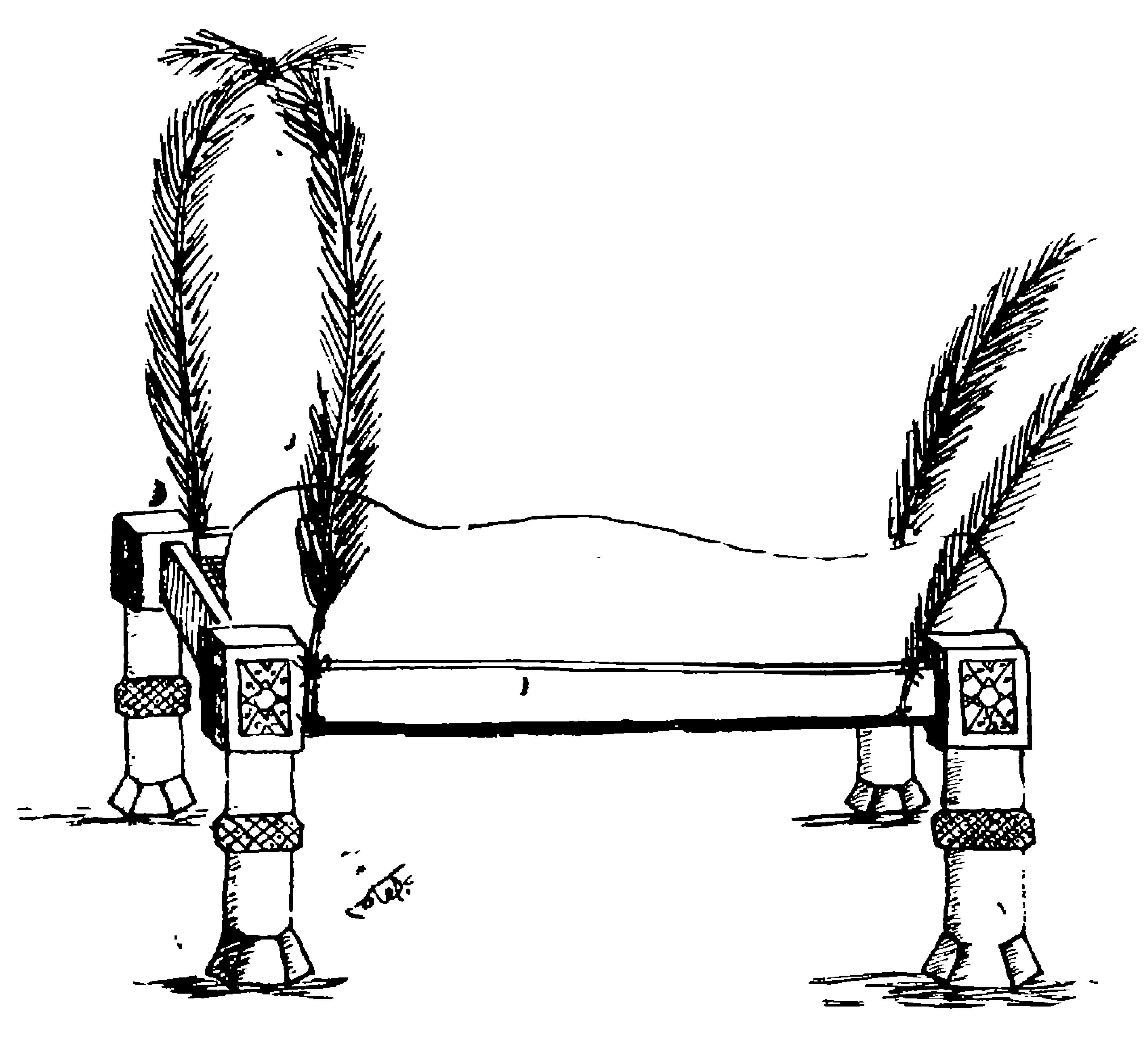
ويسرن بالطريقة الافرنجيـــة

إلّم بلـد لا تِيجُـوسُـو ؟

مالذى يبقيك فى القريـــة ؟

٤٥ ـ اجَيّامَنِيً دَوّتُودِنْجَـــا

إنى أَتعجب من خنقك فى سيرك



سعف النخل على سرير الفقيد وعلى قبره ..



فصد الدم من تقاليد النوبيات

سِيّوَ سأيُولا جَاتَانجُاجَـــــوا

بَعد عبور الطريق الهرهـــلى

سِكَرَيْن مِزلَجِانْجا كِيرِ نَجـا

تقصلين مزلقانا شديد الانحدار

ارْهَانْ بُرُوشُجًا وِلُجُـــــــونْ

إنك تشبهين البنت حاملة الجرة

حًبِرا جُو كِريناكِـــــــرِا

فى الشال وعليها الطرحـــــة

ارِوُكا فِى سَفِينْهتُـــــــودِى

وأنت تحملين الصفيح بالماء على رأسك

٤٦ ـ سَمْرَانْ مُجَابْلاَ لْشكَالاَ

سمراء تقابلنى بأشكال مختلفة

وَجْتِجُوْن شَاىْ لُجِدُّوِفيْن جورِى

أحيانا والشاى أمامهـــــا

وَجْنِتُجْون ارْكَا سِرِّهينْ جُورِى

وأحيانا تمشط شعرهــــا

وَجْتِجُونَ مَكْتَبِلِ فَجُونَكِــــرَا

وأحيانا كأنما فى طريقها لمكتبها

لِبْسوُسَا شَالُو تُحُلا جَابِــــلىٌ

أقابلها على الرصيف فى أبهى الثياب

٤٧ ـ أبَا هَمَّامْ جُوزَا مِنْكو كُــــوكُ

أين زوج الحمام كان هنـــا

أبَاوِىَ وايَا نَقِلاَ سِلاَنُجُـــــو

أين ذهبت إحداهمـــــا

أونَا دِينُجوْن فَتِفْـلاَ وايُونَـا

والأخرى تتأهب للرحيـــــل

آىْ امنْ كُوتْلايَجا دُمًّنا مِنْجُوسَا

والماء حتى ركبتى وأنا افكـر

آيكا شَـــــــــاوِرَدِا

هـل أغـرق أم اعــــود

أبَا كِلْوِيَا وَالَّلا ويلُويَــــــا

إن الغريق لا يخاف المـوج

وَالاً كُديُّسى مُوجْكَا جَاجْمُنَـــــا

والجدار المائل لا يستقيم حالـه

وَلاَ هِيتْ فُوجِى لِفتَوجُودْ هُنَـــا

فى موعد ثابت تملئين وعاء الصفيح بالماء

٤٨ – مِيَاذْوِيلاَّجُونْ امْنْجُـــــولىٌ

. . . .

مِيادَّ وِيلاَّجُـوْن زِرَادِيجِـى

وفى موعد محدد تسقين الزرع

ارْشِبْر مِلَملجَـــــــــــا

انك تحملين القفة المجدولة

انِجرْ جُلبـا انْجرْ مِيِّلنتَّانِى

تقلبينهـا حينا وتملئينهـا حينا

بَالنجّـا فُجَجًـا سِلاَنْجى

شغـلت أفكـارى

٤٩ – سِمّركُمُونْ تيجِى . . أَنيِنداَنْتِيجى

لا تحزنى . . . انتظـرنى

حَنْفَا لْتُون هُاجُلِ كَايَا .. فَرّاتِيِريتىٌ

ولا تغاضبى أمى إلى أن أعـود

ومعى هـدية خـلال من حلفـا

٥٠ – ايْجَا كَاسِرْكَاكَا سِبيّمِّـى

تقولين لى لف العمامـة

مِلاَّكا سركا كا مييـنـا

وأصفـر أَطرافهـا

أَيْجَا سُودَانِ جُوذْرِى بِيْجنَمِى

تقولين ضع على رأسك طاقية سودانية

تَا ايْجَا ها لفوكى جودرى بيجبنمى

والبس ثوبـا

أَيْجَا وَرْجَا تُورولى جُو شِريَنَّامِى

واقفـز وصفق وارقـص

ايجاد لجد نجر لونكا بيجا دينوسا

وتفتحين أمل العشق ثم تتركينى

يَا هاين ارفسلانجـى

يا خائنة . . . إلى أيـن ؟

٥١ - هَلْفَا لُتون كِرُونْ هُرَامِجُــــــا

لا تدخلى للبيت أغطية أنت

تَرِدْ تَانْ اوْرِيْن كَبَاد أسكِرِينَ جَتَا

من أرض حلفــــــــــا

نُوجِنًا جَانْ أَدِ تَّامّــــــى

فالطرد مزقه الفساد وفيه رائحة الجنود

٥٢ - سَسِافرُو كُّومَهْنَا لاوْرُوُجَــــا

بعد أن ودعت المسافرين فى المحطــة

سفَرُكُّومهنا لا وروجـــــــا

فى طريقهم للشمـــــال

سَافِركُّوبَنَانِجُو شَالكونَجَامِرْجُوَسا

« تخرمت » بوشاح وعباءة المسافرة

آى آجْ جَوِّرِي سَبَاحْ جُونَـــا

وظللت أعــود حتى الصبــاح

٥٣ - مَشَرَا وَاللُّونَانًا بِكِّيخْيَــــــا

هل أقول عنك بدر أم شمس

كِرْنيدْ نكِر جُجْنَ فاثْمَا ، النَّبى نَسًّا

أم جذوره مشتعلة يابنت آل النبى

نَسْرَايِتْج اسَلامِيْنكِينَــــــا

يا من يدخل جمال النصرانى للإسلام .

٥٤ ـ أَيْجَا سَلُومُونَـا يَاجِيجِى ؟

تزعمين أنى أنا لا أصلى ؟

آيجِى بُودَانْ مُسُبُهكا سَلَتْجَـا

أنا الذى بعد أن صليت الصبح مع أبيك

جَامَانَـا تِيـــــلاَ

اتَّكأنا معـا على جدار المسجد

اتَكاسُبْهَا تُودَانْجَـــــا

وها هى مسبحتى معـــى

٥٥ ـ ايجَا لِى نَتُمنَّـا يَاجِيجِـى ؟

هل تزعمين أنى لا أزور حيكم ؟

آى امانِاتِكَا فَتِمُّـــونِّ

لن أجعلك تقسمين كذبـــا

كِيُّـــا فِينَامِى

خوفـا على جسمك النامى

آج نَمّى « كلَ يوم » جَايْجَـا

أنت ترينني كل يـــوم ؟

٥٦ ـ إنْ جَرَامُنجون هَرِيجَاجُونْ وِيَـرا

إن العشق ونار الحريق صنوان

ايجَا نَارالجَرَام جَاجِسْمَنَا وِليودِينًا

وبعد إشعال جسمي (بالكبريت)

ايجانارالجرام ؛ جَاجِشْمَنَا وِلَيُودِينَا

بنـــــار   الغــــــرام .

دِيكَا تُومُونِي آجْ تنَجِي ؟

تريدني أن تمضي بعيدا والنار مشتعلة

٥٧ – إلى لا إله إلا الله   لا إله إلاَ الله

مَهمد يا رسول الله   يا محمد يا رسول الله

نُوَر كِاجَاجْمنُّو   أَولا تخافون الله

اذْكَادَاويُومِوُّ   فتداوون المريض ؟

ومن هذه النماذج نرى أن الأمثلة من ١ إلى ٧ تصف الفتاة النوبية وجمالها ، ومقاييس الجمال عند النوبى البشرة السمراء والضحكة الموسيقية وهو يصورها من بيئته الزراعية فيتمنى ان يجد (بذور) الغلات وأن الأرض السوداء تخرج الزرع الابيض ، والأمثلة من ٨ إلى ٢٨ تصف البيئة النوبية . . الأماكن والثياب والحلى وأوقات الطعام والشراب والشاعر النوبى لاينسى التحدث عن آثار خزان أسوان وتعليته من الدمار للنوبيين وهذا هو سبب سعادته العامرة بالسد العالى فلأول مرة يفقد النوبى أرضا ليجد حياة أفضل . . والنيل والشاطئ والسواقى والمزارع والاسماك تاخذ أجزاء عظيمة من ديوان النوبة الشعرى أما الشاى فليس مجرد مشروب عادى أو مشروب عظيم مثل الخمر عند الفرس وعند الغزليين العرب ولكنه يرتبط بالعمل فى المزرعة حيث يسود نظام رى الحياض وفيه تقسم الأرض إلى أحواض ويتسرب الماء من حوض

لحوض بعد أن يمتلىء الاول وهكذا ، وهذه العملية تستغرق وقتا للانتظار لذلك يتسامر الشبان ويلعبون ويشربون الشاى .

والأمثلة من (٢٩ - ٣٥) تصف عجز النوبى أمام الظروف المحيطة به وإن كانت الأمثلة السابقة لا تخلو من ذلك فالشاعر النوبى كثيراً ما يتحدث عن فقره ومرضه وضعف حيلته فبعد خزان أسوان تحول الطريق الأخضر إلى مزرعة أشباح وجن إلى أرض قاحلة إلى ضياع بعد أن كانت الحدائق والبساتين والمزارع فى كل مكان

وفى الأمثلة من (٣٦ إلى ٥٣) يتحدث عن المهجر وأحسن مافى هذه الصور هو إحساس النوبى أن كل شىء جميل وكله أمن واستقرار ومع كل نبضة أمل يفر من القرية مع هجرة الناس حتى العصافير والحمام ويودعون القرية ، والشمال هو المهجر الطبيعى وقد يتحدث الشاعر عن السودان باعتباره عنصرا هاما فى اقتصاد النوبة فسفينة البوسطة تتبع السودان وأربعة ملايين مواطن فى السودان وهذا عدا رابطة اللون فى غير المنطقة النوبية وقد يتحدث الشاعر النوبى عن الهدايا المختلفة من العطور والثياب والحلى السودانية وأحيانا يحس فى السودان منافسا له على قلب محبوبته فيهجو السودان وأهله . ؟ ؟

والامثلة من (٥٣ - ٥٧) يتحدث عن الايمان الصوفى وهو لون من الهجرة الوجدانية عذابا فى الواقع الأليم فى النوبة القديمة .

فهرس

الموضوع	الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٤٢٧٦/١٩٨٤

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ٠٤٢٥ ـ ٦

يعرض لنا هذا الكتاب العادات والتقاليد فى النوبة منذ آلاف السنين . هذه العادات التى انصهرت وتضافرت لتتحول فى النهاية إلى طقوس وعبادات لا تنعكس فى الأعراس ومهرجاناتها فقط ، بل هى تتفجر من كل جانب من جوانب الحياة . . فى المزرعة وفى البيت . . فى النهر والجبل . . فى الفيضان والتحاريق . . فى الإقامة والهجرة . .

٢٢٠ قرشـا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب